

رواية

العاطل

عراق ، ناصر
العاطل: رواية / ناصر عراق. ط1. — القاهرة :
الدار المصرية اللبنانية ، 2011.
336 ص ؛ 21 سم
تدمك : 8 - 658 - 427 - 977 - 978
1 — القصص العربية.
أ — العنوان 813
رقم الإيداع : 2341 / 2011

©

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت — القاهرة .
تليفون: 23910250 + 202
فاكس: 23909618 + 202 — ص.ب 2022
E-mail: info@almasriah.com
www.almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى : صفر 1432 هـ — يناير 2011 م



ناصر عراق

العاطل

إلى الدكتورة رشا عبد الله
زوجتي الحبيبة وبهجتي الدائمة

ناصر عراق

1

هذا أنا

نعم... أنا لم أتمكن من تقبيل أي فتاة طوال حياتي، على الرغم من أنني سأكمل ثلاثين عامًا بعد شهر واحد فقط من الآن! أعرف أنكم قد لا تصدقونني، فما من شاب في عام 2006 لم يتمتع بلذة لمس النساء، فما بالكم بواحد مثلي لم ير طوال حياته امرأة عارية أبدًا، ولا حتى تطلع إلى نهدي أنثى متكبر، يصبو بشغف إلى المداعبة والتقبيل. دعكم من تجاربي المؤسفة مع هند المغربية وإيرينا الروسية وسوما الصينية، فهذه قصص أخرى مخجلة ومحزنة، لا يمكن حسابها أو الاعتداد بها.

حسنًا... ستسألونني لماذا حرمت فمي من متعة تذوق شفاه المرأة؟ وهل هذا الأمر يعود إلى خلل جيني ونفسي، يجعلني أهفو إلى من هم مثلي من الشباب وأنفر من الجنس الناعم؟ باختصار ستسألونني: هل أنا شاذ لا تتحرك مشاعر الجنس داخلي إلا إذا لمحت فتى أملح الوجه؟ وسأرد عليكم فورًا وأطمئنكم، بأنني شاب مكتمل الرجولة، تحرقني الشهوة، وتكوينني الرغبة... أكره الشواذ وأتقرز منهم، لدرجة أنني حين التقيت واحدًا من هؤلاء في السجن في دبي وكان فلبينيًا، نفرت منه على

الفور، وظللت ملتصقةً بأمجد صفوان على الرغم من انهياره النفسي الشديد وبكائه المتواصل. ثم أن نيران الرغبة تكويني حين أغرز عيوني خلسة، وأنا جالس أدخن الشيشة في المقهى، في السيقان والمؤخرات المكتنزة للفتيات والنساء اللاتي يعبرن أمامي، وأصاب بخجل يصل إلى حد الرعب، إذا وجدتني محشورًا داخل أوتوبيس، إذ تشتعل ذكورتني رغمًا مني لأي سبب وأعجز عن إطفائها، وتصبح أي حركة احتكاك مع من هم ملتصقون بي داخل الأوتوبيس كارثة بالنسبة إليّ.

سأحكي بصراحة أكثر، وأعلن لكم أنني تعرضت للصفع على وجهي مرتين داخل الأوتوبيس، من امرأتين مختلفتين بسبب الأعباء المذكورة وقوانين الشهوة!

وأقسم لكم أنني لم أسع أبدًا إلى الوقوف خلف أي فتاة أو امرأة داخل الأوتوبيس، بل كنت أجاهد وأبتعد قدر طاقتي عن بنات حواء؛ حتى لا تفضحني غريزتي التي تتقد فجأة كالنيران من دون إذني.

لا تقلقوا... لم أنس السؤال الرئيسي، وسأجيب عنه حالاً: لقد قهرني أبي.. هذه هي الإجابة السليمة والوحيدة التي تشرح لكم كيف لشاب مثلي على مشارف الثلاثين لم يغرق، ولا مرة، في جحيم القبل! ولم يحتضن، ولا مرة، فتاة دافئة ذات شعر ناعم ومنسدل، ولم يعبث، ولا مرة، بجسد أنثى هائجة تفتش عن الارتواء. ولم يتلذذ، ولا مرة، وهو يمسك يد امرأة ليمررها على حيوانه المشتعل، فيفرح بجسمه ويتشبي بذكورته!

نعم: أبي.... هو المشكلة وهو المأساة! صحيح أنه يعاني الآن أمراضاً مؤلمة، تجعلني أرسل له كل شهر مئة دولار للمساهمة في تكاليف علاجه، ولكن ذلك لم يمنعني من أن أكرهه.

لا تعجبوا، فأنا أكره أبي، ولا أطلب له الرحمة، وسأفرح كثيرًا عندما يرسلون لي من القاهرة «مسج» على الموبايل، يخبرونني فيه أن أبي قد مات! آنذاك قد أدعو أصدقائي هنا لتناول العشاء والشراب في أفخم المطاعم، حتى لو كلفني الأمر نصف راتبي! وسأقول لهم بصراحة: إن هذه الدعوة الكريمة، والاحتفال الصاحب، تعبير عن ابتهاجي برحيل أبي هذا الصباح!

عفوًا! لا تظنوا أنني أنتظر موته على أحر من الجمر بغية أن أرث منه شيئًا ما، فهو رجل فقير الآن، مجرد ضابط عجوز يتقاضى معاشًا بائسًا، كما لا تعتقدوا أنني إنسان كافر وشيوعي كمنصور ابن خالتي، لا يقدر الدين الذي يحضننا على ضرورة أن نخفض جناح الذل من الرحمة لوالدينا! بل أنا شاب مؤمن أصوم رمضان كاملاً، وأحافظ قدر طاقتي على إقامة الصلاة، صحيح أنني قد أنشغل عن أحد الفروض، أو أتكاسل عن أدائها خاصة صلاة الفجر في الشتاء؛ نظرًا للبرد الشديد، ولكنني حريص على أداء صلاة الجمعة في المسجد القريب من بيتي أيًا كان موقع سكني، وأركز كثيرًا على الخطبة التي كان يلقيها الشيخ عبد الرحمن ياسين، وقد أبكي أحيانًا من هول العذاب الذي ينتظرني، إذا كان حظي أن أقضي حياتي الآخرة في جهنم، لا سمح الله.

آه..... نسيت أن أخبركم أن اسمي هو محمد عبد القوي الزبال.....
من فضلكم لا تضحكوا.

لقد بذلت جهدًا كبيرًا عندما جئت إلى هنا لأمسح هذا اللقب المخزي من اسمي، وأظن أنني نجحت إلى حد كبير، فلا أحد هنا يعرف «الزبال»

هذا إلا هند، التي ضحكت بشدة عندما اطلعت عليه، وهي مستلقية عارية على السرير تقلب في جواز سفري!

نعم «الزبال»، ولا أعرف حتى الآن سر هذا الاسم أو اللقب، ومرة نلت «علقة» ساخنة بالعصا من أبي، وأنا لم أتجاوز العاشرة؛ لأنني سألته بصراحة: «هل كان أبوك زبالاً؟».

ضربني.... ولم أعرف الإجابة حتى الآن، لكن أصدقائي في مصر ينادوني بمحمد الزبال، وأحياناً يسقطون محمد؛ لأنه مكرر ومنتشر بكثرة في حيّنا فيصبح اسمي الزبال، الأمر الذي كان يؤلمني كثيراً، لكنني تعودت عليه مع مرور الزمن، على الرغم من محاولاتي الخجولة لإثناهم عن مناداتي بهذا اللقب السخيف!

دعوني أَعُدُّ إلى السبب الذي يجعلني أكره أبي، وأنتظر خبر موته، كما ينتظر العاشق الملهوف نظرة من مليكة فؤاده. وبالمناسبة لست أنا فقط من يحلم بموت أبي، بل أشقائي الثلاثة أيضاً يرتكبون الحلم نفسه، وهم بالترتيب: حسن 40 عاماً، نجاة 38 عاماً، ثم ثريا 33 عاماً وأنا.

كلنا نبغضه، وكلّ منا ينظر إلى الآخر بلهفة عندما نسمع صوت سعاله الشديد منطلقاً من غرفته، وكلّ منا يمّني نفسه أن تخرج روحه مع هذا السعال المتواصل!

معذرة... كي أكون دقيقاً، لا أخفي عليكم أنني أحزن لأجله مرات، عندما أجده هكذا مسحوقاً أمام وحش المرض، لكن هذا الحزن لا يدوم طويلاً؛ إذ سرعان ما أجدني متأملاً لحجم القهر الذي زرعه في صدري فأنقم عليه، وألعه وأدعو أن يخطف عزرائيل روحه فوراً!

هل تعلمون أنه ضربني بقبضة يده على وجهي عندما حصلت على الثانوية العامة؛ لأنني أخبرته برغبتي في الالتحاق بكلية الزراعة ليس حبًا في الورود والنباتات، بل كرهًا في الرياضة والحساب، لأنني أعرف أنه يرغب أن يدفعني دفعًا للالتحاق بكلية التجارة ، ولقد فقدت الوعي آنذاك ونزف الدم بغزارة من أنفي وفمي - نسيت أن أقول لكم إنني نحيف وضعيف البنيان نسبيًا - وعندما أفقت وجدته واقفًا بشاربه الكثيف فوق سريري، وهو يصرخ:

- هل تريد أن تكون فلاحًا يا ابن العاهرة، لن تدخل إلا التجارة يا كلب!
أرجوكم لا تظنوا أن الكلب هو الحيوان الوحيد الذي نُشِبَّ به أنا وإخوتي في منزلنا، بل هناك الحمار، والجاموسة، والبغل؛ فأنا حمار، ونجاة جاموسة، وحسن بغل! أما أمي فهي البهيمة الدائمة!
بالمناسبة... هذه أخف الشتائم وأرقها على لسان أبي، لأن معظم ألفاظه غارقة في وحل البذاءة، وأنا لا أجروء على نطقها أو كتابتها!

لا تتعجبوا، فهو يستخدم أفحش الكلمات عندما يسب أمي أو نجاة أو ثريا، من دون أدنى خجل، ومع ذلك فقد أجبر الفتاتين على الالتحاق بالثانوية التجارية، على الرغم من تفوقهما في الشهادة الإعدادية حتى تنهيا تعليمهما مبكرًا، ثم منعهما..... ولكن تلك حكاية أخرى سيأتي ذكرها فيما بعد!

شتائم أبي هذه كانت تسبب لي حرجًا بالغًا وأنا طفل وصبي وحتى وأنا شاب، أمام جيراني وأصدقائي، حيث كان لا يتورع عن أن يصرخ من النافذة وأنا ألعب في الحارة: اصعد يا حمار... بسرعة.

وهكذا تظل هذه العبارة على لسان الأولاد في الحارة، كلما رأوني ينطقونها ساخرين بسبب، ومن غير سبب، وحتى تسنح الظروف البائسة ليستمعوا إلى عبارة أخرى من فم أبي القدر مثل: أين الخبز يا بغل؟ فينسبون الحمار، ويتشبهون بالبغل.. أستطيع أن أزعم الآن، أن كل أهالي الحارة قد سمعوا هذا السب الذي خرج من فم أبي بأعلى صوته وهو واقف في النافذة، عندما أرسلني لأشتري الخبز من المخبز الذي يقع في آخر الشارع العام فوجدته مزدحمًا جدًّا، فأخفقت في الحصول على ما أريد، وهكذا حين رأي قادمًا أأطع رأسي خجلًا نعتني بالبغل، ثم بصق علي من النافذة من الدور الثاني، أمام عيون أهل الحارة.

منى ابنة عم محمود العطار، والتي تسكن في المنزل الذي يلي منزلنا، كانت أحيانًا تنظر إليّ بشفقة وأنا طفل، فهي تصغرني بعام واحد فقط، وكنت أحب أن ألعب معها وأحاول التودد إليها إذا كانت مشغولة عني، لكن عندما كنت أنال نصيبي من شتائم أبي على الملأ، أتجنب تمامًا الاقتراب من منى، أو أن أجعلها تراني.

آه نسيت أن أخبركم أن الحارة التي أسكن بها اسمها حارة «السوق القديم»، وأنا متيقن من أن أحدًا منكم لم يسمع بها من قبل، فهي حارة منسية لا يوجد لها ذكر على الخريطة، تخترق حيًّا فقيرًا بائسًا اسمه دمنهور شبرا، يقع ضمن حدود مدينة شبرا الخيمة التي تعد آخر مكان في القاهرة جهة الشمال؛ فهي التي تربط بين العاصمة ومحافظة القليوبية.

المهم أنني ولدت في هذه الحارة عام 1976، وعندما كبرت قليلًا كنت أنزعج من منزلنا المتهالك، وأنا أرى المساكن الشعبية تنتشر حول منطقة

دمنهوور فأحسد ساكنيها، وكنت أسمع من الذين يكبرونني أن هذه المنطقة كلها كانت عبارة عن مساحات شاسعة من الحقول الخضراء، باستثناء حارتنا والأزقة الصغيرة التي تتفرع عنها.

لكنني أؤكد لكم أنني لم أر أي حقل في هذه المنطقة، التي اكتظت بمساكن حجازي، وقسم شرطة شبرا الخيمة أول، ومحكمة، ومدارس ومعهد ديني ومستشفى صغير. صحيح أن الجزيرة التي تقع في الجانب الآخر من النيل تزدان بحقول ذرة، كنت أراها بعيني وأنا أقف مع الأصدقاء على شاطئ النهر الذي يبعد عن حارتنا بمسافة 200 متر فقط، إلا أنني لا أستطيع القول بأي نشأة في بيئة ريفية، ولكن يمكن الكلام عن نشأة في بيئة شعبية فقيرة منهكة ذات نكهة ريفية!

طبعاً... سيسألني أحد الخبثاء: إذا لم تكن قد حظيت بلذة تقبيل النساء وما يتبعها، فكيف تلبي أشواقك الجنسية؟

سأقول لكم وبصدق، فأنا لن أخجل من الكلام بصراحة عن أهم شيء يؤرق الشباب، أو يرّجّ كيانه الصبي رجاً عندما يشعر بذنب الشهوة يتجول في دمه، فيحس بأن نيراناً قد اتقدت في جسمه عند رؤية أي فتاة أو لمس يد أي بنت! إنه الجنس يا أعزائي، مصيبيتي، ومصيبة الشباب كلهم... لا أدري هل هو مصيبة للبنات مثلنا أم لا؟

المهم... لن أخجل وأشهد وأعترف بأن العادة السرية هي ملاذي ونعيمي وعذابي في هذه الدنيا، وإلا فقدت صوابي، ومزّقت شراييني من سطوة الرغبة الجامحة التي لا يستطيع أي شاب مقاومتها. لكن مهلاً، فأنا

لم أَرْضَح لسحر العادة السرية، فور أن شعرت لأول مرة بوحش الشهوة يتسكع في جسدي، بل بعد عامين تقريبًا من مبلغني مبلغ الرجال.

قبل ذلك، كنت عبدًا للاحتلام، فأفرغ طاقتي الجنسية وأنا نائم، حيث أراني في المنام أضاجع فتاة ما، لأصحو سعيدًا لأنني تخلصت في الحلم من مياه الجنس الساخنة، ومذعورًا لأن ملابسي الداخلية قد تعرضت للبلل بصورة حقيقية، وليس في الحلم فقط!

أعرف أن كل شاب سيفهم هذا الكلام، لكنني غير متأكد بالمرة، هل ستفهمه البنات أم لا؟ وأنا أعتذر مسبقًا إذا كان كلامي قد سبب لهن حرجًا ما!

منصور ابن خالتي هو الذي أنقذني من ورطة الاحتلام كل ليلة تقريبًا، ومن خجلي أمام أمي وشقيقتي عندما أستيقظ في الصباح وملابسي مبلولة. كان منصور الذي يسكن في أول حارتنا ويكبرني بعام واحد فقط، قد اقتنى مجلة فضائية - لا أعرف من أين - وبدأ يطلعني عليها سرًّا في غرفته الشائخة الجدران، فلما رأى اضطرابي واحمرار وجهي من فرط الشهوة، وأنا أرى لأول مرة نهودًا وأجسادًا لفتيات عاريات وأوضاعًا جنسية ساخنة بين الرجال والنساء، قال لي بحسم:

- قم.... ادخل الحمام.

- لا أريد أن أقضي حاجتي أو أتبول.

ضحك بشدة آنذاك، وهمس في أذني:

- قم.... تخلص من توترك الجنسي.

سألته ببلاهة:

- كيف؟

قال لي:

- هناك صابونة في الحمام... ضع رغوتها على.....

عمومًا لا أريد أن أخوض في تفاصيل العادة السرية؛ حتى لا يصاب بعضكم بالتقزز مني، أو يظن أنني شاب لا هم لي سوى الجنس.

على أية حال.... من يومها وأنا عبد بمعنى ما لهذه العادة التي كنت أمارسها 5 مرات في اليوم أحيانًا، أما الآن، فلا يتجاوز دخولي الحمام من أجل سرقة اللذة إلا مرتين كحد أقصى في اليوم الواحد! وعزة نفسها تدري ذلك وتكتئب.

بالمناسبة، أنا لا أعرف حتى الآن، هل البنات يمارسن العادة السرية مثلنا أم لا؟

وهل هناك سائل ما يتدفق منهن فينتشين ويشعرن بلذة سحرية مثلنا؟ إن منصور ابن خالتي أكد لي، فيما مضى، أنهم مثلنا في مسألة العادة السرية هذه، ولكنني لا أعرف أي تفاصيل عن هذه المسألة بالنسبة إلى البنات!

آسف لأنني أطلت في هذا الأمر، لكنني أحب أن أوضح لكم من أنا تمامًا، وحتى لا تعجبوا كيف حتى هذه اللحظة لم أحضن فتاة في صدري، ولم أقبض على شفتي أي امرأة بشفاهي!

بالمناسبة لا تحسبوا أن البنات ينفرنّ مني لأنني دميم الوجه والملامح، فهذا خطأ.. صحيح أنني لست وسيماً كنجوم السينما مثل أحمد عز وأحمد السقا وكريم عبد العزيز أو حسين فهمي فيما غبر من الأيام، ولكنني أيضاً لست بشع التقاطيع، فأنا شاب عادي جداً، خمري اللون مع ميل قليل إلى السمرة، شعري أسود متوسط الخشونة وكثيف نسبياً، أشبه آلاف بل ملايين المصريين، لا ألفت انتباه أحد بوسامتي غير الموجودة أصلاً، ولا ينزعج من ملامحي أحد.. عيناى لا يشع منهما بريق حاد يكشف عن ذكاء وحضور، وفي الوقت نفسه فنظراتي ليست باهتة، أو نعسانة تتم عن غباء وكسل!

حين تخرجت في كلية التجارة - جامعة عين شمس عام 2000 - لم أجد عملاً بسهولة، الأمر الذي كان يعرضني للتقريع اليومي من والدي، الذي يصرخ في وجهي قائلاً: الفاشلون فقط هم الذين لا يجدون عملاً.

كنت أتمزق من داخلي، وأنا أحاول أن أوضح له أن الحكومة رفعت يدها عن تعيين أمثالي في وظائفها، وأن البطالة بين الشباب المتعلم هي عنوان العصر، فينظر إليّ باستخفاف وهو يزمر:

- هذا كلام منصور ابن خالتك... الحيوان الشيوعي.

لم أحتمل عنف التوبيخ اليومي، ولأنني أدرك أنني محروم من المواهب المشتعلة أو المهارات الفائقة في أي شيء، لذا لم أحلم سوى بالخروج من هذه الحارة البائسة، والحصول على وظيفة وفتاة لأنزوجه، فأرتاح من عذابات جسدي وإلحاح الجنس اليومي، وأتخلص من قهر أبي وشتائم

كل ساعة! لذا قبلت العمل في مقهى في وسط البلد، وبالتحديد في حارة
متفرعة من شارع الشريفين بالقرب من وزارة الأوقاف.

كنت أتصيب خجلًا وأنا أجهز الشيشة للزبائن، أو أقدم لهم الشاي
والقهوة والبيبسي. 12 ساعة يوميًا وأنا أدور بين هذا وذاك، ألبي طلبات
فلان وأنفذ أوامر علان من الزبائن، لأتقاضى آخر الشهر 350 جنيهاً فقط
لا غير، بالكاد تكفي مصاريفي اليومية من طعام ومواصلات وخلافه، ولقد
ظللت في هذا المقهى ما يقرب من ثلاث سنوات ونصف السنة من العذاب
المنظم؛ حتى انتشلني أخي الأكبر حسن، وقذف بي إلى هنا في دبي قبل
ثلاثة أعوام فبدلت حياتي تبديلاً.

2

أبي وأمي

الحق أقول لكم: لا أعرف الكثير عن أبي وماضيه، فهو لا يتحدث معنا عن طفولته وصباه ولا يأتي على ذكر أبيه مثلاً أو أمه أو حتى أشقائه، فكل ما أعرفه أنه ولد في عام 1943 بقرية يقال لها «شرانيس» في محافظة المنوفية، أبوه كان غفيراً أو ما شابه على ما أظن، ولكنه لم يكن فلاحاً يزرع ويحصد. وقد رحل ووالدي يخطو نحو الرابعة عشرة من عمره، حين حصل أبي على الشهادة الإعدادية لم تؤهله درجاته للالتحاق بالثانوية العامة فتطوع في الجيش. وأمه غادرت دنيانا وهو يشارك في حرب اليمن، على ما أعتقد.

علاقته بأشقائه باهتة وخالية من الحرارة، فلا يكاد يزورهم ولا نكاد نراهم في منزلنا، وآخر مرة رأيت فيها عمي حسنين مثلاً كانت منذ 15 عاماً، عندما جاء ليفتش عن علاج له بعد أن عجز مستشفى قويسنا العام أن يخفف من صراخه ليلاً.. أقام عندنا ليلة أو بعض ليلة، ثم حجزه في مستشفى النيل بشبرا الخيمة عدة أسابيع حتى مات!

عمومًا، لا يذهب أبي إلى قريته إلا للمشاركة في دفن الموتى من أقاربه، عدا ذلك، فلا أذكر أنه كان يتردد على البلدة التي ولد فيها، ولا أذكر مرة أن أسرتنا كلها اجتمعت في «شرانيس» على شاطئ الترعة أو بين الحقول. لم يحدث هذا قط، على الرغم من أن أمي تؤكد لنا أنه اصطحبنا مرة، وأنا مازلت في الرابعة، لزيارة البلدة، ولكن هذه الزيارة ليس لها وجود على شاشة ذاكرتي أبدًا!

أبرز ملامح أبي هي نظرتة القاسية والمخيفة وشاربه الأسود الكثيف، وأسنانه الصفرة من فرط التدخين، عدا ذلك فهو متوسط الطول، ذو بشرة داكنة نسبيًا، وفم غليظ الشفتين. أما شعره الغزير، فقد رأيت كيف تسلل إليه اللون الأبيض في ظرف أعوام قليلة، حتى أطاح تمامًا بأي شعرة سوداء كانت تقف بزهو فوق رأس أبي!

لم أره يطالع كتابًا قط، ولم أجد في بيتنا أصلًا أي نوع من الكتب، إلا عندما كبرت قليلًا، فكنت أرى شقيقي الأكبر حسن عائدًا من كليته ويده كتاب للشيخ الشعراوي أو مصطفى محمود، أو أحد الكتب الدينية التي تباع على الأرصفة أمام المساجد! عدا ذلك لم أشاهد أبي يقرأ شيئًا سوى جريدة «الأخبار»، وبصورة غير منتظمة!

عندما بلغ الخامسة والخمسين من عمره، وكان برتبة ملازم أول، تمت إحالته إلى المعاش، فصار رهين البيت، الأمر الذي جعل أمي تكابد الأمرين وهي تتلقى تعاليمه وأوامره وتدخلاته وشتائمته على امتداد أربع وعشرين ساعة في اليوم!

الجرجير والحشيش يشكلان أكبر اهتمام له في منزلنا، فكان يقذف الصحن في وجه أمي إذا خلت مائدته من الجرجير. وكان يعتريني شعور بالبغيض تجاهه مخلوط بالتعجب من هذا الإصرار على تناول الجرجير في كل وجبة، ولماذا لا يستبدل الخس به مثلاً، لكن منصور ابن خالتي شرح لي الأمر، فيما بعد، قائلاً وهو يبتسم:

- الجرجير يجعله يؤدي مهامه الجنسية بكفاءة!

فلما لم أفهم أضاف ناعثاً إياي بالجاهل:

- كلما كبر الإنسان في العمر، خبا نور شهوته الجنسية، وتراخي عضو الرجل، فلا يتصب بالقوة نفسها عندما كان فتى وشاباً!

- وهل الجرجير يساعد على تجاوز هذه المشكلة؟

- طبعاً، إضافة إلى الجمبري والسمك واللحوم ..

«عموماً، مسكينة أمي»، هكذا كنت أقول لنفسي، يضربها ويلعنها في الصباح، ثم يضاجعها في المساء!

- والحشيش يا منصور؟

بصوت هامس، ونحن عائدان من مدرسة شبرا الخيمة الثانوية، سألته عن أهميته وأنا مرتعب، فابتسم وقال لي:

- معلوماتي عنه قليلة من أفلام السينما فقط، لكن لا أدري إن كان يزيد من الهمة الجنسية أم لا؟

سأفشي لكم سراً وهو أن أخي حسن كان المتخصص في شراء الحشيش لأبي من عم عوض، الذي يقطن في الجزيرة التي تقع أمام دمنهور شبرا في قلب النيل!

ذهبت معه عدة مرات من دون علم أبي، فكنا نستقل العبارة «المعدية» الصغيرة من على شاطئ دمنهور؛ لتصل بنا إلى الشاطئ المقابل في عشر دقائق تقريبًا. كانت هذه العبارة البدائية مزدحمة دائمًا بالذهابين إلى الجزيرة والواصلين منها، فتجد فيها فلاحين من النساء والرجال قد جاءوا بحيواناتهم وطيورهم وخضراواتهم؛ ليبيعوا منها ما تيسر في أسواق شبرا الخيمة، ثم يعودون آخر الليل منهكين، شاحبي الوجوه مكومين في قاع العبارة البائسة، التي يئن موتورها بصوت مزعج.

كنت أنا وحسن نحشر أنفسنا مع غياب الشمس بين هؤلاء الفقراء وخرافهم ودجاجهم الذي لم يستطيعوا بيعه، فيعودون به إلى بيوتهم في الجزيرة خائبين!

كنت أسير ملتصقًا بأخي، وممسكًا يده بقوة من شدة الخوف؛ لأن حوارى وأزقة الجزيرة معتمة دائمًا، ونباح الكلاب الضالة يتواصل من دون انقطاع، ولا أعرف حتى الآن كيف استطاع أخي حسن أن يحفظ خريطة حوارى وأزقة الجزيرة ليلاً؛ حتى يصل إلى بيت عمّ عوض بيسر.. يعطيه المال، ويأخذ قطعة الحشيش في أقل من دقيقة! فيدسها في جيب بنطلونه الجينز، ونعود مسرعين نحو الشاطئ لنستقل العبارة!

لم يحدث أن دعانا عمّ عوض ولا مرة للدخول، ولم يحدث أن منحني قطعة حلوى أو أي شيء يمكن تناوله. كان وجه عمّ عوض يشبه بعض وجوه الكومبارس، الذين يقومون بأدوار أفراد العصابة في الأفلام المصرية القديمة، أو هكذا طبعته في ذاكرتي مادام يتاجر في الحشيش.. لكنني لا أستطيع تحديد ملامحه بالضبط، وكل ما أذكره عن تلك الرحلة

شبه المنتظمة أسبوعيًا، أني لم أكن أرتاح لوجه عمّ عوض ولا لصوته الخشن الذي ينطق بعبارة واحدة في كل مرة وهو يخاطب حسن:

- بلغ تحياتي لحضرة الضابط!

لا تسألوني من فضلكم: هل رأيت أبي يدخن الحشيش في المنزل أم لا؟ لأنني لا أملك الإجابة، فهو يجلس في غرفته وحيدًا عندما تأتي له بالحشيش، وقد يستقبل عم إبراهيم التريزي الذي يقطن في الحارة التي خلفنا، أو يذهب إليه، فهو صديقه الوحيد، وأظن الآن أنهما كانا يدخان الحشيش معًا، لأنني كنت أستمع لقهقهات عم إبراهيم التي ترجّ جدران المنزل وهما يلعبان الطاولة في غرفة أبي، بينما أختي نجاة تلاحقهما بالشاي كل فترة، ثم تخرج وهي تسعل بشدة شاكية لأمي بغضب:

- الغرفة أصبحت مَدخنة!

- اخفضي صوتك، حتى لا يسمعنا أبوك.

- لقد كرهت هذا الرجل.

تصمت أُمّي قليلاً ثم تهمس:

- وأنا أيضًا يا ابنتي!

هل قلت لكم اسم أُمّي؟ أعتقد لا.

عمومًا اسمها زينات، ولدت في قرية شرانيس نفسها، التي شهدت ميلاد أبي عام 1948 لأسرة فقيرة. عندما بلغت العاشرة من عمرها أخرجها أبوها من المدرسة نظرًا لبلادتها، لذا فهي لا تجيد الكتابة أبدًا، ولكنها قد تستطيع أن تقرأ الجريدة ولو بدرجة من الصعوبة.

عندما أتأملها الآن أشعر بأنها كانت صبية جميلة إلى حد ما، فشعرها طويل وناعم، وعيناها واسعتان يزيدهما وضوحًا حاجبان مقرونان.

أنفها طويل صحيح، لكنه ليس منقّرًا، وكذلك الشفة السفلى غليظة وتندلى لأسفل، خاصة إذا استسلمت لمرارات الحزن!

لا أظن أنها عاشت حياة سعيدة أبدًا، ولا حتى في مطلع شبابها، عندما اقترنت بأبي الذي انتزعها من حقول القمح والأشجار الظليلة، وقذف بها في هذه المدينة المزعجة!

كنت أراها أحيانًا تحدث نفسها بصوت هامس في المطبخ أثناء إعداد الطعام، فإذا اقتربت منها لأسمع ماذا تقول، توقفت عن الكلام وهي ترمقني بعطف، وإذا سألتها عما كانت تهمس به، نهرتني برفق وطلبت مني الخروج من المطبخ؛ لأنه لا يليق أن يدخل الشباب إلى هذا المكان كما كانت تردد! لكنني أعتقد أنها كانت تشكو الزمان وقلة حيلتها أحيانًا، أو تدعو الله أن يلطف بنا وبها من قسوة أبنينا أحيانًا أخرى!

لم تكن لها سوى شقيقة واحدة اسمها خالتي عنيات التي تصغرها بعامين، ولكنها تمكنت من الحصول على شهادة دبلوم التجارة فزوجها أبوها إلى ابن أخيه الأستاذ عبد العليم مدرس التاريخ، الذي جُنّ بحفيده «كامل» وتنبأ له بأنه سيصبح من العظماء.

كانت خالتي جميلة إلى حد معقول، وتعرف كيف تتفنن في إبراز مفااتها من دون ابتذال، تعشق الضحك وتفرح بملذات الحياة، بعكس أمي التي تصادق الحزن وتفتersh الهموم كل صباح.

أنجبت خالتي عنايات أربعة أبناء: ولدين وبنتين، وكلهم نالوا تعليمًا مرموقًا، فضلًا عن اهتمامهم بالقراءة مثل أبيهم وأمهم.

نعم، فخالتي تقرأ روايات نجيب محفوظ ويوسف السباعي وإحسان عبد القدوس، وتحفظ أشعار نزار قباني، وتدخل في نقاش مع زوجها حول قضايا سياسية حيث كانا يعيشان جمال عبد الناصر، وقد خرجا معًا تبللهما الدموع ليسيرا في جنازته، كما كانت تحكي لنا، وأحيانًا كنت، وأنا صغير، أجدها هائمة مع أغنيات عبد الحليم حافظ.

سأقول لكم بصراحة: كنت أغبط أفراد بيت خالتي وأحب الذهاب إليهم، لأنهم يلوحون لي كما لو كانوا في مهرجان دائم، وأستطيع أن أقول الآن: إنها كانت سعيدة جدًا مع زوجها على كافة المستويات، فهو الذي حُبب إليها عشق القراءة والاهتمام بالفن، وكان يصطحبها إلى السينما والمسرح كل فترة. وكنت أسمعها أحيانًا توبخ أمي؛ لأن أبي حرم نجاة وثرثريا من إكمال دراستهما ولم تحتج، بل ومنعهما من البحث عن العمل، وفرض عليهما ارتداء الحجاب ولم تمنع:

- كيف ستزوجينهما إذا ظلنا بجوارك في المنزل؟

هكذا كانت تعنف أمي، ثم توجه الكلام إلى شقيقتي:

- يا غبية، ماهذا الحجاب؟ كيف سيتقدم شاب إلى الزواج بك، إذا لم يمتّع عينه بجزء من جسمك، فيجن حتى يستطيع أن يرى الباقي؟!

ثم تقوم وتزيح الحجاب عن رأس نجاة بحدّة، ثم تمشط لها شعرها بعناية، وتصمم لها تسريحة تشبه تسريحات سعاد حسني في أفلامها الشقية، وتأملها قائلة وهي تنظر لأمي:

- ابتك فاتنة يا زينات.

- هيا ارتدي بلوزة مفتوحة من عند الصدر، حتى يبرز جزء من نهديك
فيتعقبك الشباب مخبولين، ويقف الحُطّاب على الباب بالمئات من
أجل الظفر بك والزواج منك!

عندما تنتهي خالتي عنايات من هذه النصائح التي توجهها إلى نجاة
وهي تضحك، تصرخ أُمي رعبًا:

- هل جنت يا عنايات؟ أبوها يذبحها إذا استمعت إلى كلامك!

تقوم خالتي غاضبة وتقسم أنها ستخبر زوج أختها بهذه الآراء،
وتهتف:

- كفاه ظلمًا!

القرار الأول الذي أصدره أبي عندما علم باقتراح خالتي لتزويج البنتين
المتثل في نزع حجابهما وارتداء ملابس مكشوفة، هو طردها من المنزل،
أما القرار الثاني فهو منع أُمي - ونحن بالتبعية - من زيارة خالتي أبدًا أو
التعامل مع أبناء هذه المرأة «القحبة».. هكذا وصفها أبي، وهو يهدد أُمي
بالطلاق ونيران الغضب تتقد في عينيه!

أريد أن أخبركم أنني لم أكن في المنزل، عندما طرحت خالتي أفكارها
الجريئة على أبي بشأن نزع حجاب نجاة وثريا وتوظيفهما حتى تخرجا من
مقيم المنزل، لكن ما سمعته من شقيقي ثريا فيما بعد، أنه أرغى وأزبد،
واحتدّ وانفعل صارخًا في وجهها:

- من فضلك يا عنايات، لا دخل لك بأبنائي..

خرجت خالتي تكظم غيظها، وهي تتمتم بعبارات من نوع: «مسكينة يا زينات يا أختي، هذا رجل ظالم والبنات سيصرن ضحيته!».

كنت في السادسة عشرة من عمري عندما تصدت خالتي لجبروت أبي وأخفقت، لكن قراره بمنعنا من التعامل مع أبنائها لم يفلح على الأقل معي، فأنا أحب منصور ابن خالتي، وهو يودني كثيرًا؛ لذا لم نتوقف عن اللقاءات في المدرسة الثانوية أو حتى في الجامعة فيما بعد، لكن ظل شاطئ النيل أمام حيننا التعس هو المكان المفضل لنا لنجلس ونتحدث، أو بتعبير أدق: لأسأل أنا ويجيب هو، قبل أن يقذفنا قارب الزمن على شواطئ دبي!

3

منصور ابن خالتي

مقدور عليّ أن أعترف لكم الآن أنني أحب منصور ابن خالتي كثيرًا، وأغار منه أكثر، أفرح حين اللقاء لحيويته وجرأته التي أنقذتني من مصيبة هند، ومؤازرته الشديدة لي في محنتي الكبيرة، فضلًا عن غزارة معلوماته، وأبعضه لأنني أشعر بضآلتي في حضوره. يقتنص حريته من الآخرين، ويفعل ما يشاء حتى لو اضطر إلى الصدام أحيانًا مع أبيه الأستاذ عبد العليم، بعكسي أنا الذي أنصاع لأوامر أبي فورًا، وأرضخ لتعليمات شقيقي الأكبر حسن من دون تدمير واضح، حتى لو أدى ذلك إلى أن أرفع حنظل القهر في صدري أيامًا وليالي!

هل تصدقون أنه كان يقول لي عام 2000: إن نظام الحكم في مصر قد فرغ من مضمونه، ووصل إلى نهايته، وأنه في حاجة إلى ثورة، قبل أن يحدث لنا مثلما حدث في سورية؟! ... لم أرَ أحدًا يتحدث في هذه المسألة قبل منصور.

ولا أدري من أين توصل إلى هذه الآراء الجريئة والحاسمة! هل لأنه يتمتع بحدس سياسي؛ نظرًا لانخراطه في منظمات ثورية سرية منذ التحاقه بكلية الإعلام؟

أعرف أن كل الصحف المعارضة والحزبية تقف الآن ضد التوريث بصراحة وشجاعة، ولكن ما كان يقوله لي منصور يفوق في جرأته ما يكتبه إبراهيم عيسى في «الدستور» وعبد الله السناوي في «العربي» وعبد الحليم قنديل في «الكرامة». آسف، أقصد أنه سبقهم جميعاً في فضح سيناريو التوريث، والتحذير من قدومه.

كما قلت لكم من قبل، فإن منصور يكبرني بعام واحد فقط، ويتمتع بجسد فارغ وبشرة بيضاء وعينين سوداوين تشرقان بالألقة دائماً، يمتلك جاذبية خاصة، وضحكته آسرة، حيث اصطادات هذه الضحكة صفاء وسمية تباعاً، أما شعره فمثل شعر أمه ناعم وأسود ويتركه يتهدل بحرية على جبينه الوضاء! عندما نسير معاً كان يلفت الانتباه بخطواته الواثقة ووسامته البادية، فأرى بحسرة كيف تختلس البنات النظر إليه، بينما هو منشغل بشرح فكرة أو رأي يرغب في اطلاعي عليه!

أود أن ألفت انتباهكم إلى أمر مهم جداً، وهو أنني نادراً ما كنت أراه من غير كتاب، فهو يمسك كتاباً واحداً على الأقل في يده دائماً، فمرة أجده حاملاً «الناس في بلادي» و«ليلي والمجنون» لصالح عبد الصبور، ومرة «مدينة بلا قلب» و«مرثية للعمر الجميل» لأحمد عبد المعطي حجازي، و«خبز وحشيش وقمر» لنزار قباني، وثالثة أجده يطالع «ما العمل» و«الدولة والثورة» للنين، و«حروب دولة الرسول» لسيد القمني، و«مغامرة العقل الأولى» لفراس السواح. ورابعة يناولني ديوان «أعراس» و«مديح الظل العالي» لمحمود درويش قائلاً:

- اقرأ يا محمد، فالشعر يغذي الروح.

كنت أتعجب من ولعه بالقراءة، ومن إصراره على اقتناء كتب لمؤلفين، لم أسمع بهم من قبل، فهذان الكتابان «الأدب والثورة» و«الثورة المغدورة» لواحد اسمه «ليون تروتسكي»، وذاك كتاب «النبي المسلح» عن تروتسكي أيضًا لمؤلف اسمه «إسحق دويتشر»... وغيرها عشرات من الكتب والمؤلفين الذين لم أسمع بهم قط، ولم أرَ أيًا من كتبهم العجيبة عند أي أحد من الذين أعرفهم!

أذكر مرة أنه لا مني كثيرًا، بل قام بتوبيخي بشدة، عندما علم أنني لم أقرأ أي رواية لنجيب محفوظ.. آنذاك صرخ في وجهي قائلاً:

- ألا تخجل من نفسك.... كيف لا تقرأ للأديب المصري، بل والعربي الوحيد، الذي نال جائزة نوبل للآداب؟

- لا صبر لي على القراءة يا منصور.

- جاهد ذاتك..... وتعود عليها.

- لكنني شاهدت الأفلام المأخوذة عن روايات نجيب محفوظ.

هنا صرخ بحدة:

- لا... لا... الرواية شيء.... والفيلم شيء آخر تمامًا.....

أعترف الآن، وبصراحة أنني حاولت أن أحاكي منصور في علاقته بالقراءة، ولكنني أخفقت، وعبثًا بحثت عن اللذة في القراءة التي ما فتئ يقول عنها وما وجدتها، فحين أمسك كتابًا وأشرع في مطالعته أجدني مستسلمًا تمامًا لسلطان النوم، فلا أكون قد فرغت من صفحة أو صفحتين، إلا وتعتريني حالة تآؤب شديد، فألقي الكتاب جانبًا من دون ندم!

- يا منصور... لا أطيق صبرًا على القراءة.

قلتها له مرة وأنا في شدة الغضب، عندما ظل يقرع ذاتي بجرس التأنيب؛
لأنني لست من أصدقاء الكتاب ولا أريد!

لا أخفي عليكم أن رصاصة نظرتة التي سددها في عيني فور أن أعلنت
له ذلك، ظلت تؤرقني ليالي طويلة، فهي نظرة تختلط فيها الشفقة بالازدراء،
الأمر الذي دفعني إلى أن أطأطئ رأسي في الأرض ولا أتكلم، مما جعله
يكفّ تمامًا عن تحريضي على ارتكاب أجمل الأفعال كما يقول، وهو فعل
القراءة، إلا حين سخر مني في منزل الأستاذ صلاح، ونحن نبحث عن حل
لكارثة حياتي المزمنة!

التحق منصور بكلية الإعلام - قسم صحافة كما كان يحلم، وعلى الرغم
من أن أباه الأستاذ عبد العليم حاول أن يثنيه عن ذلك، مفضلًا التحاق ابنه
بكلية الطب مثل شقيقه الأكبر جمال؛ نظرًا لمجموعه الكبير الذي يؤهله
لذلك، إلا أن إصرار منصور ابن خالتي أطاح برغبة الأب، الذي لم يرد أن
يضغط على ابنه فيعكر صفو علاقتهما القوية!

في الكلية، كما كان في المدرسة الثانوية، برز منصور كطالب لامع
يمتلك مواهب متعددة، فهو يشارك بهمة في فريق المسرح الجامعي، يمثل
ويساعد في الإخراج، كما ينضم إلى فريق الجواله، ثم يرشح نفسه لخوض
انتخابات اتحاد الطلاب، فيهزم خصمه مرشح الجماعات الإسلامية
بقوة.. وهكذا في كل نشاط يتصدى له يرفرف طائر النجاح والتألق فوق
جبين منصور، حتى أصبح هدفًا لأحلام الطالبات اللاتي ظللن يتعقبه بغية

قطف ورود صداقته، أو أزهار غرامه، ولكنه لم يسلم مفاتيح فؤاده إلا إلى صفاء سعيد الشرنوبي!

- من هذه يا منصور؟

كانت الساعة تقترب من التاسعة ليلاً في أحد أيام شهر ديسمبر، ونحن نجلس على شاطئ النهر أمام الجزيرة، لسعة البرد محتملة ومنعشة، وقد ظل منصور يتحدث عن صفاء سعيد الشرنوبي من دون توقف لمدة تزيد على 40 دقيقة، حتى سأله: من هذه يا ابن خالتي؟

حكى لي منصور كيف تعرف إليها في فريق التمثيل في الكلية، حيث كانت تهتم بالديكور، لذا انضمت فور دخولها الكلية إلى فريق المسرح لتصميم ديكورات عروض الفرقة. كانت معه في الدفعة نفسها، تعشق القراءة مثله، وتفتنها قصائد صلاح عبد الصبور وحجازي ونزار ونازك الملائكة وروايات ماركيز. نسيت أن أخبركم بأن منصور ظل فترة طويلة لا يتحدث معي إلا عن عبقرية الروائي الكولومبي الأشهر ماركيز، الذي خطف جائزة نوبل عام 1982.

كان يقول لي وهو منقوع في نهر النشوة:

- إذا كان الله موجوداً، فهو يمنح البشرية هدية كل قرن تتمثل في رجل ينير لها الطريق بعلمه وفكره، أو مبدع يتمتع بأدبه وحكمته؛ لذا فإن ماركيز هو هدية الله للبشرية في النصف الثاني من القرن العشرين!

يقول منصور ذلك، وهو يُقبل صورة الكاتب الكولومبي التي تصدر غلاف رواياته، ثم يخاطب تلك الصورة هاتفاً:

- أنت نعمة الدنيا يا ماركيز!

كنت أتعجب من هذا الهوس، خاصة عندما كان منصور يفاخر بأنه قرأ «سرد أحداث موت معلن» 9 مرات، و«الحب في زمن الكوليرا» 7 مرات، أما روايته المعجزة كما يردد «مئة عام من العزلة» فقد قرأها 11 مرة!

- من أين تأتي بالوقت لقراءة كل ذلك؟

كنت أسأله، فيقول لي بابتسامة دالة:

- القراءة هي خبز العقل وماء الوجدان... هل يمكن أن يمر يوم من دون أن تأكل أو تشرب؟

أعتقد أنكم ستفطنون إلى دور أبيه الأستاذ عبد العليم مدرس التاريخ في تشجيعه، هو وأخواته، على عشق القراءة، لقد كان الرجل يخصص لهم الهدايا والألعاب كلما قرأ أي منهم كتاباً وهم أطفال، فشبَّ الأبناء على احترام الكتاب ومصادقته، لكن كان منصور هو الأكثر افتتاناً بالقراءة بين إخوته؛ لم يكن غريباً إذن أن يفاخر منصور بأبيه في كل جلسة تقريباً، بعكسي أنا الذي أشعر بالعار كلما جاء ذكر أبي، أو لاح طيفه في خيالي، أو طرقت أذني ذكرى رنين شتائمه القذرة، التي لا يمر يوم واحد من دون أن أنال نصيبي المشؤوم منها!

جراً منصور وبساطته في التعامل مع البنات كانت تذهلني، فكنت أتعجب ونحن مازلنا في الثانوي، من أين يمتلك الشجاعة ليواعد ابنة الجيران، فيخرجان نحو المظلات ليسيرا على كورنيش النيل كعاشقين

صغيرين، ولكن بعد أسبوعين أجده قد هجرها لأنها «غبية ولا تحب المعرفة»، كما يقول لي، ثم ألقاه يكتب رسالة غرام مشبوبة لفتاة أخرى، جمعتهما الدروس الخصوصية في الفيزياء والكيمياء، فيحافظ على علاقته بها شهراً أو بعض شهر، حتى يدفعه القنوط إلى صدها والتخلص منها لأنها «بلا طموح» كما أكد لي، لكن حين رأى الهمة تعتري صفاء سعيد الشرنوبى، وهي تناقش بجدية مع المخرج التصور العام لديكور مسرحية «كاليجولا»، التي سيقدمها فريق الكلية، أيقن أنه مرصود لإسعاد هذه الفتاة، وأنها بعثت في هذه الأرض لتمنحه بهجة الروح ومسرات الجسد!!

حكى لي منصور وقائع أول لقاء تم بينهما وهو غارق في بحر النشوة، وكيف بدأ الحديث بالكلام عن محمود درويش وحجازي وماركيز، وانتهى بمسرح توفيق الحكيم وصلاح عبد الصبور وسعد الله ونوس.

- ثلاث ساعات ونحن لا نتوقف لحظة عن الكلام بجدية ومرح..

هكذا قال لي وهو ينظر إلى مياه النيل المتألثة، من جراء سقوط أشعة النجوم وقمر الليل عليها برفق.

ثم وقف هاتفاً:

- الحب سحر الحياة... هيا نشرب شاياً.

لم أعلق، ووقفت مدفوعاً برغبة شديدة في الهرب من لسعة البرد، وفي مقاومة غير تي الشديدة؛ لأنه يصطاد الفتيات بسهولة، بينما أنا غير قادر على لمس يد أي فتاة!

في مقهى المعلم «خلفان» جلسنا، وبالمناسبة لا بأس من أن أتلو عليكم بعضاً من سيرة هذا «الخلفان»، لأنها سيرة شريفة وبائسة، كما كان منصور يردد دومًا فور خروجه من المعتقل لأول مرة!

كان خلفان يعمل مخبرًا لدى جهاز مباحث أمن الدولة بشبرا الخيمة منذ هزيمة 1967، وكان مسؤولاً عن متابعة الطلبة والعمال الشيوعيين الذين ينشطون ضد القهر والاستغلال في المدينة، فيراقبهم ويترصدهم حركاتهم، ثم يقدم تقاريره المشبوهة إلى رؤسائه، الذين يهرعون إلى اعتقالهم مع أول نسمات الفجر!

كانت ابتسامة النصر تلمع على وجه خلفان الكئيب، حين يرى بعينه الطالب أو العامل وهو يستيقظ من نومه مرعوبًا، ليشاهد خلفان وزملاءه من المخبرين يقفون فوق سريره، فيتم اعتقاله فترة من الزمن، وسط صرخات أمه وأبيه أو زوجته وبنيه.

في كل عملية خسيصة من هذه العمليات، كان وجه خلفان يشي بمدى بهجته؛ لأنه استطاع أن يصطاد فريسته من هؤلاء الشيوعيين، حتى اكتسب الرجل أسوأ سمعة في مباحث أمن الدولة بشبرا الخيمة. ومن عجب أن اسمه كان أشهر من الضباط الذين يعملون في هذا الجهاز، بمن فيهم القادة الذين تولوا المسؤولية الأولى في أمن الدولة! لقد سمع منصور ابن خالتي حكاية خلفان داخل المعتقل من رفيقه في الزنزانة بدر المنيوي، الذي احترق في ليلة مشؤومة، ثم سردها لي بعد خروجه.

لم يمكث منصور أكثر من عشرة أيام في زنازين مباحث أمن الدولة في شبرا الخيمة، وهو مبنى كئيب ومخيف، كما وصفه من الداخل، يقع على

شاطئ النيل مباشرة، مكون من أربعة طوابق، ومثلها تحت الأرض حيث توجد الزنازين!

عندما خرج منصور من المعتقل، أصدر أبي الملعون قرارًا بمنعه من دخول بيتنا، كما أعلن أنه سيطرمني أنا وأيًا من أشقائي، إذا علم أن أحدنا قابله أو حتى صافحه في الشارع العام!

- هذا ولد كافر وملحد!

يصرخ أبي وهو يعلن لنا قراراته الصارمة بشأن منصور ابن خالتي، ثم يضيف:

- بدلًا من الالتفات إلى دراسته، وهو مازال طالبًا مستجدًا في كليته، ينضم إلى الطلاب المشاغبين ويخرج في المظاهرات!

حقًا، لقد ذهلبا جميعًا عندما خطفوا منصور من فراشه فجر أحد أيام ديسمبر، وهو لم يكمل الثلاثة أشهر الأولى في حرم الجامعة بعد.

لكن الأغرب من ذلك، أن منصور خرج من المعتقل وهو مبهور ببدر المنيأوي، فلم يتوقف كثيرًا، حين التقينا، عمّا حدث له من عذابات داخل المعتقل، بل مر عليها مرور الكرام، ثم شرع يحدثني بإعجاب وذهول عن الرجل الذي رافقه في زنزانته، وهو بدر المنيأوي، الذي سيرثه فيما بعد بمقالات دامعة في جريدة خليجية، فكان يتكلم عنه...

عمومًا سأقصر عليكم ما رواه لي فيما بعد!

في مقهى خلفان الذي أحيل إلى المعاش وأنشأ هذا المقهى بمكافأة نهاية الخدمة؛ حيث وضع صورة ضخمة لنفسه تتصدر المقهى بجوار

صورة الرئيس مبارك... أقول في هذا المقهى أكمل لي منصور حكايته مع صفاء سعيد الشرنوبى بإيقاع اللهفة نفسه، الذي كان يتحدث به على شاطئ النيل، وبالشرود اللذيذ نفسه الذي كان يتأمل به صفحة النهر، ولكنه لم يكن يدري أبداً وقتها، ولا أنا، ولا بدر الميناوي، ولا أرملته المنكوبة باحتراقه أن المقادير ستحرمه منها إلى الأبد بعد ثلاثة أعوام فقط من اشتعال ورود الغرام بينهما، وأنه ما من قوة على الأرض قادرة على إعادتها إلى الارتواء في حضنه مرة أخرى!

4

بدر المنيأوي

ظللت فترة طويلة غير قادر على استيعاب فكرة أن تنشأ علاقة صداقة عميقة بين شاب عمره 19 عامًا هو منصور ابن خالتي، ورجل على مشارف الأربعين هو بدر المنيأوي.

وأقول لكم بصراحة: لم أكن أشعر بارتياح كلما حدثني منصور عن صديقه الجديد، الذي استولى على اهتمامه، حتى وقَّرتُ لي منصور فرصة الجلوس إليه مرة أو بعض مرة، فأيقنت أن هذا الرجل يتمتع بخصال نادرة وشعور إنساني نبيل! لذا كان من الطبيعي جدًا أن نبكي منصور وأنا والأستاذ صلاح الغندور احتراقه المأساوي، ونحن نجلس على مقهى «ذكريات» في دبي، وسط ذهول سمية الأبراشي.

قد يسألني أحد منكم: «هل تكفي الخصال الطيبة والشعور النبيل لإقامة علاقة صداقة حميمة بين رجلين، يمتد الفارق الزمني بين عمريهما إلى نحو عشرين عامًا؟»..

سأقول لكم: «ليس عندي رد حاسم على هذا السؤال، ولكنني سأسرد عليكم ما كان يحكيه لي منصور عن بدر المنيأوي بصورة شبه يومية!».

تقابلا أول مرة في زنزانة موحشة تقع تحت الأرض في مبنى مباحث
أمن الدولة بشبرا الخيمة.

- كنت مرعوبًا تتوالى على ذهني مشاهد التعذيب في الأفلام
المصرية.

هكذا قال لي منصور، ثم أضاف:

- كنت أجلس القرفصاء منزويًا في ركن الزنزانة، فاقترب مني وابتسم
وهو يربتّ على ظهري قائلاً:

- لا تخف... اطرّد الوسواس من ذهنك.... لا تعذيب هنا!

تعجبت كيف أدرك أنني كنت مشحونًا بهذه الوسواس؟

فنظرت إليه متسائلاً:

- لكنهم صفعوني على وجهي، وهم يستجوبونني في الغرف العليا!

- إنهم جناء.... ولن يفعلوا معك أكثر من ذلك!

ثم قدم لي سيجارة وهو يهمس في أذني:

- انفخ أحزانك ورعبك مع الدخان.

تعجبت مرة أخرى، كيف عرف أنني حديث عهد بالتدخين، وأنني
كنت في أمس الحاجة إلى سيجارة فعلاً. بعد ذلك سألني بدر المنيأوي
عن دراستي وأهلي وأين أسكن، فلما وجد ردودي مقتضبة، ابتسم وبدأ
يحكي لي تجربته مع المعتقل منذ السادات حتى الآن، ربما حتى يشعرني
بالاطمئنان من جهته!

قال لي منصور إن بدر المنيأوي ذاق كابوس الاعتقال لأول مرة في حياته عام 1977، إثر اشتراكه في انتفاضة يناير. آنذاك كان طالبًا في كلية الآداب - قسم الفلسفة، وكان عضوًا عاملاً في خلية تابعة لحزب العمال الشيوعي السري. فور تخرجه عين في قصر ثقافة شبرا الخيمة، الذي يقع في أرض نوبار خلف محطة سكة حديد شبرا الخيمة، كان أبوه يعمل محامياً في محافظة المنيا، وكان من شباب الثوار في ثورة 1919، وقد تزوج والدته بعد خمس زيجات سابقة.

لبدر 22 أختاً وأخاً من الأب فقط، وثلاثة أشقاء يكبرونه، هم:

نور وهلال ونجم بالترتيب، وقد لقي نجم هذا مصرعه في حادث مؤسف على كورنيش النيل عام 1980! المفارقة المدهشة التي أذهلتنا منصور وأنا، أن بدر المنيأوي كان يقطن في منزل بسيط يبعد عن حارتنا أقل من 200 متر، وبالتحديد يقع المنزل على حافة السوق الجديد في الشارع، الممتد بين نهر النيل وقسم أول شبرا الخيمة!

- تخيل... هذا الرجل العظيم يقطن بجوارنا ولا أعرفه إلا الآن.

هكذا كان يقول لي منصور بأسى، وهو يبدي إعجابه ببدر المنيأوي.

قال لي منصور أيضاً، إن صديقه الجديد ضيف دائم في المعتقلات، فما من مظاهرة أو اعتصام أو إضراب إلا وتجذب بدر المنيأوي من قيادات هذه المظاهرة أو الاعتصام أو الإضراب؛ الأمر الذي يجعله هدفاً سهلاً لمباحث أمن الدولة، لدرجة أنه صار يعامل باعتباره صديقاً قديماً لرجال المباحث، فلا يعتدون عليه بالضرب مثلاً، ولا يمنعون عنه السجائر والجرائد اليومية،

ويستثنونه من عقوبات التكدير التي تنهمر على المعتقلين بانتظام، ويتركونه يبيت في زنازينهم وهو يحمل بين يديه راديو ترانزستور، يستمع منه إلى نشرات الأخبار وأغنيات أم كلثوم وعبد الوهاب، وهي رفاهية لا تمنح بسهولة لمعتقل، ومع ذلك كانت عنده القدرة ليوبخهم ويسقّهم عملهم بقوله:

- أنتم مجرد موظفين... تنفذون أوامر سادتكم... فاتركوا أثرًا طيبًا في نفوس من تعتقلونهم!

الحق، إن ما نقله لي منصور من حوارات دارت بين بدر المنيأوي ورجال أمن الدولة كان يدهشني، فهل تتخيلون أنه كان يخاطب ضباط أمن الدولة هكذا:

- عاملونا برفق، حتى نحميكم من غضب الشعب عندما تقوم الثورة، فنقول للجماهير التي تريد أن تقطعكم إربًا: إنكم كنتم مجرد موظفين تنفذون أوامر سادتكم... فعسى ولعل يتركونكم وشأنكم!

تزوج بدر المنيأوي في عمر متأخر، حين أتم السابعة والثلاثين، وبالتحديد بعد رحيل والدته بثلاثة أشهر، ووفقًا لما قاله لي منصور ابن خالتي، فإن بدر أحب في مطلع شبابه - أيام الجامعة - مرة واحدة.. كانت زميلته في كلية الآداب، ولكنها تصغره بعام، وقد انضمت مثله إلى المنظمة السرية التي آمن بأفكارها، لكن بعد أربعة أعوام من الغرام الجميل هجرته، بحجة أنها لا تستطيع الارتباط برجل يقضي أكثر من نصف عمره في المعتقلات.

كان اسمها فردوس، وقد أكد لي منصور، وهو يحكي ما سمعه من بدر، أنها كانت جميلة بصورة لافتة، وأن الصور القديمة التي رآها منصور والتي تجمع الحبيبين أيام الجامعة تكشف سحر أنوثتها، على الرغم من أنها بالأبيض والأسود. أما حكاية هجرانها لبدر الميناوي وزواجها من أستاذهما في الكلية، فقد بدت، كما قال لي منصور، أشبه بفيلم مصري ركيك.

- كان يحلم معها بالثورة... لكنها صدته في أول الطريق.

هكذا قال منصور، وهو يشرح لي أسباب الصد الذي لقيه بدر الميناوي في القرن الماضي.. لقد كانت فردوس تحلم بزواج وأبناء، لا بثورة ولا تغيير، وفقاً لما أعلنه بدر الميناوي بعد سنوات من الهجران!

- ألم يتأزم صديقك؟

سألت منصور ونحن نأكل الذرة المشوية على كورنيش المظلات، كانت لسعة البرد المصاحبة لشهر يناير تجعلنا نسير بسرعة، لكن حكاية بدر وفردوس كانت تشغلني، وكنت أشعر بشغف، لا أعرف سببه، لمتابعة ما جرى للثوري النبيل، كما وصفه منصور.

- أكد لي بدر أنه تأزم فترة، ولكنه تجاوز مأزقه بالغرق في حلم الثورة.

ثم أضاف:

- هذا رجل استثنائي، فهو يمتلك قدرة مذهشة على قراءة نفسه أولاً، ثم قراءة الآخرين.

بصراحة أقول لكم لم أفهم تمامًا معنى أن يقدر عاشق على نسيان
محبوبته بالغرق في بحر الثورة أو حلمها، كما يقولون!

فالغرام كما شرحه لي منصور من خلال تجربته مع صفاء سعيد
الشرنوبلي، يجعل الشاب لا يرى في العالم سوى محبوبته، ولا يتمتع برفقة
القلب إلا في حضور معشوقته، ولا يلمس السحاب إلا حين يحتضن
فاتنته، ولا يواجه الشدائد إلا بصحبة أميرته... هكذا أفهمني منصور جوهر
الغرام، فكيف ينسى بدر المنيأوي فردوس بحجة الغرق في حلم الثورة؟
أول مرة رأيت فيها بدر المنيأوي كانت في قصر ثقافة شبرا الخيمة، كان
طويلاً نسيئاً، ذا جبهة عريضة وشعر أسود مجعد، لا يخلو من شعيرات
بيضاء منثورة هنا وهناك.

له شارب دقيق يشبه شارب كمال الشناوي في أفلامه الأولى.. بشرته
الخميرية وصوته الرخيم وحر كاته الأنيقة منحته حضوراً جاداً من دون
تجهّم. إذا تحدث انطلق من عينيه شعاع ذكاء، يؤثر فيمن ينصت إليه
بلا ريب.

كان يقوم بإجراء البروفات على مسرحية «الفيل يا ملك الزمان» لكاتب
سوري اسمه سعد الله ونوس، وقد أكد لي منصور أنه من أهم كتاب
المسرح في العالم العربي.

من أول لحظة أدركت لماذا أحبه منصور؟

فهو يتمتع بحس قائد حقيقي، فقد كان يوجه - باعتباره المخرج -
الممثلين بإشارة بسيطة من يده، فإذا لم يفلح أحد من الذين يعتلون الخشبة

في أداء ما يريد، قام من فوق مقعده ليشرح له على المسرح طبيعة الشخصية نفسها، وكيفية أدائها بالصوت والحركة، بل والإشارة أيضًا.. شعرت بأن الممثلين يحبونه ويقدرونه، حتى المطرب الذي كان ينشد أغنياته بين حين وآخر، كان يتعامل مع بدر المنيأوي بتوقير واحترام.

بعد انتهاء البروفات دعانا بدر إلى منزله، حيث تناولنا عشاء بسيطًا تم إعداده على عجل. كان الحديث عن المسرحية ورؤيته الإخراجية لها يستحوذ على اهتمام منصور، وقد كانت مفارقة مذهلة بالنسبة إليّ أن أرى منصور لا يكفّ عن السؤال طوال الوقت، مثلما أفعل أنا معه، لكن بدر المنيأوي هو الذي يجيب هذه المرة بصدر رحب ومنطق سديد.

- ابن خالتك قليل الكلام.. أليس كذلك؟

باغتني صاحب المنزل بهذه العبارة، وهو يشير بسبابته إلى وجهي، فتحول منصور بعينه نحوي ثم قال لبدر وهو يتسم:

- هذه طبيعته عندما يلتقي إنسانًا لأول مرة!

استجمعت شجاعتي وهتفت بصوت مبحوح يخرج من حلقي بصعوبة:

- أبدًا يا أستاذ بدر... أنا أنصت جيدًا لأرائك وردودك.

مع دخول زوجته علينا حاملة صينية الشاي هبّ منصور مصافحًا، فبدأ لي أنها تعرفه جيدًا من خلال تعاملها البسيط معه، وقد لفت انتباهي أنها لم تكن محجبة، وكانت ترتدي بنطلون جينز وبلوزة نصف كم.. جلست معنا، ثم سألت منصور ضاحكة:

- ما الكتاب الذي تنوي استعارته اليوم؟

كان بدر الميناوي يمتلك مكتبة مذهشة، تحتوي على ثلاثة آلاف كتاب، وقد قسمها صاحبها بنظام دقيق، فهذه كتب السياسة، وتلك كتب المسرح، ثم كتب التاريخ، ثم كتب الفلسفة التي كانت تأخذ حيزًا كبيرًا من المكتبة، بعد ذلك يأتي دور كتب الأدب. وكان منصور لا يمل من تأمل هذه المكتبة، وإبداء إعجابه الشديد بما تحتويه، وكان بدر الميناوي لا ييخل عليه بشيء، فقط يشترط ألا يستعير كتابين مرة واحدة، بل كتابًا فكتابًا، وهو ما التزم به منصور تمامًا، فكان كل أسبوع يستعير واحدًا، فمرة يأخذ «ماركس: حياته ونضاله» لفرانز مering، ومرة يطلب «الثورة المغدورة» لتروتسكي، وثالثة «عودة الروح» لتوفيق الحكيم، ورابعة يقرر الاطلاع على أعمال «محمد الماغوط»، وخامسة يضع تحت إبطه كتاب «ازدهار وسقوط المسرح المصري» لفاروق عبد القادر، وسادسة «أولاد حارتنا» لنجيب محفوظ، وسابعة «تاريخ الحرب العالمية الثانية»... إلخ. كانت هذه المكتبة قد تم تجميعها على مدار ثلاثين عامًا كما قال لنا بدر، ولكن ما أثار دهشتي سؤال زوجته الذي وجهته إلى منصور:

- كيف أحوال زوجتك صفاء؟

ارتبك منصور قليلاً وظل يحرك عينيه بيني وبين سيدة المنزل، أما أنا فقد عقد الذهول لساني وطأطأت رأسي في الأرض.. فيما بعد، ونحن نجلس على شاطئ النيل في هذه الليلة كشف لي منصور السر، فصفا سعيد الشرنوبى زارت منزل بدر وزوجته عدة مرات، بل والأدهى أن

أصحاب المنزل كانا هما الشاهدين على زواج منصور وصفاء عرفيًا، وكانا كثيرًا ما يتركان لهما المنزل ساعة أو بعض ساعة ليتذوق كل منهما جسد الآخر بحرية، وكانت زوجة بدر هي التي تلقن صفاء كيفية تجنب الحمل، وكانت تزودهما بقراءات عن الجنس وتاريخه وفنونه.

سرد لي منصور كل شيء، وبرر كتمان السر عني بزعم أنه لا يريد أن يحمّلني عبئًا نفسيًا بمعرفة سر بهذه الخطورة، فقد اضطر إلى أن أفشيهِ لسبب أو لآخر، الأمر الذي يعرض منصور لحرج كبير أمام أهله، بل وأمام زوجته السرية.. الحق أقول لكم، لقد غبطته، واعتراني الشعور بالوضاعة؛ لأنني لا أملك حتى جرأة التفكير في فعل ما أقدم عليه منصور، وتخيلت نفسي وقد تزوجت سرًا، فارتعشت من الرعب للحظة لمجرد أن مر طيف أبي على بالي، فطردت خاطر المجنون من ذهني فورًا، ثم أحسست بالحنق من بدر المنيأوي الذي آمن به منصور، وجعله موضع سره بدلًا مني، لكنني عدت وعذرته، فمن أنا حتى أقدم لابن خالتي هذه الخدمة الجليلة بأن أفتح له بيتي ليتزوج سرًا، وينعم بعروسه؟!

آه... يا منصور؟ كيف رأيته، وكيف هو لون نهديها وما هو ملمسها؟ وهل استمتعت بسخونتها ودفئها؟ وماذا شعرت بالضبط عندما أدخلته كله؟ ثم ماذا دهاك حين انفجر الكون وزلزلت الأرض وأنت تتفض متخفّفًا من عذابات جسدك؟ وأي لذة اعترتك؟ يا نشوتك يا منصور بصفاء، ويا سعادتك ببدر المنيأوي!

بعد ذلك بسنوات، وأنا أجلس على مقهى «ذكريات» في دبي مع منصور
ابن خالتي وسمية الأبراشي قابضاً بيدي على حقيبة هند الملعونة، دخل
علينا الأستاذ صلاح كابي الوجه ودموعه تحرق خديه، وهو يقول:
- لقد مات بدر المنيأوي ضمن فناني المسرح، الذين احترقوا في قصر
ثقافة بني سويف أمس!

5

صفاء الشرنوبي

- هل حقًا كانت في منزلكم اليوم؟

سألت منصور باستغراب للمرة الثالثة، ما جعله يفعل في وجهي، ونحن نسير على شاطئ النيل، عند كوبري المظلات في اتجاه الساحل، فصرخ قائلاً:

- يا أخي... صفاء كانت عندنا اليوم... ما المشكلة؟

لم أكن أتخيل لحظة أن تصل جراحة منصور ابن خالتي إلى الحد، الذي يصطحب فيه زميلته ومحبوبة فؤاده إلى منزله! صحيح أن أباه رجل منفتح، إلا أنني كنت أظن أن انفتاحه هذا ليس بلا نهاية، وأن والدته على الأقل ستعترض بشدة على أن يأتي لها ابنها بفتاته حتى باب البيت، لأن لها بنتين في الجامعة، ومن ثم فقد تصاب بالهول إذا اعتقدت لحظة أن إحدى بنتيها تزور زميلها في منزله!

لم تحتجّ خالتي عنايات على زيارة صفاء، ولم يتذمر زوجها الأستاذ عبد العليم من أن لابنه فتاة تأكل الطعام وتسير معه في الأسواق، بل وتزوره

في منزله آخر المطاف! لقد استقبلوها - كل من في البيت - بترحاب شديد يليق برقتها، وقدموا لها أشهى الطعام وأطيب الشراب، فلم تأكل إلا لقمتين، وقنعت برشفتين من كوب الشاي، وقد ظلت خالتي عنايات مبهورة بفكرة أن تدخل عليهم صفاء لأول مرة، حاملّة بين يديها باقة من الزهور ذات ألوان تسر الناظرين، حيث قدمتها إلى خالتي بأدب جم، فما كان من خالتي إلا أن احتضنتها بقوة وطبعت فوق خديها قبلتين من القلب!

- تخيل... أمي ترعى ورد صفاء كل صباح، فتغير مياه الأنية، وتضع ملعقتين من السكر داخلها حتى يحافظ على رونقه.

قال لي منصور ذلك وهو يضحك بالفرح، لأن من استوطنت قلبه نالت رضا والدته، فكان يشعر بالغبطة لأن أحلامه تتحقق أمامه، ولأنه كان يخشى أن تصطدم المعشوقة بالأم، وهو ما لم يحدث.

- أنت تعرف أن الأمهات لا يرحبن دومًا بحبيبات أبنائهن.

كان منصور يضحك، وهو يشرح سر بهجته بعد الزيارة الأولى لصفاء، التي ما إن شعرت بأن جسمها يزداد سخونة كلما اقترب منها منصور خطوة، حتى أذعنت لرغباته في الخروج معًا من الكلية منفردين.

سارا في اتجاه كوبري الجامعة، ثم اخترقا شارع قصر العيني، وبعد ذلك انحرفا من شارع الشيخ ريحان حتى وصلا إلى حي عابدين، فشارع حسن الأكبر، فمنطقة تحت الربع فباب زويلة، حتى استقرا آخر الأمر في مقهى الفيشاوي بالحسين.

ساعة كاملة استغرقتها هذه الرحلة، تخللها تناول سندويشات فول وطعمية، ابتاعها منصور من محل بشارع قصر العيني والتهماها في أثناء الطريق!

لم تكن تلك الرحلة غريبة تمامًا على صفاء سعيد الشرنوبى، حيث قطعها أكثر من مرة وهي طفلة - وإن كان من شوارع وجهات مختلفة - مع أبيها الذي كان يشرح لها عظمة القاهرة القديمة، وهو في طريقه إلى مرسمه في وكالة الغورى.

لقد حافظ سعيد الشرنوبى على علاقة حميمة بشوارع وأزقة وحواري القاهرة الفاطمية والمملوكية، مذ كان طالبًا في كلية الفنون، يجوب تلك الأماكن بهيئة رَحالة روماني من العصور الوسطى، واضعًا على كتفه حامل الرسم و«شنطة» الألوان والاسكتشات. ولما حقق نجاحًا ملحوظًا في الحركة التشكيلية المصرية، استطاع بشهرته وحضوره أن يقتنص رسمًا خاصًا له في وكالة الغورى، من قِبل وزارة الثقافة.

المصادفة المشؤومة وحدها هي التي أفسدت علاقة صفاء بأبيها، حين رآته يسير مع امرأة تتأبط ذراعه على كورنيش النيل، في مساء بارد من شهر يناير. لم تتردد واقتربت منه ووقفت قبالتها، مانعة إياه من مواصلة السير، وهي تسأله بنبرة غيظ لا تخلو من تحدٍ:

- من هذه يا أبي؟

عقدت المفاجأة لسان سعيد الشرنوبى، ونسي للحظة أنه يقف أمامه ابنته، بل ظن نفسه يحاكم من قبل زوجته، وكأنها هي من ضبطته يستمتع

برجولته مع امرأة أخرى.. لم تكن أمام الفنان التشكيلي اللامع أي فرصة للكذب، فالمرأة التي معه كانت تلقي برأسها كله على كتفه، بينما يحتضنها بذراعه، كما أن ارتباكها حال دون أن يفلح في اختراع أكذوبة يمكن تمريرها؛ فروائح الغرام تفوح بين الاثنين على شاطئ النيل، ونظرات المرأة المجهولة إلى أبيها تشبه نظرات لبؤة عطشى إلى المضاجعة؛ لذا استجمع سعيد الشرنوبى كل قواه، وهو يقول لابنته بصوت، حاول جاهداً أن يكون حاسماً:

- سأشرح لك الأمر فيما بعد... هيا إلى البيت الآن!

لم تفلح النبرة الحادة للأب في زحزحة صفاء من مكانها ملليمترًا واحدًا، وراحت تكرر بتصميم أكبر السؤال نفسه، وهي ترتعش من الاضطراب والبرد:

- من هذه المرأة يا أبي؟

لم يجرؤ سعيد الشرنوبى على الإفصاح عن حقيقة السيدة، التي كانت تشتهيه قبل دقائق واضعة رأسها كله فوق كتفه في استرخاء لذيذ، ولكنها بعد اللحظة الأولى من صدمة المواجهة، انبرت هي للإجابة عن السؤال الذي أفسد عليها متعة السير ليلاً مع الرجل، الذي التفته لأول مرة قبل شهرين فقط:

- أنا زوجته يا ابنتي!

نطقتهما حرفاً حرفاً وبشعور مليء بالفخر، واضعة بذلك حدًا للأسئلة العبثية في الطريق العام، كما شرحت لزوجها بعد ذلك.

صفاء التي تلقت الإجابة كضربة سندان في قلبها، رمقتهما بعينين دامعتين تضججان بالحقد والغل، ثم هرعت نحو شارع جانبي، من دون أن تنطق بكلمة، ولا حتى أن تلتفت إلى استغاثات ونداءات أبيها.

في تلك الليلة كالت صفاء السب لأبيها في أكثر من عشر صفحات كاملة، دونتها بسرعة لافتة، كتبت بقلب يفيض بالضغينة ضد كل رجال العالم، الذين لا يقدرّون الحب ولا يعرفونه، والذين يلهثون خلف نزواتهم ضاربين عرض الحائط بمشاعر من يحبهم ويحترمهم.

ظلت تكتب وسط سيل من الدموع، إلى أن توصلت لعبارة، ظنت أنها تلخص حال الرجل، كتبت: «الرجل مجرد حيوان.. لا أكثر ولا أقل»!

عبثًا حاول سعيد الشرنوبلي أن يشرح لها في الأيام التالية أن الرجل - خاصة الفنان - بحاجة دومًا إلى امرأة تلبّي أشواق روحه وتطفئ نيران جسده، وأن والدتها لم تعد المرأة التي كانت بعدما تعرضت لعطب جسدي أطفأ لهيب شهوتها، وأنه يعدها بأنه ما من أذى سيلحق بأمرها، أو بها أو بشقيقها الأصغر... أجهد سعيد الشرنوبلي نفسه في شرح الأسباب التي دعتّه إلى الزواج من امرأة أخرى، موضّحًا لها للمرة الألف أنه لن يهجر البيت ولن يطلق أمها، ولن يجرحها بإفشاء السر. كان يتحدث باضطراب باعتباره متهمًا وليس أبًا، وكان يتحاشى رصاصات الغضب والاستهجان، التي تنطلق من عيني ابنته، التي رفضت أن تفتح فمها بكلمة واحدة، ولو من باب المجاملة أو آداب الحديث مع الآباء!

كانت صفاء في الصف الأول الثانوي، حين وقعت الواقعة وضبطت أباهما متلبسًا بالغرام على كورنيش المنيل، وعلى الرغم من أنها لم تكن تتجاوز عامها السادس عشر آنذاك، فقد تمتعت بحكمة امرأة ناضجة، فلم تخبر أمها قط بما رأت وعرفت، وظلت وحدها تمضغ حنظل سر أبيها، من دون تبرّم أو حتى تصوّر أن يأتي يوم تفشي فيه هذا السر المشؤوم لأحد!

منصور ابن خالتي فقط هو أول من اطلع على مغامرة سعيد الشرنوبي، حين سردت له صفاء أمر زواج أبيها من امرأة أخرى، بعد ثلاثة أعوام من اكتشافها أمر هذا الزواج. حتى أمها رحلت إلى القبر وهي سعيدة، لأنها كانت تظن أن زوجها لم يرتكب حماقة الزواج بأخرى، عندما تيقنت أنها لم تعد صالحة كزوجة، بل شكرت الله قبل وفاتها بأيام، لأنه منحها زوجًا وفياً لم يسبب لها غم الخيانة الزوجية!

لم يمكث زواج سعيد الشرنوبي سرًّا أكثر من عام، منذ فاجأته ابنته على كورنيش المنيل، إذ ما لبثت أن رحلت والدة صفاء وهي قرية العين، فأقدم الفنان التشكيلي على إعلان زواجه بعد ستين يومًا فقط من مصافحة جثمان زوجته المتوفاة تراب القبر!

لم تغفر صفاء قط لأبيها جريمة الزواج - كما كانت تسميها - من امرأة أخرى وأمها مازالت على قيد الحياة، ولكن الزمن جعلها تخفف من حدة التعامل مع والدها، فقبلت الكلام معه بعد انقطاع دام عامين، شريطة ألا يتحدث معها في وجود الزوجة الثانية، وهو أمر تفهمه سعيد الشرنوبي جيدًا وانصاع له، حيث أصبح يتحاشى الكلام مع ابنته كلما كانت امرأته في المنزل أو تجلس بجواره في غرفة المعيشة!

عندما التقاها منصور أول مرة، وهي تناقش مع المخرج التصور العام لديكور مسرحية «كاليجولا»، كان نور حزنها على رحيل والدتها قد خبا قليلاً، بينما الجرح الذي سببه والدها بزواجه مازال ينزف في قلبها! كانت صفاء في حاجة إلى الحب، وكانت تدرك جيداً مقدار أنوثتها كفتاة جميلة، مزودة بقدر جيد من تناسق الملامح، فهي متوسطة الطول، عيناها تشعان بالحوية، يعلوهما حاجبان سلسان وجبهة منبسطة.. بشرتها بيضاء نضرة وفمها رقيق، إذا ابتسمت فاض سحر أنوثتها. أما شعرها فيميل إلى اللون البني الداكن؛ حيث لا تجد صعوبة في تصفيفه نظراً لنعومته الشديدة؛ لذا رفضت «منصور» في البداية، كما رفضت زملاء له من قبل، بل وتحصنت بصمتها وثقافتها التي تتجاوز ثقافة من هن في سنها بكثير. اعتدادها الشديد بنفسها جعلها ترفض أن ترتدي الحجاب الذي شاع بين البنات، حتى أنها وبّخت إحدى زميلاتهما، حين حاولت الأخيرة أن تنصحتها بضرورة ارتداء الحجاب، حيث قالت لها صفاء بحزم:

- لن يلتهمني الرجال إذا رأوا خصلات شعري!

لا شك أن أباهما كان وراء أفكارها التقدمية الجريئة، ولكن قراءاتها وتأملاتها جعلتها تصل إلى قناعات صادمة للكثير من أصحاب الفكر السائد، فقد قالت لمنصور إنها لم تكن تتوقف عن الصلاة، وهي في الثانوي في أثناء الدورة الشهرية، لأنها ترفض أن تصف دم الدورة بالنجاسة لأنه دليل الخصوبة! فكيف تكون الخصوبة حراماً؟ وكيف تحول دون إتمام الصلاة؟

لم يئأس منصور حين صَدَّت برفق أولى محاولاته في التقرب إليها، بل زاد قناعة بأن صفاء تمثل حلمه الأخضر على أكمل وجه، فظل ملاحقًا لها من دون تذمر من مكان إلى آخر في الكلية، حتى أحرقتها في النهاية نيران اللهفة، التي تنطلق من عينيه، فرضخت لسلطان الغرام بعد أقل من شهر واحد من خروجه من المعتقل!

طوال عمري لم أر منصور ابن خالتي يبحر في قارب السعادة، كما رأيته في تلك الأيام، فكان يصطحبها معه إلى كل مكان في القاهرة تفوح منه روائح الأدب والفن والسياسة، كان يقرأ لها بصوت مسموع في الحدائق العامة ما تيسر من قصائد صلاح عبد الصبور وحجازي ونزار، وكانت تهمس في أذنه ببعض أبيات حفظتها لمحمود درويش وأمل دنقل، وحين عرف الطريق إلى الحياة السفلية عبر منظمة تروتسكية سرية، جرحها معه ببهجة عارمة، حيث كان يظن أن الأقدار انتخبته ليكون قائدًا ثوريًا قادرًا على إحداث التحول الجبار في مصر، كما كان يقول لي. كان يتحدث معي بتصميم كهان العصور الوسطى، تتخلل عباراته نبرة يقين راهب قديم بأن المسيح هو ابن الله! وكانت صفاء حريصة على أن تبدو في صورة الفتاة المتمردة، من دون أن تفقد حسها الأنثوي، أو تسقط في مطب الابتذال الذي هوت فيه فتيات يساريات غيرها رأيتهن أحيانًا بصحبة منصور.

أول قبلة حميمة بينهما كانت على سلم منزل صديق لهما يقطن في المعادي الجديدة، ذهب إليه ليناقشا معه الجريدة السرية التي تصدرها المنظمة، وآخر قبلة بينهما كانت في أثناء الرحلة المشؤومة إلى القناطر الخيرية.

العجيب أنني كنت ألتقيهما أحياناً وأجلس معهما بعض الوقت من دون أن أعرف، ولا أتخيل، أنهما زوجان! فكانا يتصرفان دومًا باعتبارهما طالبين عاشقين يبذلان جهودًا خارقًا ليقتنصا قبلة - مجرد قبلة - في مكان خالٍ، ولم أكن أدرك أبدًا أنهما مارسا الجنس منذ ساعات قليلة في منزل بدر المنيأوي، قبل أن أقابلهما في مقهى الفيشاوي!

لقد شجعتهما بدر المنيأوي على اختراق المحظور؛ فبعد ستة أشهر من تخلق طائر الحب في قلوبهما، وقفا عاجزين أمام وحش الجنس، فلا هو قادر على ترويضه ولا هي تتحمل عذابات واضطرابها.

لم يكن هناك أي حائل ديني أو عقائدي، يمنع انكبا بهما على ممارسة الجنس الآن وفورًا، لكن الرعب من سطوة التقاليد كان يعرقل اتخاذ القرار الحاسم بالامتنال لشهوة الجسد.

- صفاء... أنا غير قادر على الاحتمال.

يهمس منصور في أذنها، وهما يجلسان في حديقة مسرح الطليعة انتظارًا لدخول عرض تجريبي لصمويل بيكيت، فتمسك يده بقوة وهي تلتهمه بعينها، يضنيها العجز الذي يحول دون أن تمنحه الراحة المرتجاة.

- ماذا أفعل لك يا حبيبي؟

تسأله صفاء وهي غارقة في بحر التوتر، وهكذا يظل طائر الجنس يحوم حول قمع غرامهما، من دون أن يفرح بالتهام الحبوب!

لم يجد منصور بدءًا من الإفصاح عما يرهق جسده ويربك روحه إلى بدر المنيأوي، حيث انتهز فرصة وجوده في منزل صديقه، حتى أفاض في الكلام، عندما وجه له بدر أول سؤال:

- مالك يا منصور... لست معافى الروح؟

في البداية تعجب منصور من فراسة بدر المنيأوي، الذي لاحظ عدم اتزانه، ولكنه لم يتوقف طويلاً أمام هذه الفراسة، وشرع يحكي له - من دون خجل - مدى هيامه بغاتنة فؤاده، تركه بدر يتكلم أكثر من نصف ساعة دون أن يقاطعه، ولما وجده طافياً بلا حيلة فوق مياه العذاب الجنسي، بادره بدر بسؤال قاطع:

- هل تحبها يا منصور؟

- طبعاً... بكل ذرة في كياني.

قالها منصور بسرعة جعلت الحروف تتقاذف من فمه، ولكنه بهت حين باغته بدر بالحل الناجع:

- تزوجها يا منصور... وفوراً!

بعد ذلك بفترة طويلة وبعد أسابيع قليلة من الرحلة المنكوبة إلى القناطر الخيرية، أطلعني منصور على ورقة الزواج العرفي التي اقترن فيها بصفاء، ورأيت بعيني توقيعه وتوقيع زوجته الغريقة بجانب توقيع بدر المنيأوي وقرينته!

عامان وسبعة أشهر وثمانية عشر يوماً هو عمر هذا الزواج العرفي، الذي أطاحت به مغامرة غير محسوبة للسباحة في نهر النيل.

في بداية الزواج لم يعرف منصور أين يلتقيان وهما متخفان من ملابسهما، فهو لا يملك مكاناً خاصاً به، وهي رفضت أن تبين معه في

فندق خشية أن يتعرف إليها أحد، فمنذ أن ضبطت أباهما عن طريق المصادفة متزوجاً بامرأة غير والدتها، وهي تعمل ألف حساب لقانون المصادفات، ولولا هيامها بمنصور ما ارتضت أن تمنح له جسدها سرّاً!

في ليلة زفافها كذبت على والدها، وادعت أنها ستيت عند صديقتها، أما منصور فقد ظل يشكر بدر المنيأوي كثيراً؛ لأنه ترك له بيته في تلك الليلة ليستمتع بعروسه.

وقد اعترت الدهشة العروسين حين وجدا زوجة بدر قد أعدت لهما عشاء فاخراً، بينما ترك بدر ورقة مثبتة على الحائط، كتب فيها «زجاجات البيرة ستمنحكما السعادة والدفء هذه الليلة... ألف مبروك».

بالنسبة إليّ، كنت أعرف أن الزواج العرفي منتشر بين طلاب الجامعة، بل وكنت أحسد زملائي الذين أقدموا على هذه الخطوة، ولكني لم أتخيل لحظة أن منصور ابن خالتي واحد من هؤلاء، كما لم أكن أتصور أنه يختزن في عينيه كل هذه الدموع حين رأيته عائداً من القناطر الخيرية، تاركاً زوجته ومعشوقة فؤاده صفاء سعيد الشرنوبى جثة هامدة في قاع النيل!

6

دبي

عندما لمحت وجه منصور ابن خالتي محشورًا بين حشود الهنود
والباكستانيين في مطار دبي، كنت سعيدًا جدًّا، ذلك أنني ظللت حائرًا،
لا أدري ماذا أفعل حين خرجت من بوابة المطار ولم أجد أحدًا، لا هو
ولا شقيقي حسن!

لقد أبلغتهما بميعاد وصول طائرتي خطأ، فبدلاً من أن تطأ الطائرة مدرج
المطار الساعة الرابعة عصرًا بتوقيت دبي، قلت لهم في الليلة السابقة إنها
ستصل في الخامسة! وهكذا ظللت ساعة كاملة لا أعرف ماذا أفعل بين
هذه الجموع القادمة من كل بقاع الأرض إلى دبي!

- إنه يوم تاريخي!

قالها منصور، وهو يضحك ويشير بسبابته إلى وجهي:

- لماذا؟

سأله أخي حسن بصوت رتيب ومن دون اكتراث، فهتف منصور

مسرّعًا:

- إن أخاك تحرر اليوم من أسر شبيرا الخيمة!

ثم أضاف:

- سجّلا عندكما تاريخ اليوم 23 نوفمبر 2003!

لم أعلّق على ما قاله منصور، واكتفيت برسم ابتسامة لا معنى لها على شفتي؛ فقد كنت مشدوهاً بما أرى وألمس، من أول نظام مطار دبي ونظافته واتساعه، حتى السيارة «التويوتا كروлла» التي يقودها منصور وسط شوارع برّاقة، لامعة، تنتصب على جانبيها بنايات وعمارات شاهقة ذات تصميمات باذخة، وكأنني أرى مدينة مرسومة على الورق. حتى السيارات التي تخترق شوارع دبي كلها بحالة ممتازة تقريباً، أما التاكسيات، فقد أذهلتني فكرة أنها من ماركة فورد أو كامري، وهي ماركات فاخرة لا يملكها إلا الأثرياء في القاهرة، فكيف تتحول هنا إلى مجرد سيارة تاكسي يستقلّها كل من هبّ ودبّ؟

لم يتركني منصور أنعم بلذة اكتشاف المدينة من نافذة السيارة، وتطوع ليشرح لي أين نحن، وإلى أين متجهون! قال إننا نتحرك الآن في اتجاه الشارقة... هذا مركز تجاري اسمه «الملا بلازا»، وهذا طريق الشارقة دبي، هذا شارع الوحدة، وهو الذي يخترق المدينة، والآن سننحرف يساراً من شارع الملك فيصل؛ لنصل إلى منزلي في حي «أبوشغارة»!

لم أكن أنصت إليه جيداً، لأنني كنت غارقاً في ملاحقة عناوين المحالّ وديكورات واجهاتها اللافتة.. وفجأة تدخل حسن بسؤال بعد أن ظل صامتاً طوال الطريق:

- كيف حال أبيك... ألم يمت بعد؟

منذ أن تركنا أخي حسن قبل أربعة أعوام. وأتى إلى مدينة الأحلام هذه، وهو لا يكل مع كل اتصال تليفوني بأمه أوبي، أن يسألنا السؤال نفسه... متى سيموت أبونا؟

أجبت بصوت خفيض وحروف مدغمة:

- كما هو... لكن سعاله في اشتداد دائم!

حين خرجت من الحمام، بعد أن تمتعت بالمياه الدافئة، سمعت منصور ابن خالتي يوبخنا - أنا وحسن - بطريقة لطيفة قائلاً:

- لا يليق أن نتحدثا عن أبيكما هكذا!

وقبل أن يرد أي منا أضاف:

- أعرف أن عم عبد القوي رجل قاسٍ... وغير محتمل... لكنه أبوكما على أية حال؟

تذكرت حواراي الأخير معه وأنا أودعه في المنزل، كان محتجاً على سفري مكرراً للمرة المئة عبارته الفظة التي طنطنت في أذني بقوة، وأنا أغادر مكتب موسى الوحش مخذولاً:

- الفاشلون فقط من يبحثون عن الرزق خارج بلدانهم!

لم أعلق على كلام أبي الذي استطرد، وهو أسير نوبة سعال كادت تخرج روحه من فمه:

- هل أنتم رجال؟ لقد تركنا أخوك، وها أنت تلحق به، وتتركان شقيقتيكما مع أب مريض، وأم متوكة على الدوام... هل أنتم رجال؟

في الطائرة رنّت كلمات أبي في أذني كالطبل، لكنها لم تستطع أن تزيل عني نوبة رعب انتابتني مع صعود وهبوط الطائرة، مصحوبة بالآلام في أذني اليسرى، ظلت تلازمني لمدة تزيد على سبعة أيام. ومع ذلك، وعلى الرغم من عبارات أبي الجارحة، فقد كنت سعيداً بتجربة ركوب الطائرة لأول مرة، كما كنت فرحاً لأن هناك أملاً في حياة أفضل ينتظرنني في دبي، بعد أن أيقنت أن أبواب الرزق مغلقة في وجه أمثالي من أبناء القاهرة!

في المقهى ودّعت زملائي، الذين ألحوا على ضرورة أن أوفّر لهم عقود عمل إن أمكنني ذلك، كما صافحت زبائني الدائمين الذين تمنوا لي حظاً أوفر في الغربة، وتكرّم بعضهم وأجزل لي في البقشيش، فشكرتهم وأنا غارق في مستنقع الخجل!

دموع أُمّي ونظراتها وأنا أقبلها مغادراً كانت تجلد مني الحواس الخمس، وقد وعدتها بأني سأزورها كل سنة على الأقل، بعكس أخي حسن الذي لم يأتِ إلى مصر إلا مرة واحدة طوال أربعة أعوام! أما ثريا ونجاة وخالتي عنايات، فقد انشغلن بإعداد حقائب السفر وحشوها بالحمام والبط. - أخوك منصور يعشق تناول الطيور.

هكذا قالت خالتي عنايات التي أصبحت تزورنا، بعد أن تحللت أوامر أبي المشددة بعدم دخولها البيت مع مرور الزمن، لكن الوجد الذي ظل يلازمني ويشعرنني بالعجز على الدوام، هو متابعتي لانطفاء ورود الأنوثة في عيني شقيقتي نجاة وثرى، وهما مكوّمتان تحت حجاب محكم الإغلاق، فلا تبين أي شعرة منهما، وملابس فضفاضة كأنها سراويل نساء قدمن من عصور سحيقة!

نعم... في الطائفة إلى دبي شعرت بأن نجاة وثرىا نالتا عقابًا أشد وأنكى مني أنا وشقيقي، فلم تفرح أي منهما بعريس، ولم تنفلت أي منهما من سجن والدي، لتؤسس بيتًا مستقلًا مع زوج محب، تحقق معه أنوثتها في الغرام والإنجاب!

في أول ليلة لي في دبي، دعانا منصور - أخي حسن وأنا - إلى تناول العشاء في مطعم «دانيال» الذي يطل على خور دبي، كان منصور يقود السيارة بثقة من يعرف الطرق والشوارع وكأنه يعيش في المدينة منذ سنين، على الرغم من أنه وصل إلى دبي قبل ثمانية أشهر فقط، حيث أرسلوا إليه عقدًا ليعمل محررًا ثقافيًا في جريدة «البيان» التي كان يرأسها من القاهرة.

أربع سنوات قضاهما منصور تقريبًا - منذ تخرجه - محررًا ثقافيًا في جريدة «الأهالي» حقق خلالها نجاحًا ملحوظًا؛ حيث فضح الكثير من الأعياب كبار المسؤولين في وزارة الثقافة، من خلال حصوله على مستندات، تثبت تلقي أحد وكلاء الوزارة رشوة تتجاوز خمسة ملايين جنيه من أحد المقاولين، الذين يتعاملون مع الوزارة!

لقد أثارت هذه القضية ضجة إعلامية كبرى، جعلت من منصور نجمًا صحفيًا لامعًا، فور نشرها على صفحات جريدة «الأهالي»، الأمر الذي رشحه بيسر للسفر إلى دبي للعمل في جريدة «البيان» بعقد سخي.

لم يتردد منصور لحظة في الموافقة على السفر، فقد كان حزنه على زوجته كبيرًا حقًا؛ لذا كان راغبًا في هجر القاهرة والسفر بعيدًا، فلما جاءته الفرصة انتهزها فورًا.

- وأصدقائك هنا يا منصور.

- ما بهم؟

قلت له بصوت هامس، وأنا أتلفت حولي:

- أقصد زملاءك في المنظمة السرية!

جاوبني من دون اكتراث:

- أخبرتهم برغبتني في السفر، والتفرغ للعمل الصحفي فقط!

- وهل وافقوا؟

- لا يهم... أنا أنفذ ما أريد.

ثم نظر إليّ وصاح بصوت مجروح وقلب باك:

- ذكرى صفاء تحاصرني في كل مكان... وأنا لم أعد قادرًا على
الاحتمال... أريد أن أبتعد!

لم أرَ منصور ابن خالتي بهذا الضعف من قبل، حتى عندما اكتشف
الورطة التي أوقعتنا فيها هند. هل كان يشعر بالندم لأنه لم يستطع إنقاذها؟
لا أدري، لكن المؤكد أنه كان عاشقًا كبيرًا، والمؤكد أيضًا أنني أخطأت
حين اعتقدت بعد غرقها بأسبوعين أن منصور قد نسيها، أو أن جرحه قد
اندمل، حين رأيته يبادل بدر الميناوي وزوجته الضحك، ونحن نشاهد
فيلم «غزل البنات» في منزله!

نعم.. عليّ أن أعترف أنني أخفقت في فهم ابن خالتي، أو بالأحرى في
تقدير مدى حزنه على زوجته وحبيبته، التي راحت منه في غمضة عين!

كنت أظن أن حرصه على حضور بروفات المسرحية، التي يخرجها بدر المنيأوي في قصر ثقافة شبرا الخيمة وسهره كل ليلة في منزل المخرج بعد البروفات، بمثابة عودة إلى ممارسة حياته بشكل طبيعي بعد غرق صفاء!

أذكر جيداً أنني ذهبت معه أكثر من مرة لحضور هذه البروفات. بعدها يصطحبنا بدر المنيأوي إلى منزله، فتناول عشاءنا وهما يتحدثان في المسرحية وبروفاتها، ثم نشاهد فيلمًا أجنبيًا أو عربيًا، أو نستمع إلى بعض المقطوعات من الموسيقى الكلاسيكية، التي كان بدر المنيأوي حريصًا على شرحها لنا!

كنت أرى منصور يتصرف في هذه اللقاءات بشكل تلقائي، أو هكذا اعتقدت على الأقل، على الرغم من أن صمته كان أطول، مما اعتدت عليه، ونحن عائدان آخر الليل إلى منازلنا بعد انتهاء السهرة.

أما بدر المنيأوي، فكان إصراره واضحًا على حضور منصور البروفات كل مساء، وقد رأيتَه بنفسه يشدد على ذلك، ثم يمسك بيده ويأخذه معه إلى بيته. كان واضحًا أنه يحاول أن يُنسي منصور مأساته في وفاة حبيبته وزوجته، وكنت أحسب أنه نجح تمامًا. لكن يبدو أنني أخطأت! فلم أدرك حجم الحزن الذي اعتري ابن خالتي ومدى إحباطه!

عمومًا... حقق منصور نجاحًا باهرًا في صحافة دبي، وتمتع بلذة التفوق بعد أسابيع قليلة من وجوده في جريدة «البيان».

في مطعم «دانيال» اقتحمني شعور طاغ بحجم البؤس، الذي يمسك بخناقنا في مصر، حيث رُصّت موائد الطعام من كل صنف ولون في مساحة

بدت لي لا نهائية، وقفت مرتبكًا لا أعرف ماذا أفعل أمام الابتسامة الملونة للنادلة الفلسطينية التي حدثتني بالإنجليزية، وفوجئت بأن منصور تعامل معها بهدوء وثقة، فقادتنا إلى منضدة في ركن قصي من المطعم.

- هل أنت زبون دائم هنا؟

سأله أخي حسن وهو يشعل سيجارة، أخرجها من علبة لا أعرف ماركتها.

ابتسم منصور، وهو يقول:

- أتناول غدائي هنا أحيانًا مع الأستاذ صلاح الغندور، رئيس القسم الثقافي عندنا.

نظافة المطعم كانت لافتة، والحركة الهادئة للزبائن أثارتني، فلا صوت سوى الموسيقى الناعمة التي لا أعرف مصدرها ورنين الشوك والملاعق عند اصطدامها بالصحن.

تفحصت وجوه الزبائن الذين يصطفون حول المنضدة الرئيسة لاختيار الطعام الذي يرغبون به، فوجدتهم يشكلون كوكبة مميزة من جنسيات شتى، ففيهم إيرانيون وأوروبيون وهنود وصينيون ومصريون وسوريون وعراقيون وفلسطينيون، أو هكذا ظننت بعد أن أشار إليّ منصور بأنّ جنسيات العالم تتناول غداءها وعشاءها في هذا المطعم؛ نظرًا لطعامه اللذيذ والمتنوع!

حين رن موبايل منصور، تأملت وجهه وهو يرد على المتصل، كانت أعوام أربعة تقريبًا قد مرت منذ أن خطفت منه مياه النيل، ذات نهار، عروس قلبه صفاء الشرنوبى، فوجدته كما هو:

العينان السوداوان الأسرتان، وإن كان عصفور الحزن قد استقر فيهما منذ تلك الرحلة الملعونة إلى القناطر الخيرية، والشعر الناعم والمنسدل ذاته، أما ما لفت انتباهي، فهو أناقته الزائدة؛ فقد ارتدى بدلة كحلية فوق قميص زهري اللون مع ربطة عنق حمراء! بعكس أخي حسن، الذي لاح لي كما تركنا قبل أربع سنوات، وإن بدا أكبر عمراً وأكثر همّاً.

بسرعة البرق ملأ حسن صحنه، عن آخره، بكل أصناف الطعام ولم ينسَ نصيبه من الحساء والسلطة، وراح يلتهم الطعام التهاماً، وكأن هناك من سيخطفه منه بعد لحظات! كما لم يهتم إطلاقاً بأن ينتظر حتى نعد الصحن الخاصة بنا؛ لنبدأ في تناول الطعام كلنا معاً.

جذبني منصور من يدي، وراح يسمي أصناف الطعام التي يعرفها قائلاً:

- هذه «سبزي» أي سبانخ، وهذا «زرشك»؛ أي أرز مزدان بحبوب الرمان.

سألته باندھاش:

- كيف عرفت أسماءها؟

ضحك وهو يضع قطعة من الكباب الإيراني في الصحن الخاص بي صائحاً:

- هل نسيت؟ الفضول دفعني لأن أسألهم هنا عن أسماء هذه الأصناف.

ثم استطرد، وهو يشير إلى ورقة صغيرة:

- لاحظ أيضًا أنهم يكتبون بالإنجليزية اسم الطعام بجوار كل صنف! لم أستطع أن أمنع نفسي من ملء الصحن، عن آخره، مؤكدًا الوجود الطاعني للحم والدجاج، لكنني وجدت منصور قد أعد صحنًا به القليل من الطعام، الذي يتكون من أصناف متنوعة.

كنت جائعًا فازدردت الطعام بسرعة، وقمت لأجهز صحنًا ثانيًا، في حين كان حسن قد قضى على صحنين كبيرين وثالث مليء بالحلوى والفواكه. أما منصور فكان يأكل برفق وبتمكن تام من استخدام أدوات المائدة، بينما تعثرت أكثر من مرة وأنا أحاول أن أستخدم الشوكة والسكين، فقررت عدم التعامل معهما، وقنعت بالملعقة فقط!

لم أتمكن من التهام الصحن الثاني كاملاً، فابتسم منصور، وهو يقول:
- للأسف... كل المصريين الذين يأتون إلى هنا يملأون صحنونهم بما فوق طاقتهم بكثير جداً!

استفزني التعليق، فهتفت مسرعاً:

- وأنت؟

- كنت مثلهم، حتى علمني الأستاذ صلاح الغندور كيف أتعامل مع الطعام بإنسانية!

شعرت للحظة أن صلاح الغندور هذا الذي ذكره مرتين في هذه الليلة، قد يحل محل بدر المنيأوي، ولكن هذا الخاطر زال حين تساءل حسن، وهو ينهض غير عابئ بحديثنا:

- أما آن الأوان لتناول الشيشة ؟

لم يشأ منصور أن يخرج أخيه بأننا لم ننته بعد من تناول الحلوى والفواكه، حيث كان يقشر لنفسه برتقالة، وقام باستدعاء النادلة الفلبينية طالبًا منها فاتورة الحساب، لكنه همس في أذني ونحن خارجان من باب المطعم، مشيرًا إلى حسن، الذي سبقنا بعدة خطوات:

- أخوك هذا سيعطل جلفًا إلى الأبد!

على مقهى «ذكريات» في دبي، فوجئت بأن منصور لقي الترحيب نفسه الذي لقيه في مطعم «دانيال»، ولكن هذه المرة من النادل المصري الذي هتف فور أن رآه:

- أهلاً بالأستاذ منصور وأصدقائه... أين الأستاذ صلاح؟

- لا أدري... فليس بيننا موعد الليلة!

«كأن المقهى في قلب القاهرة وليس في دبي» هكذا قلت في نفسي، فالضجيج المنبعث من زواياه هو الضجيج نفسه، وحركة النادلين وأصواتهم العالية، التي تنادي على «الطلبات» كما لو كنا في القاهرة، حتى أم كلثوم تردد أغنية «فكروني» بالإحساس ذاته، الذي كانت تترنم به في مقاهي القاهرة.

لكن هناك أيضًا بعض الاختلافات؛ فالمقهى أكثر نظافة ونصاعة من شبيهه عندنا، كما أنه أكثر اتساعًا، أما المقاعد والمناضد هنا فتتسم بالأناقة والفخامة، كما لو كانت خاصة بأحد الصالونات الكبرى، وليس بمقهى!

أفقت من شرودي على صوت أخي حسن، وهو يأمرني:

- بعد أن تنتهي من هنا... اذهب لتنام فوراً... غداً أمامك عمل كبير...
لا تسهر... أفهمت؟

حرّكت رأسي بالإيجاب من دون أن أنطق حرفاً، أما منصور فوزع عينيه بيننا بالتساوي، ثم همهم بكلمة لم أفهمها، ولأن طعم الشيشة كان أكثر حلاوة بما لا يقاس مما ندخه في مقاهي القاهرة، فقد ظللت أدخن بشراهة؛ هرباً من التفكير فيما هو قادم من علاقتي بأخي.

بصراحة أكثر... لقد قمت بتأنيب نفسي بقوة لأنني أذعنت لأوامر حسن، وكأني مازلت طفلاً، حيث كان يجب أن أردّ عليه وهو يأمرني بأن أذهب لأنام. ولكن لم يطاوعني لساني ولا شجاعتي على رد الصاع صاعين لشقيقي، الذي ورث عن أبي فظاظته وغلظته. صحيح أنه من وفرّ لي عقداً للعمل هنا، لكن ليس معنى ذلك أن أنصاع أمامه هكذا، وكأني عبد له اشتراه من سوق الرقيق؟ ترى هل تركت القاهرة هرباً من بطش أبي لأسقط في مطب جبروت أخي؟!

هاجمتني غربان الوسوس هذه، وأنا أنفث الدخان بكثافة في فضاء المقهي، بينما أم كلثوم مازالت تكرر بملل «فكروني إزاي... هو أنا نسيّتك»!

في طريق العودة إلى الشارقة، كرر أخي أوامره لي وهو ينزل من السيارة أمام العمارة التي يقطن بها، أما أنا فلم أرد عليه، واكتفيت بإيماءة من رأسي تفيد الموافقة!

دار منصور بالسيارة أكثر من مرة حول البناية، التي يقطن بها حتى استطاع أن يقتنص موقفًا لسيارته، وهو يهتف مبتهجًا:

- ياه... أخيرًا وجدناك!

ثم أكمل:

- يقولون إن الشارقة قبل سنوات قليلة جدًا كانت تعج بمواقف لا حدود لها.

- وماذا حدث؟

- أبدًا... بعد 11 سبتمبر 2001، بدأ العرب يفدون إلى هنا، بعد أن أغلقت أبواب أوروبا وأمريكا في وجوهنا باعتبارنا إرهابيين!

قال منصور ذلك وهو يضحك، قبل أن يستمر في كلامه:

- لكن الحرب على العراق، واحتلاله هذا العام، هو الذي فجّر الأزمة هنا أكثر من أي شيء!

- كيف؟

ألقي منصور التحية على حارس العمارة الهندي «افتخار»؛ مذكرًا إياه بألا ينسى أن ينظف سيارته في الصباح، ونحن في المصعد أجنبي منصور قائلاً:

- لقد دخل العراقيون إلى هذه البلاد أفواجًا بالآلاف بعد الحرب، بعد أن فتح لهم الشيخ زايد بكرمه المعروف الأبواب من دون مشكلات!

وأنا أبذل ملابسي لاحظت أن منصور يعلّق في غرفة نومه صورة والده
الأستاذ عبد العليم وأمه خالتي عنايات، بين صور أشقائه الآخرين، ولكن
المفاجأة تمثلت لي في كونه يضع صورة صفاء سعيد الشرنوبى، في برواز
صغير على «الكوميدينو» بجوار سريره.

تجرات وسألته وأنا أنظر إلى البرواز:

- هل مازلت تذكرها يا ابن خالتي؟

بصوت مبحوح وعيون يملؤها كل حزن العالم، قال لي منصور بعد
برهة، ودمعتان تحرقان خده:

- ومن يقدر على نسيانها؟!

ثم أشار إلى قلبه الموجوع وهو يهمس بحسرة:

- إنها هنا... تسكن هنا... وإلى الأبد!

ندمت على سؤالى... ونمت!

شقيقي حسن

- ستكون ضمن العاملين في قسم الهواتف المحمولة.

باقتضاب ووجه مقطب قال لي موسى الوحش مدير المبيعات في كارفور في دبي، ثم أعطاني عقد العمل لأمهره بتوقيعي.. لم يمهلني حتى أكمل قراءته... بل أمرني قائلًا:

- ألم يخبرك أخوك بما فيه؟... ضع إمضاءك بسرعة.

نفذت أمره فورًا بارتباك ظاهر، وأخذت نسخة من عقد العمل وطويتها في جيبتي، ثم اصطحبني يقظان مشاعل، المسؤول عن قسم الهواتف المحمولة، لأتسلم عملي في الحال.

كان أخي حسن قد قدمني إلى موسى الوحش وانصرف إلى عمله، حيث استدعى هذا الأخير يقظان مشاعل الذي حضر توقيعني على العقد، ثم سألني، بعد أن هنأني، ونحن في الطريق إلى القسم:

- هل هذه أول مرة تعمل فيها بائعًا للهواتف المحمولة؟

خجلت أن أخبره أنني كنت نادلاً في مقهى شعبي بالقاهرة، أي أنني كنت أبيع أيضاً ولكن الشاي والقهوة والشيشة، لكنني تذكرت نصيحة حسن الذي ألح في تكرارها على أذني في الطريق وهي: «إنني كنت أعمل في محل لبيع الهواتف المحمولة في وسط القاهرة»!

كذبت على يقظان، وقلت له إنني ظلت عامين أمارس هذه المهنة في مصر... قلت ذلك بلغة محايدة ومن دون اكتراث، خشية أن يكتشف كذبي. لا أدري إن كان قد صدّق كلامي أم لا؟ لأنه ابتسم ولم يعلّق. كان يقظان في الثلاثين من عمره تقريباً، أشقر الوجه، ذا عينين خضراوين وأنف مستقيم ومدبب، طويلاً نسبياً مع ميل إلى النحافة، أما فمه فرفيق مثل شفاه الأطفال. كان درزياً من السويداء بسورية، وقد شرح لي منصور فيما بعد، نقلاً عن صلاح الغندور، ما معنى أن يكون المرء درزياً!

قال لي منصور إن الدروز طائفة من طوائف الشيعة، ويمكن اعتبارهم على يسار الإسلام.

- أي إنهم ليسوا مسيحيين؟

ضحك منصور من سؤالي، وهو يؤكد لي أن جهلنا، نحن المصريين، بغير السُنّة بالغ الفداحة، ثم راح يعدد الفرق التي تنضوي تحت لواء الشيعة، فهناك العلويون والاثنا عشرية أو الجعفرية، والإسماعيلية والزيديون في اليمن، والدروز وغيرهم.

- كيف عرفت ذلك؟

بأسى من كان يجهل أمرًا، أخبرني منصور أنه لم يعرف بهذه الفرق والأطياف إلا عندما جاء إلى دبي، واحتك برجال منهم قدموا من بلاد عربية مختلفة، وقد دفعه الفضول لأن يكتشف أسرار هذا العالم الإسلامي الذي نكاد نجهله تمامًا في مصر، ولا نعرف عنه إلا بعض العناوين. وقد زوّده صلاح الغندور ببعض الكتابات عن الشيعة وأطيافها.

- أين يعيش الدروز؟

أجاب منصور بصدر رحب قائلاً:

- معلوماتي تقول إنهم يتركزون في سورية ولبنان والقليل منهم في الأردن وفلسطين.

- باختصار... هل هم مسلمون حقًا؟

- طبعًا... بل يسمون أنفسهم «الموحّدون»... أي إنهم يؤمنون بالله الواحد الأحد، كما تؤمن به أنت. «قال ذلك وهو يضحك»!

حكاية الدروز هذه كانت أول ما أثار انتباهي في دبي بخصوص تعدد وتنوع الطوائف والملل والأديان، التي تضج بها هذه المدينة الفريدة، ولكن الذي شغلني أكثر في البداية هو كيف يمكن أن يعمل عدد من الناس في مكان واحد، وهم من بلدان مختلفة يتحدثون لغات ولهجات متباينة، وينتمون إلى أديان ومذاهب متعددة؟ ذلك أن يقظان مشاعل حين اصطحبني إلى مقر عملي في كارفور، قدمني إلى زملائي كما قدمهم إليّ، فكانت المفاجأة مذهشة بالنسبة إليّ، لماذا؟ لأن قسم بيع الهواتف

المحمولة يعمل به عشرة أفراد: ثلاثة من فلسطين واثنان من سوريا وفتاة مغربية ومثلها فلسطينية وشاب باكستاني وشاب لبناني، ثم أنا المصري الوحيد!

لم أشعر بترحيب كبير من قبل زملائي، ولكنني لم أتلقَ أيضًا أي مشاعر سلبية منهم، باستثناء نائل أبو شمالة الفلسطيني من غزة، الذي كان على علاقة سيئة بكل الزملاء عدا الفلسطينيين!

يحتل كارفور مساحة ضخمة جدًا في قلب «سيتي سنتر دبي» الذي تم افتتاحه مع نهاية القرن الماضي، فكان أعجوبة الأعاجيب، حيث يرتاده كل جنسيات العالم التي تضيغ بها المدينة، فما من شيء تبث عنه إلا وتجده هناك، من أول المأكولات بكل أصنافها، والهدايا والملابس والمجوهرات والتحف، حتى المكيافات والأجهزة الكهربائية، وطعام القطط والكلاب!

ما من شيء يخطر على بالك، أو لا يخطر، إلا وله مكان في «سيتي سنتر دبي».

الحق أقول لكم: لقد خطفني المكان بنظافته واتساعه وازدحامه من اللحظة الأولى، فشعرت بحجم ضالتي، وأنا احتلّ موقعي في قسم بيع الهواتف المحمولة!

في اليوم الأول ظللت أراقب زملائي وهم يعملون، اقتربت قليلًا من الفلسطيني عامر صوالحة، فشعرت بأنه يتسم لي ابتسامة صفراء، لا تحمل أي تشجيع على أن أظل بجواره، فانصرفت إلى السوري زاهر تقي الدين،

فرحب بي في البداية، وأطلعني على بعض أنواع الموبايلات الموجودة وكم سعرها، لكنه سرعان ما اندمج في حوار طويل مع الفتاة الفلبينية، فأحسست بأنني إلى المنبوذين أقرب!

في الثانية ظهرًا جاءني أخي حسن واصطحبني لتناول الغداء في قاعة المطاعم. لم يسألني ماذا أريد، بل طلب لي وجبة من «كنتاكي» مثلما طلب لنفسه. كانت قاعة الطعام مزدحمة جدًا، حيث اصطفت مطاعم هندية وإيطالية ولبنانية وأمريكية بجوار بعضها في نصف دائرة تقريبًا، بينما احتلت المقاعد والمناضد المساحة الضخمة أمامها.

وقفت أتأمل المشهد العام، فرأيت نساء أجنبيات شبه عاريات يبحثن عن طاولة يمكن الجلوس عليها وسط ضجيج وصراخ أطفال هنود متشبثين بأذيال فساتين أمهاتهن الملونة!

اخترقت خياشيمي رائحة طعام لم أعرفها، لكن يبدو أنه لذيذ حيث تتطاير أبخرة الدخان من الصحون، التي يحملها رجل روسي غالبًا وهو واقف حائر لا يعرف أين يجلس. أزعجتني لغة رنانة عصيبة يتحدث بها اثنان من الهنود بجوارتي. ارتطم طفل عربي وهو يجري بعامل التنظيف، حيث سقطت من يديه صينية كان يحملها، فانكفأ الطفل على وجهه وراح يبكي!

أثارني مؤخرة فتاة تسير نحو المطعم اللبناني بحركة راقصة، فرشقتها بعيني حتى اختفت في الزحام.

- هيا...

صرخ أخي في وجهي وهو يحمل صينية الطعام، ثم أسرع الخطى نحو منضدة يستعد أصحابها للانصراف. جلسنا وشرعت في التهام ما أمامي. كنت جائعًا جدًا، وكان طعم دجاج «كتناكي» يثير لعابي، لكن حسن قضى على وجبته في زمن قياسي، حيث كان يضع قطعة الدجاج مع الخبز مع أصابع البطاطس في فمه دفعة واحدة، ثم يملأ معدته بجرعة من البيسي. لم أكن أتخيل أن يوجد هناك أحد قادر على التهام الطعام بأسرع مني، لكن حسن فاقتني في قدرته، حتى أنه لم ينتبه إلى بقايا الطعام التي تناثرت حول فمه وشاربه.

كان حسن في السابعة والثلاثين من عمره، طويلًا نسبيًا، ذا شعر خشن كثيف وعينين ضيقتين، بشرته الخمرية الفاتحة خففت من جهامة ملامحه، التي زادت بعد أن ترك شاربه ينمو حتى غطى على شفته العليا.

لاحظت أن بقعة الصلاة في جبهته قد اتسعت وازداد لونها قتامة عما قبل!

بعد أن أفرغ آخر محتويات البيسي في فمه تجشأ بصورة مقرزة، ثم أشعل سيجارته، وهو يرنو إليّ مآدًا سبابته في وجهي قائلاً:

- أنصت جيدًا... لقد دفعت رشوة للمدير موسى الوحش حتى يوفر لك عقد العمل.

- أعرف... لقد أخبرتني بذلك من قبل.

- اسكت حتى أنتهي من كلامي.

ثم همس بنبرة حادة وقاطعة:

- وعليه، فإنك مطالب بأن تمنحني ثلث راتبك لمدة عام.

لم أعلق، ولم يزد، بل أطفأ سيجارته، ثم قام وتركني، وبعد أن سار أربع خطوات نظر إلى الخلف وأمرني بفضافة:

- لا تتأخر عن عملك، وقت الراحة لا يزيد على نصف ساعة.

تأملت بقايا سيجارته المطفأة، واكتشفت أنه لم يناولني واحدة من سجائره، على الرغم من علمه أنني أصبحت ضمن طائفة المدخنين منذ زمن!

مرقت أمامي امرأة سودانية تفوح منها رائحة أنثوية مميزة فرنوت إليها، فابتسمت لي بأسنانها ناصعة البياض، فغضضت من بصري مثبتاً نظري نحو رماد سيجارة أخي في المطفأة!

في مساء تلك الليلة مر منصور ابن خالتي على كارفور، واصطحبني معه لتناول العشاء، ولما شعر بأنني مهموم، حاول أن يهوّن عليّ بأن وضع في كاسيت السيارة شريطاً لعمر ودياب الذي أحبه، كما يعرف، لكنني لم أستجب، فسألني ما رأيك لو نتناول طعاماً مصرياً خالصاً؟... نظرت إليه باندهاش متسائلاً:

- هل يوجد مطعم مصري هنا؟

- بالطبع.

ثم أردف:

- في دبي يوجد أكثر من 180 جنسية، ولكل جنسية مطاعمها وثيابها وأماكن ترفيهها... إلخ.

بصراحة كنت جائعًا، فوجبة «كتناكي» واحدة في النهار لا تكفي لشاب مثلي، خاصة وأن الوقوف طوال عشر ساعات في العمل يستهلك مني البدن والأعصاب.

أمام مطعم «فرحات» في الشارقة أوقف منصور سيارته، كان اسم المطعم مضاء بلون أحمر، لكن حرف الرء كان مطفأ، وقد لاحظ منصور تأملي لواجهة المطعم، فابتسم قائلاً بأسى:

- للأسف، المصريون هنا لا يجيدون فن تسويق أنفسهم.

لم أفهم ماذا يقصد، فأومأت بإشارة استفهام، فتوقف منصور أمام مدخل المطعم رافعاً رأسه إلى اللافتة هاتفاً، وهو يشير بسبابته:

- منذ شهر وحرف الرء هذا مطفأ، ولم يحاول أصحاب المطعم المصريون إصلاحه.

ولأنني لم أُنبدِ اهتماماً يليق بحماس منصور وهو يتحدث، فقد لكزني في كتفي قائلاً:

- لا يوجد محل واحد في الإمارات، به خلل في لافتته أبداً.

ثم بطريقة مسرحية مدّ منصور ذراعه بحركة نصف دائرية، مشيراً إلى المحالّ التي أمامنا وهو يصيح:

- انظر جيداً... كل اللافتات كاملة الحروف ومضاء بصورة براقّة.

فور دخولنا المطعم، اخترقت أذني أغنية صاحبة لمطرب لم أستطع تحديد اسمه، تنطلق من تلفزيون وضع في أقصى يسار صالة الطعام... أقبل عدد من «الجراسين» ليصافحوا منصور بحرارة وبعضهم احتضنه وقبله، وقد عاملهم ابن خالتي بودّ شديد، وهو ينادي على كل واحد منهم باسمه.

بدا لي المطعم مكتظًا ومزدحمًا، يظلمه صخب مصري لا تخطؤه الأذن... قاذني منصور نحو منضدة صغيرة في الزاوية، لم يكن يجلس أحد عليها، لكن بقايا الصحون والطعام التي تركها الزبائن السابقون مازالت كما هي.

- أرايت.. لم يتقدم أحد لتنظيف المنضدة.

قال لي منصور ذلك وهو مبتسّس، مؤكدًا لي أنه من المحال أن تجد مثل هذه الأمور في مطعم لبناني أو سوري أو أجنبي، فالخدمة هناك على خير ما يرام، بينما نحن هنا نعمل بثقل، ومن دون تقدير يليق بفضيلة إتقان العمل.

- ربما لا يوجد عدد كاف من العاملين هنا.

- بالعكس... إنهم أكثر مما هو مطلوب.

علّق منصور على كلامي بهذه العبارة، ثم أضاف:

- هل تعلم أن معظم العاملين هنا، وكلهم مصريون، يحملون شهادات عليا؟

- كيف؟

- لم يجدوا عملاً في مصر، فقبلوا بأي عمل هنا.

تابع منصور كلامه موضحاً لي أن هؤلاء الشباب يتتابهم شعور متناقض، فهم يمارسون مهنة لم يتعلموها ولم يعرفوا فنونها، وهي خدمة الزبائن، بل، والأدهى، أن الواحد من هؤلاء يظن أنها مهنة منحطة، لا تليق بما درسه وتعلمه في الجامعة، سواء كانت تجارة أو أدباً أو حقوفاً.

لذا، أكد لي منصور، يكابدون هنا همماً نفسياً دائماً، وهم يخدمون كل من هب ودب كما يتخيلون!

- ورواتبهم؟

- قليلة لا ريب، لكنها أفضل كثيراً من أن يظلوا أسرى البطالة في مصر.

انحرفت بعيني نحو جدران المطعم، فشاهدت صوراً مرسومة لعبد الوهاب وأم كلثوم وعبد الحليم حافظ ونجيب محفوظ وفاتن حمامة وعمر الشريف وأحمد زويل فابتسمت، لكن منصور الذي ظل يلاحق نظراتي أخبرني أن هذه الصور مرسومة بأسلوب سوقي رديء بكل أسف!

لم أفهم ماذا يقصد بالضبط، لكنه واصل كلامه قائلاً:

- إن الأستاذ صلاح الغندور هو الذي اقترح عليهم أن يزينوا جدران المطعم بصور هؤلاء العظماء.

أقبل أحد «الجراسين» معتذراً، ثم أخذ ينظف المنضدة، وهو يسألنا ماذا نريد أن نأكل.

طلبنا بامية وأرزًا ولحمًا وباذنجان مخللاً، التهمت الطعام بسرعة كعادتي؛ إذ كان شهياً ولذيذاً، لكن قبل أن يطلب منصور ما يتيسر من الحلوى، سألني فجأة:

- ما سبب أحزانك اليوم؟

شرحت له ما حدث مع أخي حسن، وكيف يريد أن يستولي على ثلث راتبي لمدة عام.. كانت جمرات الغل تتقد في صدري وأنا أتحدث، لدرجة أن دموعاً هطلت من عيني من دون أن أدري؛ الأمر الذي دفع منصور لأن يناولني بعض المناديل الورقية!

- هوّن عليك... هل أخبرك بمقدار الرشوة التي أخذها مديركم الفلسطيني؟

- لا..

- وماذا كان ردُّك عليه؟

- لم أنطق بكلمة.

في طريق العودة إلى المنزل، جاء صوت أم كلثوم من إذاعة الأغاني صادحاً «فات الميعاد»، بينما اعتصم منصور بمقود السيارة لاعتنا الزحام الذي اعترضنا عند «الميجا مول». كان بادياً أنه يرهف السمع لأداء كوكب الشرق، فلم يحاول أن يجرح شذوها بالحديث عن مشكلتي مع أخي. أنا أيضاً لم أسع للكلام؛ فقد كنت أعرف أن إحساسه بأم كلثوم تغير عندما تعرف إلى بدر المنيأوي، حيث لقنه كيفية تذوق فن سيدة الغناء، فأنصت

له منصور باهتمام، لدرجة أنهما كانا يحددان مواعيد خاصة للاستماع إليها فقط، ودراسة أغانيها وأدائها المعجز كما كان يردد دومًا!

في المنزل أعدّ لنا منصور كوبين من الشاي، ثم أشعل سيجارة وهو يمدد قدميه على الطاولة التي تنتصف الصالة، ثم قال:

- لا حل لك سوى الرضوخ لأخيك وإعطائه ثلث راتبك.

- ولكن هذا ظلم.

- هل تملك حلًّا آخر؟

لم أعلق، فلم أكن أملك أي حل آخر، وكنت أعلم ذلك علم اليقين، وكان منصور أيضًا يدرك ذلك تمامًا، لكنه أهداني عبارة مطمئنة قبل أن يندس في سريره لينام!

- لا تحزن... لكل ظلم نهاية!

أمجد صفوان

قلت لنفسي: إذا كان حسن سيخطف من راتبي الثلث، فلن يبقى لي سوى 1800 درهم فقط، سأرسل منها لأبي مئة دولار أي نحو 370 درهماً، وعليّ أن أعيش بما تبقى، بل وأوفر منه.

أعرف جيداً أنني لن أدفع إيجاراً ولن تحرقني فاتورة الكهرباء والماء بقيمتها، لأن شركة كارفور منحتنا سكنًا مجانيًا، كما ستتحمل دفع فواتير المياه والكهرباء، ولكن ذلك لا يعني أن المبلغ المتبقي معي شهرًا سيلبي حاجاتي كما أريد!

فالمدينة مرتفعة الأسعار في كل شيء، وإذا استطعت مقاومة المغريات هنا، وهي بلا حدود، فكيف سأواجه ضغط العمل ورتابته من دون ترطيب الوجدان قليلًا بلذة الشراء والاقتناء؟

شارع المرقبات الذي تتوسطه البناية، التي أسكن فيها يعد من أهم شوارع دبي القديمة؛ إذ إن خور دبي قد شطر المدينة إلى نصفين: المنطقة القديمة؛ ويطلق عليها اسم «ديرة»، أما ما بُني بعد الخور، فيقال له «بر دبي».

كنت أستثقل نطق هذه الكلمات الخاصة بالمدينة وأحيائها فور وصولي، ثم تعودتها بعد ذلك، بل أحببت إيقاعها ورنينها، مثل جسر المكتوم، وجسر القرهود ينطقون القاف جيماً، فيصبح الجرهود، ونفق «الشندغة»، وشارع الرقة، ومناطق أبوهيل والمنخول والقصيص والعوير... إلخ، هذه التسميات التي ألفتها بمرور الأيام.

15 شاباً يقطنون معي في الشقة، حيث أعيش مع أربعة مصريين في غرفتي، وهناك أربعة سوريون، واثنان لبنانيان يحتلون الغرفة المجاورة، بينما يقطن الغرفة الثالثة والأخيرة فلسطينيان وأردني ومغربي وتونسي! تلخصت الصدامات الخفيفة بيننا جميعاً حول مواعيد استخدام الغسالتين، وكذلك نظافة المطبخ والحمام، ولكنها لم تصل إلى مشكلات ضخمة.

لم أمكث مع منصور ابن خالتي في شقته أكثر من أسبوع، ثم انتقلت بحقيبة ملابسي إلى هذه الشقة الواسعة؛ حين أخبرني المدير أن هناك مكاناً شاغراً ينتظرني مع زملائي. في البداية أرعبتني فكرة أنني سأقيم مع خمسة عشر شخصاً في شقة واحدة، ولكن حين رأيت اتساع الشقة، وأنها مزودة بحمامين ومطبخ واسع وغسالتين أوتوماتيكيتين، زالت مخاوفي، وانكمش اضطرابي بصورة لافتة.

أخي حسن يعيش مع سبعة أفراد فقط في شقة من غرفتين، وهي ميزة لا ريب تناسب وضعه الوظيفي، فهو يعمل الآن Supervisor، أي ملاحظ أو مفتش على قسم من الأقسام التي يضج بها كارفور، بينما أنا مازلت موظفاً صغيراً احتل مكانه قبل أقل من شهر واحد فقط!

أمجد صفوان هو أكبر مشكلة نعانيتها في السكن، أو بالتحديد في غرفتي، فهو من عمري تقريبًا، لكنه ولد في مصر الجديدة لأب يشغل منصبًا مرموقًا في وزارة التموين. ليس له أشقاء، ويبدو أن والدته - مدرسة الكيمياء - بالغت في تدليله لدرجة أنه لا يجيد صنع أي شيء لنفسه؛ فإذا حاول أن يفتح علبة البيبسي، معشوقه الأول الذي لم يتوقف عن تناوله حتى ونحن في السجن، اضطرب وارباك حتى تسقط من يده العلبة فيسيل البيبسي على ملابسه وفوق الأرض، وإذا تحرك في الغرفة هام على وجهه، فيصطدم بالسرير أو المنضدة أو حتى الباب!... ومع ذلك، فهو مدجج بلسان لا يتوقف عن إطلاق رصاصات الكلام، ويتمتع بقدره خارقة على الجدال، حيث لا يسمح لأحد منا أبدًا أن يخرج من مناقشته منتصرًا؛ فدائمًا أبدًا يختلف مع الجميع، ودائمًا أبدًا يصبر إصرار الرهبان على إثبات أن آراءه هي الأصوب!... ودائمًا أبدًا يتقن فن المراوغة في الحديث، فيضرب الأمثال، وتستغرقه التفاصيل من دون هوادة حتى يصاب المتحدث معه بالضجر، فينسحب قبل أن تنتهي الجولة، حتى لو بدا أنه خسر المناقشة أمامه.

كل هذا يهون بجانب هوسه اللامعقول بهيفاء وهبي، حيث راح يعلق صورًا عديدة لها، وبزوايا مختلفة، على جدران الغرفة وحول سريره، بل وفوق شاشة تليفونه المحمول الذي ضبطه بحيث يطلق مقطعًا من إحدى أغنياتها إذا اتصل به أحد! لدرجة أن أشرف نادر وبَّخه أكثر من مرة على هذا الافتتان اللامنطقي بمطربة، وهو في هذا العمر:

- إن المراهقين فقط يا أمجد، هم من يصنعون صنيعك!

كل هذا يهون أيضًا أمام قذارته الفائقة التي أزعجتني كثيرًا ونحن مكومان داخل زنزانة في سجن دبي بسبب إيرينا الروسية، فأمجد صفوان ابن مصر الجديدة يكره الاستحمام، ولا يأنف من أن يظل مرتديًا قميصه وملابسه الداخلية لمدة أسبوع كامل، ولا يخجل من أن رائحة جوربه التنتة تسبب له مشكلات كثيرة، كادت تودي مرة بحياته!

حدث هذا بعد إقامتي في الشقة بأسبوع واحد فقط عندما عاد محسن عبد الغفور، زميلنا في الغرفة نفسها، مخمورًا ليلة الخميس. وما إن دخل الغرفة حتى استنفزته الرائحة التنتة لجورب أمجد صفوان، فهتف بصوت عالٍ:

- ابن المضاجعة... ألا يستحي؟

كنت في الغرفة وحيدًا، فكّرت قليلًا أن أخفف من حدّته، ولكن قبل أن أجد العبارة المناسبة، صرخ في وجهي قائلاً:

- والله سأقتله!

ثم قفز نحو المطبخ وأحضر سكينًا كبيرًا وأخفاه تحت وسادته، بعد أن ألقى الجورب القذر من النافذة، وظل منتظرًا عودة «التن» كما كان يسميه!

كانت رائحة الخمر طافحة من فم محسن عبد الغفور، فلم أعرف ماذا أفعل؟ نظرت إليه باستغراب لا يخلو من القلق من الخطوة التالية... تأملني وهو يشعل سيجارة قبل أن يقول:

- أنت جديد هنا... ولا تعرف شيئاً... لقد حذرته عشرات المرات من ملابسه القذرة، التي يتركها هنا وهناك لتسّم جو الغرفة.

- ولكن..

- إنه حيوان لا يحسّ، فأنا أعاني مرض الحساسية في أنفي، وهذه التتانة تثير غضبي إلى أقصى حد!

لم أعلّق، وحاولت أن أتخيل شكل المعركة التي ستحدث بين لحظة وأخرى، فأمجد صفوان شاب طويل ذو عضلات لا بأس بها، بينما محسن عبد الغفور متوسط الطول، ممتلئ بصورة لا تليق بعمره الثلاثين، ولكنه قادم من سوهاج ومزوّد بلكنة صعيدية وغضب دائم ضد ما يراه غير مناسب، أو جارحاً لكرامته!.. حتى أن شاربه الكثيف منح ملامحه قسوة تؤكد أنه سينفذ تهديده، ويقتل أمجد الذي يقبع تحت ملامح رقيقة وبشرة ناعمة أنثوية!

لم أسعَ إلى الحيلولة دون نشوب العراك المتوقع، ربما خوفاً من الدخول في مواجهات لست قادراً عليها، وربما تحرقني رغبة لأرى صراعاً عنيفاً يعوّض انسحاقني الدائم وخذلاني في الحياة. كان من الممكن أن أطلب معاونة زملائنا في الغرف الأخرى لوقف نزيف الدم المنتظر، ولكني لم أفعل.. أو أن أستخرج المصحف الشريف وأضعه أمام محسن عسى أن يرتدع من كلام الله، وهو المؤمن الذي يحافظ على أداء صلاة الفجر كل يوم، لكنه يبتهج بتناول الخمر كل خميس، قائلاً لنا إن الله سيغفر له هذه المعصية مادام مواظباً على الصلاة!.. ولكني لم أفعل أيضاً. وهكذا ظلت

مترقبًا نشوب الصدام، وأنا أسير عدة انفعالات: الخوف والتوتر والبهجة والقلق!

حين تناثرت في فضاء الغرفة الألفاظ البذيئة، وهي مختلطة برذاذ دم أمجد ومحسن، هرع بقية الزملاء من الغرفتين الآخرين ليحولوا بينهما، وبالفعل نجحوا في اصطحاب أمجد إلى غرفتهم، بينما أمسك الباقي بمحسن وألزمه المكوث في غرفته. ولكن العجيب أن محسن لم يحاول قط أن يخرج السكين من تحت وسادته، بل اكتفى بلكمات سريعة وعنيفة في وجه أمجد، الذي رد شتائم محسن فور دخوله بشتائم أقذع منها.. وهكذا في لحظة اشتبك الخصمان بالأيدي والأرجل في البداية، ثم قذف كل منهما الآخر بكل ما تطوله يده من مطفأة سجائر، وكوب زجاج، ووسائل، حتى تم إيقاف العراك بقوة على أيدي زملائنا السوريين والفلسطينيين واللبنانيين!

لم يكتفِ مديرنا موسى الوحش بخصم ثلاثة أيام لكل منهما، بل قام بنقل محسن عبد الغفور من الشقة إلى شقة أخرى، ثم دعانا جميعًا، نحن المصريون فقط، إلى مكتبه وهو يصرخ في وجهنا منذرًا:

- إذا حدث هذا مرة أخرى، فسأقوم بإنهاء خدماتكم على الفور!

لم يعرف أحد أبدًا من وشى بهما، لأن كلاً منهما - محسن و أمجد - أقسم أمام أشرف نادر - زميلنا الرابع في الغرفة وأكثرنا احترامًا - أنه لم يتحدث في الأمر مع المدير... لكن أشرف أكد لي أن أحد الفلسطينيين اللذين يسكنان معنا هو من تبرع بإبلاغ المدير!

لم يكن أشرف نادر ينطق عن الهوى، بل كان يدرك تمامًا أن كل ما يدور في الشقة ينقل إلى موسى الوحش عن طريق الفلسطينيين تحديدًا؛ فهو يقطن هذه الشقة منذ عامين، أي إنه أقدم المصريين هنا، وقد لاحظ بذكائه اللافت أن أخبار الشقة وصراعات ساكنيها من كل الجنسيات توضع كل صباح على مكتب المدير في كارفور!

- هذا أخبث رجل يمكن أن تقابله!

هكذا قال لي أشرف نادر، وهو يستعرض ألعيب موسى الوحش وتاريخه المزري، كما وصفه.

كان أشرف نادر يكبرني بعامين، وقد أتى إلى دبي بحثًا عن الرزق بعد أن أنهكت القاهرة وقسوتها.
- أنا أعول أربعة أشقاء وأمي.

في لحظة أسي ونحن ندخن الشيشة على مقهى «أم الدنيا» في الممزر، شرح لي قصة حياته وتاريخه مع الهموم، منذ فقد أباه وهو في السنة النهائية بكلية الخدمة الاجتماعية! بشرته القمحية وعيناه الغائرتان، منحته خصلاً درامية لبطل إغريقي قادم من كهوف الأساطير.

كان أشرف نادر هو الوحيد من زملائي في السكن الذي قدمته إلى منصور ابن خالتي، ثم الأستاذ صلاح الغندور فيما بعد، وقد احتل الرجل مكانًا مرموقًا في قلب كل منهما، بل وسعى الأستاذ صلاح إلى معاونته في توفير وظيفة أرقى تناسب مؤهلاته العلمية. وبالفعل استطاع أشرف نادر أن

ينضم إلى هيئة التدريس في وزارة التربية والتعليم في دبي، باعتباره مدرسًا للتربية الخاصة، بناء على دعم قوي من الأستاذ صلاح.

لكن العجيب أنه لم ينتظر أكثر من عام واحد فقط، في وظيفته الجديدة حتى أقدم على الزواج بابنة خالته، التي أحبها بشغف منذ كانت تبكي أمامه وهي صبية، حين تعجز عن حل مسائل الجبر في المدرسة الإعدادية!

9

الأستاذ صلاح الغندور

اليوم الذي قابلت فيه الأستاذ صلاح الغندور أول مرة سيظل محفوراً فوق جدران ذاكرتي إلى الأبد؛ لأنه الرجل الوحيد الذي استطاع أن يحرر ذاتي من أسر الذل، ويطلق من روحي فراشات الحرية!

في مساء خريفي بديع، وبالتحديد في 15 يناير 2004، وعلى مقهى «ذكريات» في دبي، صافحت الأستاذ صلاح الغندور للمرة الأولى في حياتي. كان منصور ابن خالتي قد مرّ علي في مقر عملي بكارفور في مساء ذلك اليوم، وقد بادرنى فور أن انتهيت من كتابة فاتورة بيع أحد الهواتف المحمولة:

- هل تناولت عشاءك؟

- لا

- إذن ، نحن مدعوان على العشاء!

وأنا أرتدي ملابسني بعد أن نزعنت ثياب العمل، سألته:

- من صاحب الدعوة؟

- الأستاذ صلاح الغندور.

في مقهى «ذكريات» استقبلنا الرجل بابتسامة ودود وسؤال فوري:

- هل وجدت موقفًا لسيارتك بسهولة؟

- أبدأ، لقد ظللت أدور حول المكان ربع ساعة من دون جدوى... لذا
أعتذر عن التأخير.

نطق منصور بهذه العبارة وهو يقدمني إلى الأستاذ صلاح، الذي هتف
قائلاً:

- هون عليك... لا داعي للاعتذار.

بدا لي أن صلاح الغندور يعرفني جيداً، فقد صافحني بحرارة صائحاً:

- أهلاً أهلاً بابن الخالة العزيز.

ثم أردف مبتسماً:

- لقد حكى لي منصور عن علاقتكما وصادقتكما كثيراً.

اكتفيت بترحيب خجول ومضطرب، حتى أنني ارتبكت وأنا أجلس
على المقعد، فكدت أسقط على الأرض، لولا أن قبض منصور على يدي
بقوة.

كان صلاح الغندور قد أكمل عامه الثاني والأربعين في نوفمبر الماضي،
ومع ذلك لاح لي أنه أصغر من عمره بنحو سبع سنوات؛ فهو طويل يتمتع
برشاقة ملحوظة، خمري البشرة، ذو عينين سوداوين عميقتين، ينطلق
منهما بريق ذكاء استثنائي! شعره الأسود الناعم لا يعود إلى كرم الطبيعة،

بل إلى الصبغة التي عرفت طريقها إليه، قبل عشرة أعوام، بعد أن اشتعل رأسه شيبًا، كما قال لي بعد ذلك، وأنا أنثر أمامه بذور مأساتي التاريخية.

لفتت انتباهي أناقته الشديدة وطريقته الرقيقة في تناول الشيشة، فضلًا عن حضوره الطاعني في المكان، لدرجة أنه سأل الجرسون إن كان بالإمكان وضع أغنية لأم كلثوم، بدلًا من الضجيج الذي ينطلق من جهاز الكاسيت، كما قال، فإذا بالجرسون يستجيب على الفور قائلاً له:

«أنت تأمر يا أستاذ صلاح».

- ما رأيك في تناول سندوتشات «شاورمة» تركي؟

فاجأني بالسؤال، لأنني كنت شاردًا أتأمل سلوك الرجل، الذي أحبه منصور ابن خالتي كثيرًا وحدثني عنه أكثر!

ترددت قليلاً قبل أن أتمتم وأهز رأسي بالإيجاب، في الوقت الذي أسعفني فيه منصور قائلاً:

- ما ألد «الشاورمة» التركي... هل يستطيع أن يرفض؟!

قال ذلك وهو يضحك، ويكاد يضع سبابته في عيني!

أخرج الأستاذ صلاح ورقة بمئة درهم من محفظته، وطلب من جرسون المقهى أن يبتاع لنا سبعة سندوتشات «شاورمة» تركي من محل استانبول المجاور.

التهمت الساندوتشات بسرعة، ثم تناولت البيسي بهدوء، وأنا أستمتع بالشيشة. لاحظت أن صلاح الغندور لا يشرب المياه الغازية، بل طلب

شايًا بعد أن ينتهي من الطعام، حيث تناول ساندويتش واحدًا فقط، بينما قضينا أنا ومنصور على الستة الباقية بالتساوي.. كان يأكل ببطء نسبيًا، وينصت باهتمام إلى التقرير الشفهي، الذي كان يقدمه منصور عن التحقيق الصحفي الذي كلفه به، وكان حول علاقة المثقف بالسلطة. تحدث منصور باستفاضة ذاكراً أسماء الشخصيات التي تناولها التحقيق، وكيف أن بعضهم رفض أن يتحدث في التليفون، وأصر على أن يصوغ رأيه كتابة ويرسله عن طريق الفاكس.

لم يحاول الأستاذ صلاح مقاطعة منصور، بل كان يهز رأسه بالموافقة، وهو يهمس بالإيجاب بين الحين والآخر، فلما انتهى ابن خالتي من تقديم تقريره، راح الأستاذ صلاح يوجه له عدة أسئلة، مصحوبة بإرشادات بدت لي مهمة من بريق الإعجاب، الذي كان ينطلق من عيني منصور.

- هذه الجلسة لا تحسب، أنتما مدعوان في منزلي الخميس المقبل.

قالها الأستاذ صلاح وهو يدفع الحساب، ويبدو أنه ترك «بقشيشًا» سخياً، لأن لسان الجرسون انهمر عليه بدعوات وتشكرات لا حدود لها!

أريد أن أقول لكم، إنه إذا كان اللقاء الأول بالأستاذ صلاح في مقهى «ذكريات» قد بهرني وجعلني من المغرمين به، فإن اللقاء الثاني الذي تم في منزله أشعرنى بفخر لا مثيل له، لأنني أعرف هذا الرجل الأسر!

كانت هذه أول مرة أدخل فيها إلى بيت عامر بأسرة مصرية في دبي، أو حتى غير مصرية، حيث قدمني الأستاذ صلاح إلى زوجته، التي استقبلتنا بملابس زاهية وابتسامة ليلية تشبه رائحة الفواكه.

كانت العمارة - أو البناية كما يقولون هنا - تقع في الشارع الرئيسي في حي القصيص، الذي يبعد عن قلب دبي بنحو خمسة كيلومترات فقط جهة الشمال الشرقي. منذ اللحظة الأولى، أدهشتني العمارة بفخامتها ونظافتها وتصميمها الحديث، حيث الزجاج الأخضر يحتل واجهتها الأمامية. أما شقة الأستاذ صلاح فهي في الطابق الثالث، ومكونة من ثلاث غرف واسعة بصورة لافتة، وحجرة استقبال ضخمة، وثلاثة حمامات، ومطبخ فسيح!

أول ما أثار تعجبي هو مئات الكتب، التي رُصّت بإتقان فوق مكتبة، ذات تصميم بديع وفريد أحاطت بنا في حجرة الاستقبال! إضافة إلى تلفزيون ضخم وجهاز تسجيل حديث استقر بين أرفف المكتبة وخشبها! أما جدران الشقة، فقد ازدانت بصورة كبيرة لطفلين يتسمان، ولوحات بعضها بديع وبعضها لم أفهمه، رسمها فنانون مصريون وعرب وأجانب، كما شرح لنا بفخر صاحب المنزل!

باختصار، وكما أوضح لي منصور، فإن تصميم الشقة من الداخل، كان يتكئ على المزاجية المدهشة بين الطراز العربي والأوروبي خاصة الفرنسي والإيطالي.

- الدكتورة منى رشاد.. زوجتي وأستاذة الأدب الإنجليزي في جامعة زايد.

نعم.. رأيت عصفور الغرام يرفرف حول جبين الأستاذ صلاح، وهو يقدم لنا زوجته التي كانت ترتدي فستاناً أحمر أنيقاً، ومزداناً بزهور صغيرة بيضاء.

جلست سيدة المنزل بيننا بثقة امرأة ناجحة وبصورة طبيعية، حيث سألتني عدة أسئلة تقليدية تتفق مع هذه الزيارة الأولى من نوع: منذ متى أعمل في دبي؟ وما طبيعة عملي هنا؟ وعلى أي شهادة جامعية تحصلت؟ إلى آخره...

كانت إجاباتي مقتضبة وبصوت مهموس، وعيوني من فرط الخجل تصافح السجادة الجميلة، التي تتوسط أرضية الصالون! ثم استأذنت السيدة في الانصراف لتشرف على إعداد طعام العشاء!

تبين لي بوضوح أنها ليست المرة الأولى التي ترى فيها منصور ابن خالتي، فقد تعاملت معه بتلقائية، وامتدحت الحوار الذي أجراه مؤخراً مع الشاعر السوري المشهور محمد الماغوط.

- بعد نحو عشر دقائق ستعرض قناة art أقدم فيلم عربي في حوزتنا.

هكذا قال الأستاذ صلاح وهو ينظر في ساعته، فهبَّ منصور متسائلاً:

- ما هو؟

- إنه «الوردة البيضاء» لعبد الوهاب. وقد عرض لأول مرة في دور السينما عام 1933.

تأملت حماس الأستاذ صلاح وهو ينطق بهذه العبارة، وتعجبت من لهفة منصور على معرفة اسم الفيلم، وتساءلت بيني وبين نفسي: «أما زال هناك من يهتم بأفلام الأبيض والأسود؟ وهل يوجد إنسان الآن يستمع إلى عبد الوهاب؟! إن هذه الأفلام بطيئة الإيقاع وريدئة التمثيل!»

لكن يبدو أن شرودي واندهاشي وربما امتعاضي، الذي بدا على ملامحي، لفت انتباه الأستاذ صلاح الذي سارع يسألني:

- ألا تحب عبدالوهاب؟

أجبت بسرعة تعجبت أنا شخصيًا منها:

- لا... ولا الأفلام الأبيض والأسود!

لم ينزعج الأستاذ صلاح من إجابتي التي شعرت بأنها كانت خشنة، فندمت، بل ابتسم وراح يشرح لنا بهدوء سرّ اهتمامه بهذه الأفلام القديمة، حيث قال إن هذه الأفلام هي مرآة عصر ولّى وانقضى، وهي وثيقة نادرة لمجتمع كان قائمًا وراسخًا، «أنا لا أشاهد قصة أو أتابع حبكة، عندما أطلع هذه الأفلام، فأنا أعرف مدى سذاجة صناعة السينما قديمًا، بل أتأمل كيف كان الناس يتحدثون، وما طبيعة الملابس التي يرتدون وموضتها؟ وكيف كان وضع المرأة المصرية في المجتمع آنذاك؟! سواء كانت تنتمي إلى الطبقة الأرستقراطية، أم كانت من الفقراء! هل تعلمان مثلاً أنه لا تكاد توجد كلمة إنجليزية واحدة، ينطق بها ممثل أو ممثلة في أفلام ما قبل 1952، بينما تحتشد تلك الأفلام بمفردات وتعبيرات فرنسية عديدة؟».

- كيف؟

تساءل منصور مندهشًا؟

وقبل أن يجيب الأستاذ صلاح، التفت بعنقه نحو اليسار ليتابع دخول الخادمة الفلبينية وهي تحمل صينية عليها عصير البرتقال.. تأملت الخادمة بطرف عيني، ورأيت وجهها الذي يكتسي ملامح فلبينية، وحملت للحظة

أن أمسك نهديها البارزين بيدي وأعبت بهما، وعندما استدارت للانصراف،
أربكتني مؤخرتها المكتنزة، وحفظتها في ذاكرتي ذخراً لأحلام الليل وقسوة
الوحدة!

- هل أنت معنا؟

أفقت من مطاردة نهدي الخادمة ومؤخرتها على سؤال منصور، فأجبت
فوراً:

- نعم... نعم!

كان الأستاذ صلاح يشرح لنا لماذا لم يستخدم المصريون قبل يوليو
1952 مفردات إنجليزية في أفلامهم، لأنها كانت لغة المحتل، كما قال،
لذا كانت الطبقة الراقية تنفر من التعامل بها، وتميل نحو استعمال الفرنسية،
ولعل هذا من النتائج الثقافية لثورة 1919.

في هذه اللحظة دخلت الدكتورة منى رشاد وهي تقول، كأنها تكمل
آراء زوجها:

- لا تنسوا أن هذه الأفلام توضح أن المرأة المصرية كانت تتصرف بحرية
وثقة، فلا حجاب ولا انغلاق ولا خوف من الرجال.

- حقاً يا منى... لقد وصل المجتمع المصري إلى درجة مخيفة من
الانحطاط في الأعوام الأخيرة، بكل أسف، وأول ضحاياه المرأة!

كان الأسى يلون كلمات الأستاذ صلاح الأخيرة، لكنه واصل حديثه عن
الأفلام القديمة شارحاً سر افتتانه بها؛ فالقاهرة - آنذاك - كانت مدينة ساحرة

وهادئة ونظيفة كما نلاحظها في تلك الأفلام، تحافظ على خضرتها وترعاها، فالحدائق كثيرة والأشجار تنتشر على جوانب الشوارع، والتماثيل تتوسط الميادين، كل هذا نلاحظه في أفلام الأربعينيات والخمسينيات والستينيات، أما الآن، فالصورة أسوأ، والوضع رديء على كافة المستويات؛ فالقاهرة صارت مدينة أشبه بامرأة عجوز لا تزيد لها مساحيق التجميل إلا فجاجة وسخرية!

- والأسعار هل نسيت؟

سألت الدكتورة منى وهي تضحك، فبادلها زوجها ضحكاً بضحك، وهو يقول:

- تلك قصة أخرى، فأسعار الطعام والملابس والرواتب والإيجارات إلخ... والتي نراها في الأفلام القديمة ليس لها علاقة بأسعار اليوم على الإطلاق، فكل شيء كان رخيصاً جداً، لكن لا تنسوا أن رواتب الموظفين والعمال كانت أيضاً قليلة جداً!

- وعبدالوهاب يا أستاذ صلا ...

لم تدع الدكتورة منى منصور ابن خالتي يكمل حرف الحاء، إذ قالت وهي تتقدمنا جميعاً نحو المائدة:

- هيا إلى العشاء لأن الحديث عن عبدالوهاب لن ينتهي.

ثم أردفت وهي تضحك:

- أنا أعرف زوجي جيداً، فهو من عشاق عبدالوهاب وأم كلثوم، ولن يتوقف عن سرد عبقريتهما!

كانت المائدة عامرة حقًا، فهناك اللحوم المشوية والمقلية، والدجاج والمحاشي المتنوعة والمكرونه بالباشمل، والسلطات الخضراء، بينما كانت تتوسط المائدة زجاجة نبيذ أحمر.

في أول الأمر لم أكن أعرف ماذا تحتوي هذه الزجاجة، ولكن الأستاذ صلاح بذكائه الحاد أدرك ذلك، فلم يسعَ إلى إحراجي وهو يشير إليها موجهاً كلامه نحوي:

- أنت تعرف طبعًا فوائد النبيذ الأحمر؟

لم ينتظر مني أي إجابة؛ إذ عقّب فورًا:

- مع اللحم الأحمر يفضل تناول النبيذ الأحمر، ومع اللحم الأبيض كالأسماك والدجاج يفضل النبيذ الأبيض.

ثم ضاحكًا:

- هذه عادات فرنسية أصلاً! ولا تنسوا أنه مفيد جدًا لإذابة الكوليسترول، الذي يتراكم على شرايين القلب ويسبب الجلطات المميتة.

أثناء ما كان يقدم لي كأس النبيذ، نصحني بجدية:

- الإفراط في تناوله لا يفيد، بل قد يضر.

لم يشرب الأستاذ صلاح سوى كأسين فقط وبيطء، بينما زوجته اكتفت بواحد، في حين أن منصور تجرع أربع كؤوس، أما أنا ففعلت مثل صاحب المنزل الذي أعاد حديث الأفلام القديمة، وهو يقشر لنفسه برتقالة قائلاً:

- أرجو أن تلاحظوا مقدمة الأفلام القديمة، وبالمناسبة تكتب عادة بخط جميل وبديع، لتكتشفوا أن الذين يتولون المسائل الفنية والتقنية دائماً

من الأجانب، خاصة الأرمن، فتجد المصور اسمه «كارفاش»، ومهندس الصوت اسمه «كاليلى»... وهكذا.

- ما معنى هذا يا أستاذ صلاح؟

سأله منصور، وهو يعب رشفة من الكأس في جوفه، فأجاب الرجل:

- معناه بسيط... إن المجتمع المصري آنذاك، كان يحتضن الأجانب من دون مشكلات، وكان الأجانب - الذين اخترعوا السينما - أمهر منا بلا جدال في المسائل التقنية.

- ولا تنسوا أن النجوم العرب أيضاً وجدوا حضناً دافئاً في مصر.

بهذه الجملة اختتمت الدكتورة منى رشاد الجلسة على المائدة، وهي تعاون الخادمة الفلبينية في رفع الصحون.

في أثناء عودتنا سألت منصور عن أبناء الأستاذ صلاح، فقال لي: عنده ولدان الأول في الصف الأول الإعدادي والثاني في الخامس الابتدائي، وهما الآن في رحلة مدرسية إلى لندن لتفوقهما.

عندما استلقيت على سريرى في تلك الليلة لم أستطع النوم بسهولة، فكلام الأستاذ صلاح عن السينما المصرية شغلني، كما أن بيته البديع وزوجته الجميلة وعشاءه اللذيذ وابناه،.. كل هذا أثار اهتمامي، لكن خادمته الفلبينية اقترحتني بنهديها ومؤخرتها، فلم أفلح في الانفكاك منها، إلا بدخول الحمام وتعريتها من كافة ملابسها وأنا مغمض العينين؛ لأضاجعها بقوة خيالي وأنا غارق في بحر اللذة!

هند المغربية

حين نزعت هند القطعة الأخيرة من ملابسها ورأيت أمامي لأول مرة في حياتي، هذا الذي كان الشغف به يحرقني كل ليلة، والحلم برؤيته ولمسه وتقيله يطاردني في أحلام اليقظة، والشعور بالحسد الذي كنت أكابده تجاه منصور ابن خالتي يلازمني دومًا، لأنه رآه وتذوقه وعانقه عندما كانت صفاء الشرنوبي تلون سماء حياته.

هذا الذي كنت أجهل أين يستقر بالضبط في جسد المرأة، وما هو لونه، وما هي درجة حرارته ورائحته، وكيف يمكن إتمام السيطرة عليه واختراقه، ودكه دكًا حتى أصطاد عصفور اللذة من بين غاباته!

أقول، عندما نزعت هند ملابسها ورأيت هكذا أمامي فجأة أسفل بطنها، لم أجد سلاحًا عامرًا، ولم أشعر به منتفضًا وساخنًا، ولم أحسه ملهوفًا وتواقًا لمعرفة سر الأسرار، بل وجدته منكشًا نائمًا، متدليًا كقطعة جلد ميتة بين فخذي، لا حول له ولا قوة، حاولت إنهاضه بسحر المرأة العارية التي أمامي فلم أفلح، أمسكته بيدي ودعكته برفق عسى أن يتمدد وينطلق فلم أنجح!

جنّ جنوني... كيف انطفأ نور غريزتي؟ وأين ذهبت خيالاتي
وهو اجسي؟

بل كيف خمدت نيران الرغبة المشتعلة في جسدي، منذ أن قذفت بي
الأيام فجأة من طور الطفولة إلى طور الرجولة؟ هل أصبت بمرض مفاجئ
قضى على أحلامي الجنسية إلى الأبد؟ هل الرعب من أن يقتحم الشقة
أحد هو الذي هدّ كياني ونزع عتي الشهوة؟ لقد أكدت لي هند أن المكان
آمن تمامًا، وأنه ما من أحد سوف يأتي أبدًا!

هل جسدها الذي يحتشد أمامي بمفاتيح لا حصر لها لا يرضيني؟ ومن
أنا أصلاً حتى يرضيني أو لا؟ وهل رأيت غيره قبل ذلك لأقرر هل هو جسد
بديع أم لا؟ إذن، كيف نام هذا الحيوان الآن؟ ولماذا لا ينطلق ويهفو ويصبو
نحو التي جرجرتني إلى هنا؟

ترى ماذا ستقول عني هند؟ هل ستسخر مني وتنتعني بأني شاب فاقد
الرجولة؟ هل أقسم لها أنني مكتمل الرجولة، وأن حيواني هذا يتمدد
ويتنصب بقوة لدرجة يكاد يخترق بها حائطاً من الأسمنت؟! هل أخبرها
بما أفعل كل يوم تقريباً في الحمام؟

لن تصدقني، حتماً لن تصدقني، فهأنذا أقف أمامها عاجزاً، وهي التي
خططت ورتبت ونظمت هذا اللقاء!

آه... هل سحرتني؟ يقولون إن المغريبات لهن قدرة خارقة على السحر،
وأنا مؤمن تماماً بأن السحر موجود والسحرة منتشرون؛ لأن القرآن الكريم
ذكره وذكرهم، حتى لو كان منصور ينكر وجود السحر، ويقول إنه وهم
اخترعناه لنبرّر فشلنا!

ولكن لماذا تسحرني هند وتقهّر رغبتني الجنسية؟ أليست هي التي تتقرّب مني منذ ضمّنا مكان عمل واحد قبل خمسة أشهر؟ أليست هي أول من بادرت وأمسكت يدي ونحن نتناول غداءنا في المطعم المغربي الذي دعّنتني إليه؟ أليست هي التي مالت عليّ وقبلتني على خدي داخل المصعد ونحن قادمان إلى هنا؟ لقد كدت أطيّر فرحًا وهي تطرح عليّ أن نلتقي وحدنا، حيث أدركت تمامًا من نظرة عينيها أن هذا اللقاء لن يكون بريئًا.. آنذاك كنا نتناول الغداء في مطعم مراکش المغربي في شارع الشيخ زايد. كانت سعيدة بعد حصولها على وظيفة أفضل في شركة علاقات عامة، قبل أسبوع واحد فقط!

- هذه الدعوة على حسابي بمناسبة العمل الجديد.

قالت لي وهي تجلس مبتسمة، ثم أضافت:

- أظن أن هذه أول مرة تدخل فيها مطعمًا مغربيًا.

- نعم.

قلتها بصوت خفيض، وكأنه من العيب أن أكون في دبي منذ خمسة أشهر من دون أن أرتاد مطعمًا مغربيًا.. كانت هند ترتدي بلوزة خضراء ضيقة ومفتوحة عند الصدر، حيث من السهل رؤية الجزء العلوي من نهديها، أما بنطلونها الجينز الأسود، فكان ضيقًا بصورة لافتة وكأنه ملتصق بمؤخرتها وفخذها!

حين أخبرتني في الموبايل أنها ستمر أمام منزلي في الثانية ظهرًا بسيارتها لتصحبني إلى المطعم، كنت فرحًا بها ولها. أخيرًا تخلصت

هند من سخافات المدير موسى الوحش وملاحقة زملائنا يقظان مشاعل ونائل أبو شمالة، اللذين لا يكفان عن مشاكستها ومطاربتها عسى أن ينالا وطرها منها.

كنت ألاحظ هذه المطاردة وأتابع هذا التحرش كل يوم تقريباً، ونحن نمارس عملنا في كارفور، لكنني لم أكن قادراً على فعل شيء، بينما هي تمتلك من الجرأة وسلطة اللسان وقوة الشخصية ما يجعلها توقفهما عند حدهما.

لقد هددت نائل أبو شمالة مرة أنها ستبلغ عنه الشرطة، إذا حاول لمسها ولو بطريقة عفوية؛ حيث صرخت في وجهه قائلة:

- لا تلمسني... فأنا أعرف خداعك ووسائلك القذرة.

- لم أقصد... صدقيني يا هند.

- لا... بل تتعمد أن تلمسني، وأنا مشغولة بالبيع!

لقد رأيت هذه الواقعة بنفسني، وتجنباً لأي احتكاك لا أرغب فيه وغير قادر على مواجهته، تظاهرت بأني منشغل بترتيب الموبايلات في فاترينة العرض، وأنا أتلصص بطرف عيني لأراقب نتائج الصدام بين هند ونائل أبو شمالة!

كنت أعرف كيف تكون غاضبة بشكل حقيقي، ومن دون افتعال، من خلال نظرة عينيها التي تضيق وتفتح في لحظة باعثة شرراً وغيظاً، كما أن بشرتها الخمرية تزداد قتامة كلما اعترها غضب أو حزن.. لا أذكر بالضبط متى بدأت تهتم بي وأنشغل بها، لكنني أذكر جيداً مواساتها لي، عندما

استدعاني المدير موسى الوحش ووبخني بناء على شكوى قدمها ضدي زميلي الباكستاني منير خان. اتهمني منير بأنني أضعت دفتر الفواتير، ولما أقسمت للمدير أن هذا لم يحدث، لم ينصت إليّ، وظل يلاحقني بعبارات التوبيخ والتهديد بخضم يومين من راتبي بسبب الإهمال حتى رنّ الموبايل الخاص به، فسكت فجأة وهو ينظر إلى شاشته ليعرف من المتصل. آنذاك رمقني بحدة وأمرني بالانصراف!

- أقسم لك يا هند أنها مكيدة.

- أعرف... إنهم لا يرغبون في وجودك هنا.

- مَنْ؟

أشارت بعينها إلى اثنين من زملائنا الفلسطينيين، اللذين كانا منهمكين في شرح إمكانات موبايل نوکیا الجديد لعدد من الزبائن.

- وما دخل الباكستاني؟

- إنهم يحركونه كيفما شاءوا، وهو ينفذ كلامهم تقريبًا وزلفى للمدير!

في هذا اليوم المشحون، اصطحبتني هند لأول مرة بسيارتها نحو مقهى اللیدو التونسي في ديرة، ودعتني لتناول شاي مغربي بالصنوبر. بهرتني أناقة المقهى ونظافته، ولكني لم أستطع التخلص من التوتر الشديد، الذي استولى على كياني كله من جراء توبيخ وتهديد موسى الوحش. سرحت في صورة ضخمة معلقة على الجدار بجوار صورة الشيخ زايد، فقالت لي هند وهي ترنو إلى الصورة نفسها:

- هذا هو الحبيب بورقيبة.

لم أفهم جيداً ماذا قالت بالضبط، فأدركت ذلك وكررت بصوت واضح وإيقاع بطيء، وهي تنطق عبارتها حرفاً حرفاً:

- الحبيب بورقيبة... رئيس تونس السابق.

لم أسمع به من قبل، ولم أهتم أن أستفسر عنه، ولكن هند لم تمنحني فرصة للتجوال بنظراتي في المقهى، حيث هتفت وهي تشعل سيجارتها:

- حذار من منير خان... فالباكستانيون خبيثاء!

منذ أن التحقت بالعمل هنا، وأنا لا أشعر بالارتياح تجاه منير هذا، فله نظرات ثعلب يتظاهر بالطيبة، وعلى الرغم من أن شعره الأسود الناعم كان يستفزني لغزارته وكأنه يغطي وجهه كله، فإنني كنت أتحاشى النظر إليه. ومع ذلك حاولت الحفاظ على علاقة ودودة معه ومع الجميع، فلماذا يحاول أن ينشر لي صورة المهمل، وهي غير صحيحة؟

لم تدعني هند أسبح في بحر هواجسي، فأفصحت عن السر بضربة واحدة:

- لقد سمعتهم بالصدفة، إنهم يريدون توفير وظيفة معنا لشاب فلسطيني.

سألتهما بارتباك:

- وهل تعتقدين أنهم يخططون لطردني!

- ليس عندي دليل أكيد، لكنني أخمن ذلك!

سقط قلبي بين قدمي في لحظة من هول الرعب، لو فقدت وظيفتي هنا لانهارت أحلامي. ماذا أقول لأبي الذي شتمني أول أمس، عندما كنت

أتصل بأمي، فانتزع منها موبايل أختي ثريا وأطلق علي وإبلاً من الشتائم؛
لأنني تركته هناك وسافرت ثم كرّر عبارته المشؤومة التي لدغني بها كثيراً:
«الفاشلون فقط من يبحثون عن الرزق خارج بلدانهم»!

كيف سأواجه أخي حسن إذا تم الاستغناء عن خدماتي، لن يتوقف عن
إهائتي واتهامي بالإهمال ولكن...

- هه... أين ذهبت؟

أفقت من مخاوفي على صوت هند، وهي تضغط على يدي ضغطة
خفيفة، فقلت من دون تفكير:

- أبداً... أنا معك!

- لا تقلق... أنا أيضاً معك، ولن أجعل هؤلاء الأوباش يكيدون لك.

لا أدري كيف واثني الشجاعة لأسألها لماذا تهتمين بي؟ لكنها ابتسمت
وهي تتناول رشفة من الشاي:

- أنا أحب المصريين... وأعشق لهجتكم كثيراً.

- ماذا؟

- نعم أحبكم كثيراً، منذ كنت طفلة أشاهد أفلامكم ومسلسلاتكم ونجومكم
وأستمع لأغنياتكم... أحب عبد الحليم وأم كلثوم وحسين فهمي ونور
الشريف ويسرا وعادل إمام، حتى أفلام الأبيض والأسود أحبها جداً،
أنا مفتونة بشادية وفاتن حمامة وسعاد حسني ورشدي أباظة وأحمد
رمزي وحسن يوسف وشكري سرحان.

كانت هند تتحدث بطلاقة عن غرامها بنجومنا وفنانينا، ثم انتهت هنا فقط أنها لا تتكلم معي إلا باللهجة المصرية، ليس الآن فحسب، بل طوال الوقت، لأني سمعتها مرة تتحدث في الموبايل بلهجة لم أفهم منها شيئاً، وقد أخبرني أنها كانت تتكلم مع أمها في المغرب، ولكني لم أفطن آنذاك أن لها لهجتها الخاصة التي لا تتفاعل بها معي أبداً، فهي تتقن المصرية بصورة لافتة، ولا تستخدم غيرها في الحديث معي.

- أشكرك.

هذا ما قلته، ولم أستطع أن أزيد كلمة واحدة بعد وصلة المديح، التي كالتها للمصريين، لكنها علقت على شكري بعبارة دالة:

- أنت شاب طيب... وقد ارتحت إليك منذ رأيتك لأول مرة.

في مقهى الليدو منذ خمسة أشهر، أعلنت ارتياحها لي، وفي مطعم مراکش قبل أسبوع واحد فقط أمسكت يدي وهي تهمس «يجب أن نجلس في مكان وحننا»... فلماذا أقف الآن مشلولاً؟ رغبتني لا تطاوعني وهي عارية أمامي تقلّب في جواز سفري ومحفظتي. ألم يشتعل جسدي ويتصب حيواني، وهي تضحك ونحن في المطعم، عندما قالت لي:

- سنأكل «كسكس»... أشهر طعام مغربي.

لقد توقفت برهة بعد أن نطق أول حرفين من «كسكس»، ثم أكملت الاسم، فجن جنوني من فرط الشهوة، لكنني لم أستطع أن أمد يدي لألمس يدها، فقالت ضاحكة:

- هكذا تسمونه في مصر... أما عندنا في المغرب فله اسم آخر.

- ماهو؟

بغنج ودلال وابتسامة مغرية صدحت:

- عندما نلتقي وحدنا... سأخبرك!

إنها عارية الآن، وأنا أظهار بأني أريد أن أغسل وجهي، فذهبت إلى الحمام عسى أن ينفخ الله في نيران شهوتي فأنقض عليها.. إنها تضحك الآن وبشدة، صوتها يجلبجل في المكان، هل لاحظت أنه مازال نائمًا ومطموسًا بين فخذي؟.. يالها من فضيحة لم تكن في الحسبان! ماذا تقول؟ إنها تناديني.. فلأخرج إليها:

- هل اسم عائلتك «الزبال»؟

فضيحة أخرى، وهل أنا في حاجة إلى فضائح جديدة؟ كانت تقلب في جواز السفر وتضحك، ابتسمت وأشرت بيدي بما معناه أن ليس لي ذنب في لقيبي!

فتحت ذراعيها ونادتني بدلال:

- اقترُب.

جسدها خمري ومتناسق، ونهداها نافران ومستعدان، وها هو باب الأسطورة الذي يحيرني منذ سنين يقبع أسفل بطنها، فلماذا أنا غير قادر على اقتحامه! ولماذا يخذلني جسمي الآن! اقتربت برفق، فأنعشتني رائحتها.

لكنني لم أدر الفارق بين رائحة جلدها وبين رائحة البارفان الذي تطيبت به. تمددت بجوارها على السرير مأخوذاً بنفاذ الرائحة وحلاوتها.. صعدت فوقني وبدأت تقبلني بشهوة، استجبت لعنفوانها وقبلتها، راحت تدعك بطني ببطنها، فلم تجد ما تأمله، دعنتني إلى أن أمتطيها، ففعلت لكن من دون جدوى، مدت يدها وأمسكته ثم بيدها الأخرى قبضت على يدي وقادتها نحو نهديها فبطنها، ثم وضعتها فوق باب الأسطورة، فارتعشت رعباً وتوترت وسحبت يدي بسرعة... انكفأت فوقني مرة أخرى، وهي مقطوعة الأنفاس لتدعك بطنها ببطني بحرقة شديدة وشبق طاغ، فلم ينهض وظل ذاوياً... توقفت فجأة بغضب أعرفه تمامًا من حركة عينيها ولون بشرتها، ولكنه أخف وطأة من غضب عزة سليمان في الليلة الفاصلة، ومع ذلك تماسكت وابتسمت، وهي تهتم بالنزول من فوقني صائحة:

- لا يهم... يبدو أنك مجهد اليوم... هيا بنا!

المزعج

خمسة أيام مرّت منذ عجزت عن مضاجعة هند، وأنا غير قادر على الكلام. الاكتئاب انغرز في قلبي وشّل لساني، فرائحتها مازالت ملتصقة بجلدي لتعلن كل لحظة أنني أخفقت، وأن رجولي طعنت فوق سريرها وذبحت، حاولت التخلص من الرائحة بمزيد من الاستحمام فلم أفلح، بل كانت تزداد عنفواناً، وكأن الماء والصابون يؤكدان حضور تلك الرائحة، ويعمقان مدى التصاقها بجسمي!

حتى البارفان لم ينجح في محوها، لدرجة أنني غامرت واقتنيت زجاجة عطر غالية ثمنها ضضع ميزانيتي، ومع ذلك لم أستطع التخلص من رائحة هند، التي داهمتني في ليلة زفافي، بينما زوجتي ترقد محبطة وحزينة بجواري، وكأنها بصمة عليّ الحياة بها لتعلن لي كل لحظة أنني غير مكتمل الرجولة!

المحزن في الأمر والمثير جداً أنني بعد اليوم المشؤوم ذاك، اعترتني رعشة الجنس وأنا أشاهد قبلة حميمة في فيلم أجنبي على قناة mbc2، فلم

أتمالك نفسي وقمت إلى الحمام يسبقني بلهفة هذا الحيوان الذي خذلني
يوم هند.

لقد كان عامراً ومنتفضاً ومستعداً لاختراق ألف امرأة، فابتهجت به وله،
وجر جرت هند وهي عارية إلى سرير خيالي، وضاجعتها حتى ارتوينا، ومع
ذلك في الصباح، رأيتني مهموماً وطائر الغم ينقر في صدري! تلاحقني
أحداث اليوم المرفوض، وتجلدني رائحة هند التي لا تزول لا بماء
ولا بصابون ولا بعطر، وكأنه عقاب إلهي؛ لأنني لم أستطع أن أنجز مهامني
الذكورية معها.

أليس من الجائز أن الله قد قتل نمر ذكورتني في تلك اللحظة بالذات؛
حتى لا أرتكب جريمة الزنى، فيعصمني من الرذيلة ويحميني من شطط
نفسي؟! هل كان الله رؤوفاً بي حقاً بحيث جعل غرائزي لا تشتعل قط،
بينما هند تتمدد عارية أمامي!

هل هي حكمة إلهية أن أحلم طوال عمري برؤية امرأة عارية ومضاجعتها،
ثم لا أفصح في القيام بالمهمة عندما تحين الفرصة؟ ماذا تقصد يا الله؟
أجبنني... ارحمني، فأنا مؤمن بك وأحبك وأخشى عذابك، لكن الشهوة
يا الله تفتت أعصابي وتشطر كياني كله؟

فلماذا يا الله جعلتني قاب قوسين أو أدنى من التهام تفاح الأنوثة، ثم
أغلقت فمي فجأة، ونزعت أسناني فجأة، فصرت عاجزاً عن تناول أشهى
الأطعمة؟ أخبرني يا الله... هل أفرح لأنني لم أسقط في بئر المعاصي
وظللت عبدك المطيع، الخانع؟ أم أحزن لأنك ذبحت ذئب شهوتي

وحرمتني من أم اللذائذ؟ سبحانك... سامحني يارب... واغفر لي جنوني وهوسي!

خمسة أيام مرّت منذ اليوم البغيض ولم تتصل هند سوى مرة واحدة، لم أجروّ على الرد عليها خجلاً، فلم تعاود الكرة، وكأنها انتظرت عدم ردي لتنتهي علاقتنا، التي لم تكتمل أصلاً! هل أرسل لها «مسج»، على موبايها؟ ماذا أقول فيه؟ ولماذا لم تحاول هي أن ترسل لي «مسج» عندما لم أرد على اتصالها؟

رأسّي سينفجر وحزني باتساع البحر، والرائحة تطاردني. واليوم في الصباح همس في أذني يقظان مشاعل، وهو يضحك: «لن تجد من يدافع عنك بعد ذهاب هند... فانتبه إلى عملك».

ماذا يقصد هذا الشرير؟ هل أنا مهمل في عملي؟ هل لاحظ أن هناك علاقة بيني وبينها؟ هل قالت له هند عما حدث في منزلها؟ هل يحذرني من مؤامرة تحاك ضدي لإطاحتي من وظيفتي؟

ثم ما الضرورة لأن يذكر هند الآن؟ هل ارتبط بها فترة، فغمرته لحظة حنين نحوها؟ لم ألاحظ شيئاً يدل على ذلك، لكن من يدري؟

استبد بي الجوع فقمّت إلى الثلاجة وأحضرت تفاحة، أكلتها من دون شهية، وأنا أتساءل: كيف أخرج من هذه الورطة؟ وهل هي ورطة هند أم ورطتي؟ هل أخبر منصور ابن خالتي بما جرى في اليوم البائس؟ هل سيشتت ويسخر أم سيراعي ويقدر؟ لن أستطيع أن أخبره بأن أول امرأة أراها عارية في حياتي، وأول امرأة أقبلها في حياتي لم أتمكن من إتمام

عملية المضاجعة معها حتى النهاية... لا لا، لن أقدر أن أخبر منصور
بالخيبة التي أنا فيها!

انفتح باب غرفتي فجأة بعنف، فاضطربت بشدة. كان أمجد صفوان
كعادته يتحدث في الموبايل بصوته العالي وهو يضحك ويسب. لا يطرق
الباب هذا الشاب أبدًا قبل دخوله الصاخب... نزع حذاءه، فانتشرت رائحة
جوربه النتنة في المكان بسرعة لافتة.

أشرت إليه بتوسل أن يغسل جوربه وقدميه، فرد وهو يشعل سيجارة،
ومن دون أن ينظر إلي:

- فيما بعد... فيما بعد.

منذ معركته مع محسن عبدالغفور، وأمجد صفوان لم يحاول أن يغيّر من
عاداته المردولة أبدًا، فقدارته كما هي. ومن عجب أنه كان يمتلك مقدرة
فائقة على التبجح بأن ملابسه نظيفة بحجة أنه لا يتعرق! لذا فلا يوجد داعٍ
للاستحمام كما كان يردد، وأنا - نحن المنكوبين - بروائح المزعجة
لا نفهم أن هناك أجسادًا من الممكن أن تظل تسعى طوال الأسبوع، من
دون الحاجة إلى استحمام أو تغيير الملابس!

عبيًا حاول أشرف نادر أن يشرح له أنه من المحال ألا يتعرق أحد في
مدينة الشمس الجهنمية هذه، من دون فائدة، كذلك حاول أن يبين له أن
الجسد - أي جسد - يخرج بانتظام إفرازات من مسام الجلد، ومن ثم
يصبح الاستحمام ضرورة قصوى لتنظيفه من هذه الإفرازات ذات الرائحة
الكريهة. لكن أمجد صفوان لم يكن ينصاع لأي كلام، ولا يسمح لأحد

بأن يواصل حديثه من دون أن يتدخل لإيقافه، ثم يشرح هو في شرح وجهة نظره بأداء مسرحي وصوت عالٍ مع الاستغراق في التفاصيل.

لا يكل أمجد أبدًا من الكلام والإصرار على أن ما يقوله هو الصواب ولا صواب غيره، فنضطر جميعًا إلى السكوت والانصراف عنه من باب القرف منه، وهو مازال يطلق نيران آرائه الساذجة على رؤوسنا! لكنه أحيانًا - والحق أقول - أراه يلقي بعض جواربه التنتة في سلة المهملات، عندما يفعل أحدنا ويشتد انتقادنا له، لكنه يحافظ - أيضًا - على أن تظل رائحة ملابسه الكريهة تسطو على فضاء حجرتنا، وكأنه يسعد بتعذيبنا عندما نستنشق قذاراته!

- ما بك؟ ما كل هذا الهم الذي يسكن عينيك؟

قالها ولم ينظر إليّ، كان دائم الحركة بلا سبب محدد، سواء في غرفة السكن أو سجن دبي. يعشق التحدث وهو واقف دومًا بينما جسده الفارع يهتز بصورة آلية يمينًا ويسارًا. لم ينتظر مني إجابة، بل تبرع لشرح حالتي وتفسيرها من دون أن يسمع مني كلمة واحدة، حيث قال: «يبدو أن هناك امرأة تشغلك، أو أنك مفلس»، ثم أضاف موضحًا: «هذه البلاد يستحيل أن تحيا فيها يومًا من دون مال».

هل أخبر أمجد بما حدث لي مع هند؟

طردت هذا الخاطر فورًا؛ فمن أمجد هذا لأطلع على دخائلي وأسراري وخذلاني؟ لقد صدق بقوله إن هناك امرأة تشغلني! هل أجعله يشاطرني همي، عسى أن أتخفف قليلًا من وطأته فوق قلبي؟

آه... فكرة رائعة، ماذا لو طلبت منه أن أذهب معه إلى الأماكن، التي يقتنص منها الروسيات ويضاجعهن، لأجرب حظي مرة أخرى مع امرأة مغايرة؟

منذ جئت إلى هنا والكل يخبرني أن أمجد صفوان يوزع أمواله وجسده على العاهرات الروسيات، وقد نصحه محسن عبد الغفور أكثر من مرة أمامي أن يحتاط ويرتدع، فالإيدز ليس له علاج، كما أن ثمن غربتنا لا يجب أن يبدد فوق أسرة البغايا. وكان أمجد يفخر بعاهراته، ويدعي أنهن من يسعين لطلبه، وأنه لا يدفع مليمًا لأي منهن لقاء مسرات الجسد، بل يدفع فقط ثمن البيرة أو الويسكي!

هكذا يقول لنا... فماذا لو طلبت منه أن يصطحبني معه، عسى أن أنجح؟ أنا واثق تمامًا أنني مكتمل الرجولة، ولكن ليس عندي تفسير لما حدث مع هند، فلأجرب رجولتي مرة أخرى مع امرأة روسية، هل قلت روسية؟ كيف سأتعامل معها واللغة عائق لا حيلة لي بتجاوزه؟ أنا بالكاد أعرف بعض المفردات والعبارات الإنجليزية التي أتفاهم بها مع الزبائن! وكم من مرة أنقذتني هند بتدخلها لتتعامل هي مع زبون أجنبي، عندما أخفق في مواصلة الحديث معه بالإنجليزية. وإذا كنت لم أفلح في المضاجعة بالعربية، فهل أنا قادر على ممارسة الجنس بلغة أجنبية لا أجيدها أصلاً؟ لا لا... لن أطلب من أمجد شيئًا، كفى فضائح!

- هل معك مئتا درهم حتى أول الشهر؟

لكزني أمجد في كتفي وهو يطلب مني المبلغ، فاضطربت قليلاً ونظرت إليه وتذكرت قول محسن عبد الغفور عنه: «إياك أن تقرضه أي أموال ولو فلساً واحداً، فهو لا يرد دينه إلا بشق الأنفس».

أما أشرف نادر فقد لفت انتباهي إلى أن أمجد يعد من أكبر الذين يقترضون من البنوك هنا، وحين لا يجد بنكاً يقرضه يدور علينا، فهو لا يعرف كيف يدبر أموره أبداً، ولما سألته كم راتبه:

- أظن أن راتب موظف الكاشير يزيد قليلاً عن رواتبنا.

أول نصيحة قدمت لي هنا بعد يومين من سكني في هذه الشقة، هي عدم التعامل مالياً مع أمجد صفوان تحت أي ظرف، وقد شدد كل من محسن عبد الغفور وأشرف نادر على هذا الأمر. وأذكر أن محسن قد قال لي مرة: «إن أمجد ليس ملزماً بإرسال أي مبالغ لأهله في القاهرة فهو وحيد وأبوه مستور، فضلاً عن أن راتب وظيفته في كارفور أكبر بما لا يقاس».

آنذاك كنا نجلس ثلاثتنا في الغرفة ليلاً، فسألت بسذاجة: «أين تذهب نقوده؟». ضحك أشرف ومحسن، وهتفا بصوت واحد:

- الروسيات... والخمر.

ثم استطرد أشرف قائلاً:

- لاحظ أنه لا يعترف بذلك أبداً، ويزعم أن النساء هن من يرغبن في مضاجعته من دون أي مقابل!

وأكمل محسن بسخرية:

- لا تنس أنه وسيم وطلق اللسان، ويتقن الإنجليزية!

قررت ليلتها أن أتحاياه قدر المستطاع، ولكن روائحه الكريهة التي تلاحقنا في الغرفة، وفي السجن، أجبرتني أكثر من مرة أن ألقت نظره إلى ضرورة أن يجد حلاً لها! كان لا يتحرج أن يتتبع حذاء بائساً لا يزيد ثمنه على خمسة عشر درهماً فقط؛ حيث تفوح منه روائح نتنة بعد أول مرة يضع قدميه داخله! كما لا يتورع عن شراء أرداء الملابس وأرخصها بحجة التوفير، وعلى الرغم من أن أشرف نادر نصحه كثيرًا أمامي أن «الغالي ثمنه فيه»، كما يقول مثلنا الشائع، فقد كان لا يرضخ لأي رأي ليس نابعاً من ذهنه!... حتى السيارة الفورد التي ابتاعها كانت مستعملة ومنهكة، فلم ينصت إلى أي نصيحة بعدم شرائها؛ الأمر الذي جعله ينفق باقي النقود التي اقترضها من البنك لتصليحها! ومع ذلك كان يحتشد بجرأة مدهشة تجعله يفخر بأنه الوحيد بيننا الذي يمتلك سيارة، زاعماً أنها في أفضل حال، على الرغم من أنها كانت تتعطل كل أسبوع تقريباً، ويضطر إلى الذهاب بها إلى الميكانيكي!

والآن يطلب مني أن أمنحه مئتي درهم حتى أول الشهر، وها هو يكرر طلبه بينما ينفث دخان سيجارته في وجهي!

ماذا أفعل؟ إذا رفضت فسوف أخسره، ولن أجرؤ على أن أطلب منه اصطحابي معه إلى وكـر الروسيات. صحيح أنني مازلت متردداً بشأن هذه الخطوة، إلا أنني قد أحتاج إليه يوماً!

وإذا قبلت ومنحته المال الذي يريد، فلن يبقى معي إلا دراهم معدودات، بعد أن أرسلت إلى أبي أول أمس المئة دولار المعتادة كل شهر!

قبل أن أجيب أسقط أمجد بحركة يده العفوية وقلّة تركيزه مطفأة السجائر على الأرض، فتناثر الرماد وأعقاب السجائر في الغرفة، فكرر طلبه بتوسل للمرة الثالثة وهو يهم بإزالة آثار ما أسقطته يده.

أخرجت مئتي درهم من جيبي ومنحتها له، وأنا أغمغم بصوت خفيض:

- أرجوك... أنا أحتاج إليها ضروري أول الشهر... فلا تخلف وعدك.

خطفها مني في لمح البصر، ونهض قبل أن يكمل تنظيف أرضية الغرفة من أعقاب سجائره ورمادها، وهو يقول:

- طبعًا... طبعًا.

ندمت لأنني أعطيته ما طلب، فأداؤه الذي أكد به أنه سيرد المال يثبت عدم جديته، وأن المئتي درهم قد لا أحصل عليها مرة أخرى، على الأقل في الموعد المحدد للسداد!

قررت أن أنتهز الفرصة وأطلب منه الذهاب معه إلى عالم الروسيات العاهرات، وقبل أن أنطق بحرف تلقى أمجد «مسج» على موبايله، فقرأه وهو يضحك ثم قام وارتدى ملابسه القذرة نفسها، وجوربه التتن نفسه، ثم نشر على جسده بعض العطر، وهم بالخروج، وهو يتحدث مع إحداهن في الموبايل قائلاً لها بسعادة:

- سأكون عندك خلال ثلث ساعة!

سألته:

- الساعة تجاوزت الثانية عشرة بعد منتصف الليل، فأين أنت ذاهب؟

لم ينظر إليّ، وهو يهتف صائغًا:

- الحياة مع النساء لا تبدأ إلا بعد منتصف الليل يا جاهل!

لم أجرؤ على أن أطلب منه أن يأخذني معه إلى عاهراته، فبقيت في
غرفتي وحيدًا، أندب حظي التعس، وأحسد أمجد الذي يتعامل مع النساء
بكامل رجولته، على رغم أنه من أصحاب الروائح المقززة!

رن الموبايل للحظة ثم سكت، فأدركت أنها شقيقتي ثريا... هكذا
تعودنا أن تطمئن عن حالي كل ليلة بهذه الرنة من القاهرة، فأرد عليها برنة
مماثلة من دبي!

ثم فجأة وجدتني أبكي بحرقة، متذكرًا أمي وأشقائي، كاتمًا صوتي وأنا
أصرخ:

- أين أنت يا أماه؟

12

العاشق

- لا تنسَ موعدنا الليلة عند الأستاذ صلاح.

كانت هذه المرة الثالثة التي يؤكد فيها منصور ابن خالتي هذا الموعد، ثم أضاف قبل أن ينهي اتصاله بي عن طريق الموبايل:

- سأكون عندك في تمام الثامنة... فلا تتأخر، فأنت تعرف صعوبة وجود موقف للسيارة أمام منزلك!

لم تكن بي رغبة للذهاب، صحيح أن اللقاء مع الأستاذ صلاح يثير انتباهي؛ لأنه يدهشني بحديثه وثقافته الموسوعية، إلا أنني لست في حالة نفسية طبيعية بعد يوم الخيبة مع هند، وأخشى أن يشعروا بذلك، فيستجوبونني كما فعل منصور أول أمس ونحن جالسان في مقهى «ذكريات»!

كان سعيدًا بزيارته الأولى إلى صنعاء، التي أمضى فيها أسبوعًا كاملاً لحضور فعاليات مؤتمر الشعر الحديث، وكان كريماً معي فأحضر لي خنجرًا يمينًا هدية. تحدث منصور بشغف عن أهل صنعاء وطبيعتهم

وحفاوتهم به، ثم توقف كثيرًا عند عاداتهم في تناول القات والطقوس المصاحبة لذلك، وكيف حاول أن «يخزن» معهم بعضًا من هذا القات فلم يفلح! كما لم يُفْهَ أن يشرح لي الطبيعة المغايرة للعمارة اليمنية، التي ليس لها مثيل - كما يقول - في العالم.

كنت أنصت من دون اكتراث، أو كنت أحاول أن أبدو مهتمًا بمتابعة أحاديثه عن اليمن، لكنه لاحظ شرودي المنقطع وافتعالي في الرد، وحزني البادي، فتوقف فجأة وسألني، وهو يغرز عينيه في عيني:

- ما بك؟

ارتبكت، فأبعدت وجهي متعللاً بالنداء على الجرسون ليبدل جمر الشيشة.

- هل أصاب خالتي أو زوجها أي مكروه؟

خرجت هذه العبارة من فم منصور بحدة، فتذكرت أبي: ترى ماذا يفعل لو علم بما حدث لي مع هند؟ هل سيلعنني لأنني كدت أعصي أوامر الله وأضاجع امرأة في الحرام؟ أم سيشتمني وينعتني بالفاشل، لأنني أخفقت في القيام بما يجب أن يفعله الرجل تجاه امرأة فاتنة، تناديه وتتمدد عارية أمامه؟

لا أدري رد فعله، لكنني متيقن تمامًا من أنني لن أسلم من قذارة لسانه، سواء امتطيت هند وقطفت لذتي، أو اعترتني الخيبة وانتكست!

جاوبت منصور بصوت محايد:

- لا... هم بخير والحمد لله.

كشفتني منصور بنظرة عينيه السوداوين المشرقتين على الدوام، فهو ابن الخالة والصديق الذي يلازمي منذ كنا طفلين لا نعرف خبايا النساء، فكيف أهرب من هذه النظرة!

- أقسم أن هناك شيئاً غير طبيعي؟

- أبداً... أبداً...

قبل أن يعلّق رنّ الموبايل الخاص به، لم أعرف من المتصل، لكنها امرأة تهمه، لأنه كان يضحك بانتشاء وهو يخاطبها بود شديد، مؤكداً لها ضرورة أن يلتقيا في الغد!

ظننت أن هذه المكالمات التي طالت قليلاً ستنتهي مسألة استجوابي، ليعود إلى مواصلة الحديث عن اليمن وأهله، ولكنه ما إن أغلق الموبايل حتى باغتني، وأنا أضبط جمر الشيشة سائلاً:

- هل تعرض لك حسن بسوء؟

لم ينس، وما زال يحاول أن يقتنص مني إجابة. هذا هو منصور الدؤوب والملحاح، إذا أراد شيئاً فلن يسكت حتى يحصل عليه!

قررت ألا أخبره بشيء عن نكستي مع هند، وأنا أتأمل قميصه الأزرق وأناقته، ثم خطر لي أن أبادر أنا بسؤاله واستفزازه، فقلت له:

- أخي حسن بخير... ولا يوجد شيء.

ثم أضفت مسرعاً حتى لا أعطيه فرصة ليوافيني بسؤال آخر:

- أريد أن أتوجه إليك بسؤال.

وضع كوب الشاي على المنضدة قبل أن يصل إلى فمه، ومد عنقه في اتجاهي وهو يرفع حاجبي الدهشة مرددًا بثقة تلازمه دومًا:

- تفضل... هات ما عندك.

- كيف تحل مشكلاتك الجنسية؟

كل من كان في مقهى «ذكريات» في هذه الليلة استمع إلى قهقهة منصور، فحول بصره نحو المنضدة التي نجلس عليها.. نظرت إليه مستغربًا من نوبة الضحك، التي انتابته عندما استمع إلى سؤالي، وبعد أن أخذ نفسًا عميقًا فور انتهائه من القهقهة، قال لي وهو يرمقني بنظرة ودودة:

- الآن فقط تسأل عن الجنس ومشكلاته!

- أريد أن أعرف.

في هذه اللحظة كسا وجه منصور حزن عميق فجأة، ثم اعتدل على كرسيه وهو يهمهم بصوت غير مسموع، كان يرنو إلى لا شيء، أو كأنه يتأمل إنسانًا غير مرئي ويخاطبه بأسى، وهو يتحدث بهمس:

- أدرك تمامًا عذابك، لكن تأكد أن عذابي بسبب الحرمان من الجنس يفوق عذابك، فقد مارسته عن حب و بانتظام مع المرحومة صفاء لمدة سنوات قبل اليوم المشؤوم. ثم خطفها مني النيل في لحظة غدر وحرمني إلى الأبد من أجمل المشاعر وألذ الأحاسيس. لو كنت تحب القراءة لأطلعتك على ما كتبه بعد رحيلها وحتى هذه اللحظة.. لا يكاد يمر يوم من دون أن أكتب سطرًا أو سطرين عن صفاء وأحزاني بعد غيابها. أنت لم

تذق الجنس حتى الآن - أو هكذا أظن - أي أنك لا تعرف طعمه، أما أنا فقد ذقته ورأيتَه ومارسته وشربته؛ لذا يصبح الحرمان منه أشد وأنكى من حرمانك منه. أنت لا تدرك معنى أن يصير العالم كله ملء كفيك عندما تحب، وتلمس من تحب وتقبلها وتحتضنها. أنت لا تعرف معنى أن تنزع عنها ملابسها قطعة قطعة، فتتبدى أمامك عارية بكامل رونقها، فيسري في وجدانك شعور بأن الكون كله ملك يديك، مادامت حبيبتك بين أحضانك هكذا عارية ودافئة ومقبلة وسخية!

كنت ألمس السماء وأداعب النجوم وأربت على ظهر القمر، كلما ضمتنا سرير واحد أنا وصفاء! كنت أفرح كثيرًا وأنا أشم رائحتها في جسمي، بعد أن نفترق وأتمنى ألا تزول هذه الرائحة عني أبدًا.

يواصل منصور كلامه، وكأنه يحدث نفسه:

كنت أراقب حبورها بعد اكتمال النشوة وكيف تقفز فوق السرير بهجة وسرورًا، وهي تحاول أن تسوي شعرها بيدها، ثم تلتصق بي كهرة صغيرة بحثًا عن الدفء والأمان.. حينئذٍ كنت أفرح كثيرًا؛ لأنني استطعت أن أمنح معشوقتي ما يليق بها من مسرات الجسد، كما وهبتني هي سعادة لا مثيل لها، عندما صرنا روحًا واحدة وجسمًا واحدًا!

يتحدث عن الرائحة بفخر... هو سعيد برائحتها ويتمنى ألا تزول، وأنا منكوب برائحة هند وعاجز عن إزالتها!

- والآن يا منصور... ماذا تفعل؟

أوقفته عن مواصلة الحديث بهذا السؤال، لأن كلامه أثار غريزتي وأوضح لي كم أنا محروم سواء كنت هنا أو هناك، فلا القاهرة أنصفتني

ووفرت لي المرأة والغرام، ولا دبي أسعفتني لاكتشاف سر الأنثى والتمتع
برجولتي!

- لي صديقة فلبينية ألتقيها بانتظام...

وقع عليّ الخبر كالصاعقة... منصور مرتبط بامرأة من الفلبين، متى
وكيف وأين؟ ثم اكتشفت سذاجتي وتساءلت: إذا لم يرتبط منصور، فمن
يرتبط؟ طوال الوقت والفتيات يطاردنه تقريبًا، وطوال السنين وهو مستمتع
بصحبة فتاة ما حتى تزوج سرًا من صفاء الشرنوبى!

لم ينس منصور أبدًا نصيبه من الجنس اللطيف، فما الغرابة إذن في أن
يصادق فتاة فلبينية؟ كم أنا ساذج حقًا، فهو يجيد الإنجليزية ومن السهل
أن يتواصل معها، ثم إنه يمتلك شقة خاصة به، يستطيع أن يستقبل فيها
أي إنسان وفي أي وقت، بينما أنا محشور مع خمسة عشر شابًا في شقة،
لا خصوصية ولا يحزنون! حتى عندما وفرت هند مكانًا خاصًا، لم أستطع
أن أفعل شيئًا... ما أتعس أيامي!

- هل تحبها يا منصور؟

فوجئ بسؤالي، فتخفف من أسر الذكرى واستعاد مزاجه الطبيعي،
واستأذن في الانصراف إلى الحمام، وعندما عاد كرر سؤالي على نفسه
بصوت عالٍ وابتسم، ثم طلب شايًا آخر لكلينا، ومتقمصًا دور الأستاذ راح
يشرح لي:

- الرجل حيوان و...

قاطعته مندهشًا:

- نعم؟

- دعني أكمل من فضلك: الرجل حيوان، هذه حقيقة لا مرء فيها، كما قال الأستاذ صلاح الغندور، وأنا أتفق معه تمامًا في كل آرائه المتعلقة بهذا الأمر.

- وما هي هذه الآراء؟

- انتظر قليلًا من فضلك..

يقول الأستاذ صلاح إن 5٪ فقط من ذكور الحيوانات هي التي تكتفي بأنثى واحدة، أما الباقي وهو 95٪ تقريبًا، فإن الذكر لا يقنع أبدًا بأنثى واحدة، فالأسد على سبيل المثال لا يمكن أن يعيش من دون أن تكون تحت سلطانه ست لبّوات على الأقل، حيث إنه يضاجع أنثاه كل ثلث ساعة تقريبًا في موسم التزاوج. كما أن التيس الواحد يجامع من ثلاثين إلى خمسين أنثى في هذا الموسم، كذلك لا يكتفي الوعل والثور والغزال والأيل بأنثى واحدة. ثم لماذا نذهب بعيدًا، حتى بعض الطيور لها الخصال الجنسية ذاتها، فالديك يوضع في حظيرة تضحّ بعشرين دجاجة، إذ يقوم بتلقيحها كلها من دون كلل، وهكذا. باختصار، فالرجل مثل الحيوان، مجرد مصنع لإنتاج حيوانات منوية، وفي حاجة ماسة يوميًا - خاصة في شبابه - إلى التخلص من هذه الحيوانات التي تلهب جسده وتقضّ مضجعه، ولا توجد وسيلة للتخفف من إلحاح الجسد وضغط الرغبة سوى ممارسة الجنس.

- والحب؟

تناول منصور رشفة من الشاي وواصل كلامه، أو آراء الأستاذ صلاح:

- إذا لم يقترن الحب بممارسة جنسية منتظمة مع الحبيبة، فلن يصمد كثيرًا، وسيلجأ العاشق - الرجل - إلى امرأة أخرى تليبي أشواقه الجنسية حتى لو لم يحبها - بل من الوارد جدًا أن يقدم الرجل على خيانة - وأضع تحتها خطأ - حبيبته ويتذوق فواكه امرأة أخرى، لا لشيء إلا لأن السلوك الحيواني مازال يمسك بجهازه النفسي والجنسي، ولم يحاول أن يهذب ويؤنسن هذا السلوك!

- والحرام؟

هنا ضحك منصور بهدوء وهو ينظر إليّ، ربما بقدر من الشفقة، ثم استطرد مجيبًا:

- شهوة الجنس أقوى بما لا يقاس من الرادع الديني؛ فالرجل منذ التاريخ يلهث خلف جسد المرأة ضاربًا عرض الحائط بالعواقب المنتظرة، سواء في الأرض أو في السماء، إذا ضاجعها بصورة غير شرعية! لم تستطع كل التحريمات الدينية أو حتى الوضعية أن تمنع ممارسة الجنس خارج مؤسسة الزواج، فسطوة الرغبة هي الأصل، ثم أضاف ضاحكًا: «يا أخي لقد وجدنا في هذه الدنيا بسبب هذه السطوة»!

- هل تحب صديقتك الفلبينية؟

اعتدل منصور في مقعده وهو يهمس:

- ممارسة الجنس بانتظام خلقت بيننا مودة ما بامتداد ستة أشهر، لكن الحب شيء آخر، شيء لا يمكن وصفه بعبارات وكلمات، تجد نفسك

مشدودًا إلى فتاتك، إلى كل ما يتعلق بها: ملامحها، طريقة كلامها، ملابسها، همساتها، شرودها، أداؤها في السرير، حتى سخافتها أحيانًا وتقلباتها - باعتبارها امرأة - لا تمثل لك إزعاجًا، بل تمنحك نعمة الصبر عليها واستيعابها، لأنك متيم بها! أما المودة الناتجة عن ممارسة الجنس فلن تدوم سوى عام أو عامين فقط؛ لأن الملل سينخر في عظام هذه العلاقة التي تفتقد للحب.

فجأة خطر لي أن أسأله:

- هل يحب الأستاذ صلاح زوجته؟

حدجني منصور باستغراب، لكنه هز رأسه بالإيجاب، ثم بدأ يسرد لي باختصار علاقة الأستاذ صلاح بزوجه، كما سمعها منه:

- يحب زوجته بلا ريب، وقد قال لي ذلك ولا حظته أنا بقوة، فالدكتورة مني رشاد مفتونة به، كما أن الأستاذ صلاح يعشقها، فالنظرات التي بينهما تؤكد ذلك. لقد اقترن بها منذ أربعة عشر عامًا تقريبًا، وهي تصغره بنحو سبع سنوات، وكل عام يصطحبها في رحلة إلى بلد أوروبي ليجددا غرامهما، كما قال لي، فضلًا عن أنه أسهم بنصيب كبير في الوقوف بجانبها وهي تعد رسالة الدكتوراه، فكان يترجم لها النصوص التي هي بحاجة إليها، ويساعدها في البحث عن الكتب والمراجع المطلوبة. ثم إنه لا يكف عن الحديث عن فوائد الزواج وضرورته، وكم من مرة حرصني على أن أبحث عن فتاة مناسبة لأقترن بها، موضحةً لي أن «رحيل صفاء يجب ألا يجعلك تخاصم الحياة وتركن للوحدة»!

- هل حدثته عن صفاء وعلاقتك بها؟

- بكل تأكيد، حكيت له كل شيء وبالتفصيل، وقد ساعدني بآرائه وحكمته على التعامل مع موت صفاء المفاجئ بصورة طبيعية، حتى أتمكن من تجاوز هذه الصدمة.. أنا فعلاً مدين لهذا الرجل بالكثير.

ثم ضرب كفًا بكف متعجبًا، وهو يقول لي:

- هل تدري أنه يعرف بدر الميناوي؟

- حقًا؟

- بل هما صديقان منذ زمن حتى هذه اللحظة، ولا تنس أن الأستاذ صلاح من سكان شبرا المظلات؛ أي إنهما جيران أيضًا!

لماذا تأخرت يا منصور، هأنذا أقف في شارع الرقة منذ ثلاث ساعة تحت سياط الرطوبة، وأنت لم تصل في الثامنة كما اتفقنا؟ لقد ابتل قميصي تمامًا من جراء العرق الذي يسيل من كل مسام جلدي، فكيف سأذهب إلى الأستاذ صلاح وأنا بهذه الحالة المزرية!

ليتني تمكنت من الإصرار على عدم الذهاب، ولكن منصور نهرني وأخبرني أن غيابي عن سهرة الليلة سيحزن الأستاذ صلاح، الذي دعاني بنفسه مساء أمس، فلماذا تأخرت يا منصور؟ ومتى ستنتهي من مكالماتك الطويلة؟ فموبايلك مشغول منذ ثلاث ساعة! يبدو أنك هائم الآن مع صديقتك الفلبينية ونسيتني هنا، لتجلدني الرطوبة وتكويني ذكرى هند ورائحتها.

ماذا أفعل؟ هل أصعد إلى الشقة لأذود عن نفسي سخافات هذه الرطوبة اللعينة؟

أشفق عليك يا ابن خالتي، فالزحام الليلة فوق التصور، ولن تجد موقعاً لسيارتك على الأغلب، فلا تنتظر وأمرني إلى الله! ترى هل يمكن أن أمتلك سيارة في هذا البلد؟ ياه... حلم جميل، ولكن... ها هو منصور يتصل بي... «أعتذر بشدة فالزحام شديد... ثلاث دقائق فقط وأكون عندك».

حين صعدت في السيارة أنعشني هواء المكيف، فكأنني استعدت روحي المختنقة، وسألت منصور:

- كيف كان يعيش الناس هنا من دون مكيف؟

- لا أدري... ولكن هيا إلى الأستاذ صلاح، فهو يعد لك مفاجأة!

13

المثقف

لم أكن أتخيل أن شؤون السياسة يمكن أن تستهلك أعصاب الناس وأوقاتهم هكذا، إلا حين أتاحت لي الظروف المكوث خمس ساعات متواصلة في منزل الأستاذ صلاح. كنا آخر الواصلين إلى المنزل - منصور وأنا - وقد عاتبه الأستاذ صلاح على التأخير بالكلام ونظرة العين، ولكنه حافظ على ابتسامته الودودة وهو يرحب بي ويقدمني إلى الحضور، وهم: عبد الزهرة أبو العباس صحافي عراقي وزوجته اعتقال عبد الجبار، وسعد شينو شاعر عراقي وزوجته سارة حكو، وجمال عبدالناصر قاص سوري وزوجته سوسن بيرقدار، وعماد بيضون صحافي لبناني!

من أول لحظة بدا لي أنهم جميعاً أصدقاء، وأنها ليست المرة الأولى التي يلتقون فيها معاً، كما أنهم، رجالاً ونساء، يعرفون منصور جيداً، ويتحدثون معه بتلقائية ومودة باعتباره صديقاً مقرباً.. لكنني لم أرهم بعد ذلك أبداً إلا في فيللا سمية الأبراشي.

صدام حسين كان بطل الحديث بامتياز، على الأقل، بامتداد الساعات الأولى من السهرة، فالرجل يحاكم الآن من قبل حكومة أمريكية «عميلة»،

كما وصفها بغضب القاص السوري جمال عبد الناصر، بينما راح الصحفي اللبناني عماد بيضون، الذي سخر مني فيما بعد في الفيللا إياها فكرهته، يؤكد أن صدام يلقي مصير كل ظالم نكل بشعبه وأذله، ولكني لم أعرف أنه شيعي إلا عندما احتدّ في الهجوم على رئيس العراق السابق، فأوقفه الأستاذ صلاح الغندور بابتسامة قائلاً: «أكل هذا الهجوم لأنه اضطهد أقاربك من الشيعة؟»! ضحك عماد بيضون من هذه الملاحظة، على الرغم من أن سعد شينو أوضح أن «صدام اضطهد الجميع بمن فيهم اليزيديون الذين أنتمي إليهم». لم أفهم ماذا يقصد بكلمة «اليزيديون»، وقرّرت أن أستفسر عنها من منصور فيما بعد! كان صوت أم كلثوم ينهمر علينا من جهاز الكاسيت بأغنيات لم أسمع بها من قبل مثل «جدّدت حبك لي»، و«الآهات» التي أصر جمال عبد الناصر على أن يسمعها.

لم أنتبه إليها، فليس لدي طاقة لسماع أم كلثوم، وتساءلت: هل يمكن أن يكون لعمر ودياب نصيب في هذه الجلسة؟!

كانت سخونة الحوار بين الجميع تزداد مع الوقت، إلا أن الدكتورة منى رشاد - بذكاؤها اللّماح - كانت تقطع المناقشة في كل لحظة حادة لتقدم المشروبات، أو تشير إلى «المزّات»، أو تسأل: «هل يريد أحد مزيداً من الثلج؟»، أو تنادي على الخادمة الفلبينية التي أراقب مؤخرتها بعيني في الذهاب وفي الإياب، وهي تضع الأكواب وصحون السلطات، أو ترفع مظفأة السجائر وتنظفها! كانت علب البيرة «الهيئيكن» تفرغ بسرعة مذهلة في بطون الجميع، باستثناء الأستاذ صلاح الذي تجرّع واحدة فقط، ثم بدأ

يتناول الويسكي بتؤدة، حتى النساء اللاتي انتحين جانبًا، ودخلن في ثرثرة خاصة، لم أستطع أن أتبين محتواها، تناولن البيرة وإن بصورة قليلة!

استفزتني رائحة الطعام الشهوي، حيث بدأت صاحبة المنزل وخادمتها في وضع الصحون على المائدة الرئيسية، بينما صوت الحاضرين يعلو ويخفت تأييدًا لصدام حسين، أو تنديدًا بالاحتلال الأمريكي، غير متبهمين إلى أم كلثوم وهي تنوح: «يا اللي عمرّت وأخليت». في الحقيقة لم يكن هناك من يؤيد صدام إلا الصحفي السوري، وكما قال هو بصوت مرتفع: «ليس حبًّا في سواد عينيه، بل كرهًا في بوش وعصابته»، ثم أضاف بحدة: «إنه الاستعمار القديم يعود من جديد يا أصدقائي!» هنا وقف الشاعر العراقي سعد شينو، موجهًا سبابته في عين جمال عبدالناصر صارخًا: «لقد قتل صدام أخي، وابن أختي، واعتقلني ستين من دون سبب منطقي، فلم يكن أخي معارضًا سياسيًا، بل انتقامًا مني لأنني رفضت نظم قصيدة، تمتدح القائد الأعظم، وانتصاره في أم المعارك، كما كان يدّعي»!

وقبل أن يعلق جمال عبدالناصر، تركت سارة حكو زوجة الشاعر مجلس النساء، وتقدمت نحو جمال صارخة في وجهه: «لقد خطفوا شقيقي وعمره خمسة عشر عامًا فقط، يعني مجرد صبي، ولم نعرف عنه شيئًا حتى الآن، لدرجة أن أُمِّي ماتت قبل ستة أعوام كمدًا وقهرًا على فلذة كبدها»!

- من الذين خطفوه؟

هكذا سألت الدكتورة منى رشاد بنبرة متألّمة، فأردفت سارة، وهي تشعل سيجارتها يأسًا:

- رجال الأمن الذين زرعهم صدام في كل مكان في العراق!

انتهز الأستاذ صلاح لحظة السكون التي أعقبت الردود الغاضبة للشاعر وزوجته؛ حيث لم يكن هناك سوى صوت المرأة، التي مازالت تتوجع في جهاز الكاسيت وهي تقول: «الأنس كان أنت». وبدل مجرى الحديث تمامًا - الأمر الذي أعجبني جدًا - حين دعا الجميع إلى تناول أنواع المحاشي المصرية، التي تتفنن زوجته في طهيها، فوقف الجميع في وقت واحد تقريبًا، ودار بعضهم حول نفسه حائرًا، وذهب آخرون نحو المائدة الرئيسية ليلقوا نظرة على الطعام، ثم عادوا إلى أماكنهم من دون أن يعدوا الصحون لأنفسهم، فقد تولت كل زوجة تجهيز صحن كبير لزوجها مزدان بأشهى المأكولات، وقدمته له في مجلسه. أما عماد بيضون ومنصور وأنا، فقد شكرنا سيدة المنزل التي عرضت خدماتها علينا لإعداد الصحون الخاصة بنا، وقال منصور وعماد - تقريبًا في نفس واحد ضاحكين - دعينا نختار ما نشاء، فالطعام كله لذيذ!

أكلت بشهية منفتحة، ربما لأول مرة منذ يوم الحسرة مع هند، ويبدو أن البيرة قد أسهمت في إشعال شهيتي؛ حيث إنني تجرعت ثلاث علب من «الهيكن» في وقت قصير، مع قليل من الخس والجزر واللوز والجوز. لم أنتبه إلى الحوارات الجانبية التي دارت بين الجميع، ولم أهتم بها، كما لم يهتم أحد بي؛ فقد كنت مشغولًا بمراقبة الخادمة الفلبينية، وهي تواصل عملها بهمة في تنظيف المنضدة من بقايا الطعام المتساقط، أو رفع الصحون الفارغة.

كانت قامتها القصيرة وحجمها القليل بشكل عام، لا يتناسب مع نهديها الكبيرين المنتفخين كثمار المانجو الضخمة التي لم أرها قط في حياتي إلا في كارفور. رشقت عيني في مؤخرتها حين انحنت لتلتقط ملعقة سقطت منها، فاضطرب كياني كله، وانتفض سلاحي وتمدد، ورغبت في مضاجعتها في التو واللحظة، لكن، اقتحمتني صورة هند العارية، ووقوفي بأئسا أمام سريرها، ثم وجدت رائحتها النفاذة تتسلل إلى أنفي لتطرد رائحة المحشي والدجاج التي غمرت أصابعي وفمي، فارتبكت وسقطت مني الملعقة على الأرض، محدثة جلبة أثارت انتباه صاحبة المنزل، التي أسرعت وأحضرت لي غيرها. خجلت من نفسي، عندما رنا إلي منصور متسائلاً بعينه عما بي، وقام ليحضر علبتين من البيرة أعطاني إحداها! فتناولتها على الفور، وأنا أتابع خروج الطفلين من غرفتهما؛ ليهمساً في أذن أمهما وهي تأخذ منهما الصحنون الفارغة.

تذكرت أنني لم أنتبه أبداً إلى وجودهما من قبل، كما لم أعرف هل خرجا وأخذ كل منهما صحنه الخاص، أم أن والدتهما قد أرسلت إليهما هذه الصحنون مع الخادمة؟

كانا جميلين بصورة لافتة، بل كانا أجمل من الصورة التي تزين جدار الصالة.

«إنه جبان... اختبأ في حفرة كالفأر المذعور!»

أفقت من شرودي على هذه الصرخة، التي انطلقت من فم الشاعر العراقي كالسهم، فرأيت عماد بيضون يحاول أن يمسح يده بمنديل ورقي

وهو يقول: «لو كان بطلاً - كما يزعمون - لما هتف في دعر: لا تطلقوا النار... أنا رئيس العراق... كان من المفروض أن يقاوم جنود الاحتلال».

- على الأقل ابنه أشرف منه... فقد قاوما حتى لقيا حتفهما!

مازالوا يتحدثون عن صدام حسين... ما لي أنا وما له، وما زالت أم كلثوم تنادي: «الانسجام أنت». لِمَ لا يجدون حلاً لمأساتي مع هند؟ وَلِمَ لا تتوقف هذه المرأة عن النواح قليلاً؟

هل أقف الآن وسط هذه الصالة الفخمة وأشير إليهم أن يسكتوا، حتى أخبرهم بأنني لم أتمكن من مضاجعة أول امرأة تنزع ملابسها أمامي... ولا أعرف السبب؟ لقد راح صدام وراحت أيامه، أما هند فما زالت تتقد رائجتها في أنفي، وإذا كان ابنه بطلين، كما ادّعى أحدهم، ترى من الذي قال ذلك؟ لقد لعبت الخمر برأسي، فلم أعد أعرف مَنْ قال ماذا؟... وَمَنْ رد بكيف؟... ولكن إن كنا بطلين حقاً؛ لأنّهما وجّها سلاحهما نحو الأمريكان، فهل أعد أنا من الأنذال، لأنّ سلاحني خاب وانطفأ فوق سريرها؟!.. قمت وذهبت نحو علبة «هينيكن» توجد فوق المائدة... أخذتها بهدوء وعدت إلى مكاني، ولم أكن أعرف أن منصور يراقبني، إلا حينما حاول أن يأخذها مني هامساً:

- كفافك شراً... فقد تناولت أكثر مما يجب.

أبعدت يده بقوة هاتفاً:

- دعها.

ملءة الصمت التي غطت الجميع، نبهتني إلى أنني تصرفت بصورة غير لائقة، وأن صوتي كان عاليًا جدًا لدرجة جذبت اهتمام الرجال والنساء الذين اجتمعوا هنا. لم أعرف ماذا أفعل، وشعرت بعروقي تنفر، وأصابني تقبض على العلبة بقوة، وكأن أحدًا يريد أن يخطفها مني، فطأطأت رأسي في الأرض، وأنا مرتعب مما قد يحدث في الخطوة التالية، فهربت إلى الألوان الحُمْر والخطوط الزُرْق والدوائر البرتقالية التي تزيّن السجادة تحت أقدامنا، وتساءلت: ألا يمكن أن يصنع الله معجزة الآن، ويحولني إلى سجادة مثل هذه، فأصبح مفيدًا وممتعًا، فلا أتعرض لتوبيخ أو لعتاب من أحد؟ بل يمكنني - كسجادة - أن أتجاوز مأزقي مع هند، فإذا تعرّت أمامي - أو فوقي - فلست مطالبًا - باعتباري سجادة - أن أنقضّ عليها، لكنها حتمًا ستدوسني بالأقدام، مثلما سيفعل هؤلاء الذين سكتوا عن الكلام فجأة وتوقفوا عن ذكر صدام وسنينه!

- اشرب... في صحتك.

لا أعرف كيف وقف الأستاذ صلاح أمامي هكذا، فقد رأيت حذاء أسود لامعًا يقترب ببطء من مرمى ناظري، ويدوس على السجادة - التي تمنيت أن أكونها - بثقة، ويقف قبالي تمامًا، وقبل أن أرفع رأسي لأرى صاحب الحذاء، واصل كلامه بنبرة حادة مخاطبًا منصور:

- دعه وشأنه... فليشرب ما يشاء.

ثم التفت بأداء مسرحي، شعرت بأنه مفتعل، نحو الجميع، وهو يهتف بصوت عالٍ:

- فلنشرب نخب الصديق الجديد لجماعتنا.

لم أرد على أية كلمة من شلال التوبيخ، الذي انهمر فوق رأسي في طريق عودتنا.

وظللت أنظر من زجاج السيارة إلى الشوارع الهادئة، وبريق أضواء المحالّ المغلقة من دون أن ألتفت إلى سيل الشتائم الذي يخرج من فم منصور، ليدخل أذني اليسرى وينفلت من اليمنى... ولكنني فوجئت بأن ابن خالتي يؤتّبني على نظراتي الخبيثة إلى الخادمة الفلبينية، وعدم الاستماع إلى نصائحه بعدم الإفراط في تجرّع البيرة!... لم أهتم بأي شيء مما قاله، ولكنني تعجبت كيف فطن إلى أنني كنت أختلس النظر إلى مؤخرة الخادمة، وقد ذكر المؤخرة بالتحديد، على الرغم من حرصني الشديد على ألا يلحظ أحد هذه النظرات المسروقة!

شعرت برغبة شديدة في التبول، فقد أمسكت نفسي طويلاً، ولم أطلب الدخول إلى الحمام في منزل الأستاذ صلاح من باب الحرج، لذا ما إن أوقف منصور السيارة أمام باب العمارة التي أسكن فيها، حتى هرولت نحو المدخل، فلم أستمع جيداً إلى ما قاله لي بعد أن نزلت من السيارة، لكنني تعثّرت في الدرجة الثالثة من السلم، فانكفأت على وجهي، ولم أتبين أن خنصر يدي اليسرى قد جرح، إلا وأنا أغسل وجهي، بعد أن تخلصت من فائض البول الذي أذلّ أعصابي.

ألقيت بجسدي كله فوق السرير وأنا مهدود القوى، فصدمتني رائحة هند الملتصقة بالوسادة فقذفتها بعيداً في الوقت الذي رنّ فيه الموبايل رنة واحدة، فأدركت أنه «مسح» من شقيقتي. لم أستطع أن أقوم لأرد، وتركت جسدي يغوص تدريجياً في السبات، محاولاً اصطحاب الخادمة الفلسطينية في حضني، لكنني اكتشفت أن دموعي تنهمر بيسر، على الرغم مني، فلما مسحتها زاد معدل تدفقها، فبتّ حائراً بين شهوتي ودموعي فترة لا أعرف مدتها، حتى هلّ أمجد صفوان بصخبه وضجيجهِ ورائحته، وصوته العالي في الموبايل.. تذكرت أنه لم يردّ لي المال الذي اقترضه مني، فهممت بأن أطالبه بإعادته، لكنني أحجمت من باب الحياء. كان يضحك بقوة وهو ينزع ملابسه ويلقيها برائحها التنتنة كيفما اتفق... بدا لي أن المرأة التي يتحدث معها في الموبايل لا تتوقف عن الثثرة، لأنه لا يملك فرصة للرد إلا بالضحك والهمهمات الصوتية.. حسدته للمرّة الألف على هذه الجرأة في التعامل مع النساء، ووجدتني - ولا أعرف كيف - أنتهز انتهاء المكالمة، التي كان غارقاً في بحرّها، وأقول له برجاء وتوسّل:

- خذني معك!

14

إيرينا الروسية

قال لي أمجد صفوان :

- أعطني 500 درهم... لأجعلك تضاجع أجمل فتاة.

- ماذا... أجمل فتاة حقًا؟

- نعم... لم يخلق مثلها في العالمين!

- كفاك سخرية يا أمجد من فضلك... ما اسمها؟

- إيرينا... من روسيا.

قلت لنفسني... «لم نفلح مع المغرب، فهل سننجح مع روسيا»...

حسنًا... ثم ناولته 300 درهم وأنا أخبره:

- لي عندك مئتان... إذن المجموع 500 درهم.

- اعذرني... ليس معي أي نقود الآن؛ لذا يجب أن تدفع المبلغ

كاملاً!

رضخت لطلبه من دون مقاومة تذكر، على الرغم من أنه لن يتبقى معي حتى آخر الشهر سوى 75 درهماً فقط، بعد أن خطف حسن شقيقي ثلث راتبي كالعادة، وبعد أن حولت 100 دولار إلى أبي في مصر!

كنت ملهوفاً لاكتشاف مدى صلاحية ذكورتني بعد يوم هند المشؤوم، صحيح أنني أمارس العادة السرية كل ليلة تقريباً وبنجاح، بعد حادثتي المؤسفة مع ابنة المغرب، إلا أن ذلك لا يشفع لي الاستمرار هكذا في الحياة، من دون أن أضاجع امرأة بشكل حقيقي!

شهر كامل مرّ الآن، ولم أخبر أحداً بما جرى، وأول أمس طارطني منصور بنظراته وأسئلته: «ماذا بك؟ ذهنك مشغول دائماً، هل وقعت في بحر الحب؟».

حتى أخي حسن وبّخني أمس بشدة - ونحن نتناول غداءنا في مطعم كنتاكي - لأنني أصبحت أنسى كثيراً، كما أبلغه المدير موسى الوحش. حاولت أن أدافع عن نفسي، فلم ينصت إليّ، بل أمرني بأن أكتبه حتى لا أخسر وظيفتي، ثم مال عليّ وهو يهمس: «أدرك أن هنا كثيراً من الفلسطينيين، يريدون إنهاء خدمات أي أحد ليضعوا مكانه واحداً من بني جلدتهم!»!

ثم أضاف بصوت عالٍ، مزوّد بإيقاع نصائح:

- على أية حال، ليس الفلسطينيون فقط كذلك، بل كل الجنسيات هنا تحابي بعضها.. عموماً لا تخطئ... حتى لا تسمح لأحد باصطياد أخطائك!

لم أعلق على كلامه، ولكنه ألقى جملة كالقنبلة على الطاولة، وهو ينصرف مشيرًا إلى وجهي:

- يبدو أنك تحب... هذه السحنة تؤكد أن وراءها امرأة!

فكرت قليلًا في تهمة النسيان التي ابتلاني بها المدير، فلم أجد سوى أنني أخبرت أحد الزبائن قبل أيام أن موبايل نويا 6600 لم يعد متوافرًا لدينا! في حين أننا تسلمنا كمية كبيرة منه قبل أسبوع!

هذا هو الخطأ أو النسيان الوحيد الذي ارتكبته في عملي، وقد نلت عنه اللوم الشديد من المدير موسى الوحش، حين علم بالأمر من الجاسوس الباكستاني منير خان وصديقه نائل أبو شمالة! فلماذا إذن يشكوني لأخي ويهدّدني؟ ثم ما حكاية أن سحتني الآن وراءها امرأة؟ أل هذه الدرجة طفحت مأساتي مع هند على ملامحي! فهذا هو حسن، وقبله منصور، وقبلهما أمجد صفوان، كلهم أشاروا وصرّحوا وأعلنوا أن حالتي ليست طبيعية، وأن مزاجي العام أصبح الآن أسيرًا لامرأة ما!

لعنة الله عليك يا هند... يا معذبتني وسر بلواي.. لكنني لن أرضخ لعجزتي معك، ومصيتي بين فخذيك.

نعم... نعم، اليوم سأذهب مع أمجد في التاسعة مساءً لألقاها... اسمها «إيرينا»... نعم «إيرينا» كما قال لي.. وأنا واثق أنني سأنجح معها!

لقد أخبرته بطريقة حاولت فيها أن أبدو لا مبالياً، أنني أريد أن أجرب النساء اللاتي يعرفهن... وهكذا تمّ الاتفاق بيننا على السعر. في التاسعة إلا ربعاً، اتصل بي أمجد ليخبرني أنه سيتأخر نحو نصف ساعة قبل أن يصل

إليّ. شككت في أمره، ربما لن يأتي، فندمت لأنني أعطيته المال قبل بلوغ الأرب، ومع ذلك ظللت واقفاً أمام باب العمارة أنتظره - كما كنت - منذ الثامنة والنصف.

تأملت العابرين في الشارع من دون اكتراث كبير، لكن الصدور شبه العارية والأرداف الفاتنة، كانت هي التي تجرّج عيني خلفها... تلقيت «رنة» على الموبايل من أختي ثريا، فصنعت مثيلها وأرسلت لها «رنة»، لكنها عادت مرة أخرى وبسرعة لتكرر «رنتها» لثوانٍ ثم تغلق الموبايل. لم أرد، لكنها فعلت ذلك مرتين وبسرعة. اعتراني قلق، فغامرت وطلبتها، على الرغم من أن رصيدي قليل جداً، فأخبرتني أنهم نقلوا أبي إلى المستشفى قبل ساعة، بعد أن اشتد سعاله وصار ينزف دمًا من فمه!

ارتجف فؤادي لحظة من الذعر، وتساءلت: ترى هل يموت؟ إنه خبر مهم ومفرح، ولكن ثريا لم تخبرني ماذا عليّ أن أفعل، لقد صبت المعلومة في أذني بحياء على ما أظن! هل يجب أن أخبر حسن أخي؟ أم أنهم قد أبلغوه قبلي؟ ما هذا السخف؟ هل هذا وقته، فليذهب أبي إلى الجحيم، ولأتهياً جيداً لهذه الليلة الحاسمة!

تأخر أمجد حتى بلغت الساعة التاسعة والنصف، الأمر الذي أصابني بخيبة أمل كبيرة، أنستني أن أبي ينزف الآن في المستشفى!
- لقد فعلتها الملعونة... أعتذر بشدة.

أوقف أمجد لساني عن الاحتجاج بهذه العبارة، وهو يشير إلى سيارته المستعملة، ثم راح يشرح كيف تعطلت منه عند مول بورجمان، وكيف

تمكّن - بمهارته - من تحديد سبب العطل، وكيف نجح في إصلاحه حتى جاء إلى ميعادي.

في الطريق إلى بيت «إيرينا»، ظل أمجد ينصحني وهو يضحك: «إياك أن تخذلنا»، «سمعة المصريين الآن بين يديك، أقصد بين فخذيك»، «لا تنقضّ عليها فجأة فهي ليست بهيمة»!

- هل تجيد اللغة العربية؟

سألته وأنا مضطرب، وكل ذرة في كياني ترتجف من هول المغامرة.

- قليلاً جداً.

ثم أضاف ضاحكاً:

- هذا هو الفعل الوحيد بين اثنين الذي لا يحتاج إلى اللغة... إنها لغة الجسد يا ساذج!

أوقف أمجد سيارته في شارع جانبي خلف مستشفى دبي في حي البراحة، ثم أخرج زجاجة بارفان من تابلوه السيارة، ونثر منها على نفسه، ثم أعطاها لي وهو يقول:

- يجب أن تدوّخها بعطرك فور دخولك!

تعجبت... كيف يتحدّث عن العطر هكذا، ولا يتبّه إلى رائحته القذرة طوال الوقت. رششت العطر على جسدي كيفما اتفق وبسرعة، وحينما نزلنا من السيارة، أوقفني بإشارة من يده، وهو يدور حولي ويتألمني من أعلى إلى أسفل، ثم غمغم بصوت مسموع نسيّاً:

- لا بأس... أناقتك مقبولة اليوم!

ابتسمت دون أن أعلّق، فقد اعتبر أمجد القميص الجديد الذي اشتريته أمس من سوق «نايف» بعشرة دراهم دليل أناقة.. ترى هل يعلم أن هناك قمصان تعرض في «سيتي سنتر»، تبلغ قيمة الواحد منها أكثر من 700 درهم؟!

صافح أمجد حارس العمارة الهندي، الذي أبلغ الشرطة عندما وقعت الواقعة، بطريقة تؤكد معرفته به، بل ونفحه سيجارة وعبارة ضاحكة باللغة الهندية. كنت أعرف أن أمجد تعلم بعض المفردات والجمل الشائعة بلغة الأوردو، وقد حاول أن يلقنها لي، فلم أفلح ولم أهتم، وكان يقول: إن الهنود منتشرون مثل النمل في بلاد الخليج، فعلينا أن نعرف على الأقل بعض العبارات، التي تيسر لنا التعامل معهم.

الغريب أن منصور ابن خالتي كان يردد الكلام نفسه، وكان يجد لذة، وهو يحاول أن ينطق بعض الكلمات الهندية شارحاً لي معناها، ومؤكداً في الوقت نفسه أننا نحن العرب، ظللنا نلهث خلف الغرب منذ قرنين، ولم نتبه أبداً إلى سحر الحضارة التي أنجزتها بلدان الشرق.

على باب المصعد، نظر أمجد في ساعته، ثم اتصل بالموبايل، تحدث بالإنكليزية التي يجيدها، ثم أمسك بيدي صائحاً:

- هيا.

جر جرنني خلفه نحو السلم، وهو يقول:

- لن ننتظر المصعد... إنها في الدور الأول.

كان يصعد السلم بسرعة قافزاً أربع درجات مرة واحدة.

لهثت خلفه والعرق يسيل مني في خط مستقيم على عمودي الفقري، ولكنه ارتطم بآخر درجة من السلم فانكفاً على وجهه، وكاد يوقعني فوقه.

استقبلتنا إيرينا بفستان أحمر وابتسامة واسعة، ثم قالت بلهجة مصرية واضحة وهي تصافحني:

- «إزيك»!

ارتبكت بشدة، ولم أعرف كيف أرد، فجماها الباذخ، وطولها الفارع، وشعرها الأسود الناعم والمنسدل على كتفيها، جعلني أتخيل أنني أقف أمام تمثال كامل الأوصاف... لكزني أمجد في كتفي، وهو يقول:

- إنها تسألك «إزيك»... فجاوبها!

- بخير.

أربعة أحرف هي كل ما استطعت إخراجه من فمي وبصعوبة، ثم فهمت من أمجد أنها كانت تريد أن تقدم لنا الكونياك، ولكنه رفض بحجة أنني لن أحتمل تذوّقه، وطلب منها علب البيرة.. كان يتحدث معها بالإنكليزية، التي يتقنها كل منهما فيما يبدو.

- سأشرب معك البيرة ثم أنصرف.

- إلى أين؟

- سأنتظرك أمام العمارة بعد ساعة.

حين خرج أمجد، سمعتها تتحدث مع أحد في الداخل، فانتابني رعب. ترى... من بالداخل، وماذا يفعل الآن؟ ما هذه الورطة التي أوقعتني بها يا أمجد؟! لكنني ضحكت من حالي، حين وجدتها قادمة نحوي، وهي تحمل صحناً به طعام تتبعها قطعة بيضاء صغيرة، مازالت تتوجه إليها بالحديث، حيث وضعت الصحن في زاوية الصالة التي أجلس فيها، بينما راحت القطة تلتهم الطعام بشهية.

لا ريب أنها كانت تتحدث مع قطتها باللغة الروسية، التي كنت أسمعها أحياناً من بعض زبائن كارفور، فأتعجب من حكمة الله في خلقه، وكيف حباهم كل هذه اللغات المتباينة ذات الإيقاعات الغريبة.

سألني بلغة عربية ركيكة «هل تحب القطط»؟ فأجبتها بإيماءة من رأسي تدل على الموافقة، فأشارت إليّ كي أنظر إلى اللوحات المعلقة على الحائط، والتي تصور قططاً في أوضاع متعددة.

تأملت اللوحات كما طلبت من دون تركيز، ولما التفت نحوها لأبدي إعجابي من باب المجاملة، وجدتها قد نزعت فستانها الأحمر، فبدت أمامي نصف عارية، فارتجفت، ثم تقدمت نحوي ببطء، ومدت يدها لتمسك بيدي، وقادتني وأنا مقطوع الأنفاس نحو الغرفة الداخلية!... سرت معها مسلوب الإرادة، أفكر في الخطوة التالية، وهل سأتمكن من إنجازها، أم سستكرّر بلوأي مع هند؟ تركت يدي وألقت نفسها على السرير. كانت الإضاءة ذات لون أحمر خافت، يناسب مثل هذه اللقاءات الساخنة التي أشاهدها في الأفلام، كما أن الغرفة كانت تعبق بعطر نفاذ يزداد حضوره

كلما اقتربت منها ولا مستها.. قامت بنزع ما بقي من ملابسها قطعة قطعة، ثم قذفت بها في وجهي بغنج، وأشارت برأسها أن أفعل مثلها!

المصيبة التي وجدتني غارقاً فيها لم تخطر لي على بالٍ قط، فهذه الفتاة الروسية أجمل من رأت عيني.. فهي أجمل من هند ومن أمي وخالتي عنايات ومن شقيقتي نجاة وثريا، بل وأجمل من الممثلات الشهيرات مثل سعاد حسني ويسرا ولىلى علوي... ومن كل نساء الأرض، فكيف سأتمكن أنا بأئس الحظ من مضاجعة هذه الحسناء الفريدة؟

لعنة الله عليك يا أمجد، لقد طلبت منك أن توفر لي امرأة لأعشرها، لا ملكة جمال الكون، التي يعجز أي رجل سويّ - وليس أنا - عن مجرد التفكير بأن يراها عارية، فما بالك لو كان الأمر مرتهناً بامتطائها واقتحامها؟!

نفذت أوامرها ونزعت ملابسني، لكنني شعرت بارتباك في جهازي الهضمي ورغبة شديدة في التغوط، سألتها بخجل: «أين الحمام»؟ وعندما عدت كانت تداعب قطتها، وهي ممددة على سرير الفتنة.

أومأت لي أن أقبل بعد أن وضعت قطتها على الأرض برفق، وهي تطلب منها الانصراف، كما فهمت، لأن القطة خرجت فوراً من الغرفة، ثم فتحت ذراعيها على اتساعهما وهي تبتسم بدلال، اقتربت منها ببطء، فمالت على جنبها لتفتح درج الكوميدينو، وتخرج منه شيئاً ناولتني إياه!

«عازل ذكري»... يا للكارثة، كيف سأستخدمه أصلاً، وما زال صاحبنا مرتخيًا ومنكمشًا بين فخذي! لماذا لم يخبرني أمجد الملعون بهذا العازل

لأستعدّ؛ فأنا لم أستخدمه قط، وهذه أول مرة أراه فيها. «قطعة بلاستيك»... هل تنقصني هذه القطعة، فأنا مازلت حائرًا غير قادر على بث الشهوة في أعضائي وشرائيني!

آه يا إيرينا... لماذا تركت بلادك وجئت إلى هنا لتبيعي جسدك لسارقي اللذة؟ وما هي اللذة أمامي لا تحتاج حتى إلى سرقة، وأنا أعاني الإخفاق في تذوقها! لكنني سأحاول... لا بد من النجاح.. اقتربت منها، انكفأت فوقها، قبلتها بشغف فمنحتني شفيتها إلى آخر أنفاسها.

رنّ هاتفها المحمول، فأبعدت فمي عن شفيتها بهدوء، واستدارت لتتناول الموبايل من تحت الوسادة! نظرت إلى رقم المتصل قبل أن ترد، تحدثت قليلًا بالروسية ثم أغلقته، وهي تهمس في أذني بالإنكليزية «آسفة»!... قامت فوقي وقبلتني في عنقي ثم صدري، ثم نظرت إليه وأمسكته بلا مبالاة، داعبته فلم يستجب، قبلته فلم ينتصب، تركته يفلت من يديها وهي تحرك كتفيها وتمط شفيتها في إشارة، تؤكد أنها لم تفهم إلى متى سيظل هذا الحيوان ميتًا؟!

أبعدت شعرها المتساقط على عينيها إلى الخلف بحركة سريعة من رأسها، ثم نزلت من فوقي، جلست على حافة السرير، أمسكت الموبايل وطلبت رقمًا تحدثت معه بالإنكليزية.. لم أفهم ماذا قالت؟ لكنها لم تُطل.

وفور انتهائها رن الموبايل الخاص بي لحظات ثم توقف... خرجت من الغرفة وجاءتني به وهي تحمل قطعتها بحنان، مازالت تتحرك في المكان

عارية. كانت أختي ثريا هي من اتصلت، ماذا تريد مني يا ثريا؟ أعرف أن أبي ينزف في المستشفى، ولكنني هنا أنزف مأساتي على سرير إيرينا كما فعلت مع هند، فدعني ينزف يا ثريا واتركيني لعاري وذكورتي المستباحة! ارتدت ملابسها وجلست في الصلاة واضعة قطعها على حجرها ولم تتكلم.. ارتديت ملابسني بهدوء، وأنا مطأطئ الرأس.. لكنني لم أعقد رباط حذائي.

نظرت إلى أكواب البيرة، فاكشفت أنني لم أشرب حتى نصف كوب، شعرت برغبة شديدة في التبول، ولكنني خرجت أن أطلب منها دخول الحمام مرة أخرى.

خرجت من دون أن أنطق بحرف، وأنا لا أعلم أن هذه أول وآخر مرة أراها فيها على قيد الحياة، كما أنها لم تودعني بكلمة، بل ظلت تداعب قطعها وتدللها.

لم أنتظر المصعد، ولم أفكر به أصلاً.

هبطت السلم ببطء وأنا منهك الجسم والعصب، تخيلني صورة إيرينا، وهي تناولني العازل الذكري.. نظرت في ساعتي فاكشفت أن كل هذه الأحداث الجسام لم تستغرق أكثر من نصف ساعة فقط!

جلست على الرصيف أمام العمارة في زاوية مظلمة نسبياً.. رن هاتفي لحظة ثم توقف. كانت ثريا، فوجدتني أصرخ بصوت عالٍ قائلاً:

«فليذهب أبي إلى الجحيم يا ثريا... دعيني وشأني»!

حاول أمجد صفوان أن يخفف من آلامه .. لا أعرف كيف فهم أنني أخفقت فيما ينجح فيه الرجال عادة عندما يلتحمون بالنساء العرايا، فأنا لم أتحدث معه بأي كلمة منذ جلست إلى جواره في السيارة، ربما قرأ ذلك في وجهي، أو أخبرته إيرينا بما تم، ولكنه كان لطيفاً على أية حال، وهو يقول لي مواسياً:

- كثير منا يرتعب من المرة الأولى فلا ينجح.

لم أعلق واكتفيت بتأمل الشارع من نافذة السيارة حتى وصلنا إلى المنزل.

عندما ألقيت برأسي على الوسادة في تلك الليلة، لم أتذكر تمامًا وقائع ما حدث مع إيرينا، ولا تفاصيل ملامحها، ولا حتى عطرها النفّاذ، بل كنت أسيرًا لتفاصيل أخرى بطلتها هند ورائحتها وحنجها ... وخيبيتي.

موسى الوحش

استدعاني المدير موسى الوحش إلى مكتبه وانهال عليّ تعنيفًا وتوبيخًا، لأنه مرّ أمام قسمنا مرتين هذا النهار ووجدني شاردًا لا أقوم بعملِي، ودليله على ذلك أنني لم أنتبه لوجوده! ... كانت هذه أول مرة ألاحظ أن له عيني ثعلب مُترَبِّص، وأنه يصبغ شعره بلون أحمر قانٍ.. لم يكن يزعجني تقريره، بقدر قرفي من الرذاذ المتطاير من فمه نحوي، وهو يواصل تهديداته بإنهاء خدماتي.

دافعت عن نفسي باستحياء، فقد كنت أتعجب من اتهامه لي بأنني لم أكن أراه، وهو يمر كالعادة من باب مراقبة سير العمل، إذ كان يقوم بجولته اليومية هذه كل ساعة تقريبًا من ساعات الدوام.

وكان دائمًا ينتقدنا جميعًا بحركات مسرحية تثير السخرية منه؛ نظرًا لقصر قامته، وشاربه الغريب الذي يعود شكله إلى عصر باشوات زمان!

قلت لنفسِي: يتهمني بأنني لم ألاحظ وجوده في أثناء مروره أمام قسم الموبايلات، وهل استطعت أنا أن ألاحظ مفاتن إيرينا وأقدّر ها، وهي عارية أمامي لألاحظك أنت أيها «البُرس»؟

- لماذا لا تردّ؟

صرخ وهو يمد سبّابته في وجهي!

- آسف...

قلتها بصوت خفيض وقلب منقبض.. كرر وعيده بإنهاء خدماتي فوراً،
إذا صدر مني أي خطأ مهما كان صغيراً، ثم أمرني بالانصراف، وقبل أن
أفتح الباب لأخرج، ارتطم في أذني رنين سؤاله الغريب:

- كيف حال أبليك الآن؟

تعجبت كيف عرف أن والدي ظل أربعة أيام في المستشفى يعاني نزيفاً
حاداً بسبب السعال المتواصل... لقد أدخلوه المستشفى في نفس اليوم
المشؤوم، الذي رأيت فيه إيرينا على قيد الحياة أول وآخر مرة! ظل هناك
تحت العناية المركزة، ولما استقرّت حالته، خرج قبل ثلاثة أيام، وعاد إلى
البيت ليواصل سبابه وعصبيته على أُمي وشقيقتي!

ترى... من أخبر موسى الوحش بمرض أبي؟

نعم... لقد تحدثت مع بعض زملائي في القسم عن الوضع الصحي
البائس لوالدي، وأنه راقد في المستشفى لا حول له ولا قوة، لذا، ربما
حكى له واحد من هؤلاء، أو ربما أخبره شقيقي حسن بحالة أبي. نعم
حسن الذي لا يكفّ منذ أسبوعين على الأقل عن تلقيني نصائح دينية،
يتصدرها ضرورة المواظبة على أداء الصلاة في أوقاتها!

- أبي بخير.. شكراً.

هكذا قلت له وانصرفت. ثم تخيلت لو أن موسى الوحش نفذ وعيده وأنهى خدماتي، فماذا أفعل؟ هل سأبحث عن عمل هنا في دبي؟ وهل سأحصل على وظيفة بسهولة؟ أم سأضطر إلى أن أعود إلى القاهرة؟ ليستقبلني أبي بوابل من شتائمه التي لا تنتهي؟ لكن هل سيجرؤ موسى الوحش على طردي من العمل، وهو الذي قبل رشوة كبيرة من حسن؛ حتى يوفر لي هذه الوظيفة؟ أنا لا أعرف مقدار الرشوة التي تلقاها، لكنني موقن أنه مبلغ كبير. وكما قال لي مرة منصور ابن خالتي إن الوحش لن يغامر بتعييني في هذه الوظيفة - وهو يعلم جيداً أن لا خبرة لدي في هذا المجال - إلا إذا كان مبلغ الرشوة مغرياً.

لقد نصحني أخي حسن أكثر من مرة بضرورة الانتباه في العمل؛ حتى لا أخسر وظيفتي، وكزّر أمامي أن كثيراً من الفلسطينيين يريدون توظيف أناس من بني جلدتهم بدلاً منا! ولكن حسن لا يعرف أن شرودي وعدم انتباهي وتوتري الدائم... كل ذلك يعود إلى المصيبة التي أحملها في قلبي، ولم أكن أعلم عنها شيئاً. من يصدق أن تتعري النساء أمامي، فأعرض عنهن، ولا أتمكن من كشف السر الأزلي للمرأة! حتى أنا لا أصدق أحياناً ما حدث، وتراودني أحاسيس غريبة باستمرار، فكأن هند لم تكن، وكأنني لم أذهب إلى مخدع إيرينا الروسية لأتعري وأعود خائباً! ماذا لو علم حسن بما جرى لي؟ هل سيشفق عليّ آنذاك ويتوقف عن اتهامه لي بأنني فاشل، كما يفعل أبي معي باستمرار؟!... ثم ماذا لو وصل أمر مصيبتني إلى مسامع موسى الوحش، كيف سيتعامل معي؟ وما هو رد فعله؟ هل سيغفر لي

حينها سهوي وشرودي في أثناء العمل؟ لا أظن... فالرجل يتسم بخصال انتقامية، تغذيها دومًا رغبة متأججة في السخرية من الآخرين وتسفيههم!

لا أعرف من أين جاء بهذه النفس الشريرة؛ فالمعلومات عنه شحيحة، كما كان يقول لي أمجد صفوان وزملائي في السكن، فهو من مواليد غزة التي تعلّم فيها حتى المرحلة الثانوية، بعدها التحق بكلية التجارة في جامعة القاهرة، وفور تخرجه غادر مصر إلى الكويت فترة، ثم استقرّ هنا في دبي.

يقول أمجد إنه رآه مرة مصطحبًا زوجته وابنه في مول «بورجمان»، وإن زوجته آية في الجمال، وأطول منه، وتصبغ شعرها بلون ذهبي، وإنها تعمل في العلاقات العامة بإحدى الشركات، كما سمع من أحدهم!

لكن من أين تمتلئ نفسه بكل هذا السواد؟ لا أحد يعلم، ولكن، هل حقًا سينهي خدماتي كما كرر أكثر من مرة؟ وإذا أنهاها... ماذا سأخسر أكثر مما أخسره على أسرة الغواني؟ وهل يوجد فقدان أفدح من فقدان الرجولة؟!

الرجولة أم الوظيفة؟ أنا أم موسى الوحش؟ هل مقدور عليّ أن أكافح لأحافظ على وظيفتي؟ أم مكتوب على جيني أن أفتش عن سرّ الخيبة، التي تلمّ بي كلما تعرت أمامي امرأة؟ هل أخبر حسن أخي عن المعضلة التي تلاحقني، عسى أن يفهم أحوالي ويجد لي مخرجًا؟ أم سيشمت بي ويحتقري، وعندها لن أسلم من سياط لسانه إلى الأبد؟ هل أأمن لأمجد صفوان بكشف السر، وأبلغه أن واقعة إيرينا ليست الأولى، لعله ينصحني ماذا أفعل لأتجاوز هذا الكابوس؟ إذا قلت لأمجد، فقد أصبح

مضغة الأفواه، فهو لا يؤتمن وثرثار، وقد أفشى لي كثيرًا من أسرار معارفه وأصدقائه، وبعضهم يعيش معنا في السكن!

لم يبق سوى منصور ابن خالتي، فهل أتجرأ وأطلععه على مخبوء صدري، الذي يرهق مني النفس والروح منذ أكثر من ثلاثة أشهر؟ وهل سينصت منصور إلى شكواي بصدر رحب؟ وهل يملك من الوقت ما يخصصه لي، وهو المشغول دومًا بعالمه الصحفي وسفرياته، وصديقه الفلبينية، والأستاذ صلاح، والقبض على صدام حسين ومحاكمته؟... فأمس ظل يضحك ويضرب كفًا بكفٍّ، ونحن جالسان على مقهى «ذكريات»، وهو ينقل لي آراء صحفيي عراقي يعمل معه في المؤسسة، إذلفت انتباهه إلى عجرفة صدام حسين خلال المحاكمة، وكيف يتعامل بقسوة وعنجهية مع القاضي وأعضاء المحكمة، بل ويسبهم!... ولما سأله منصور ماذا يعني هذا الأمر؟ صرخ في وجهه الصحفي العراقي قائلاً: «إذا كان الرجل مسجونًا منذ مدة، ويحاكم وهو يعلم أن الإعدام مصيره، ومع ذلك فهو متمسك بجبروته وفظاظته مع القضاة، فتخيل كيف كان يتعامل معنا وهو رئيس، وأي ديكتاتور كان يحكمنا، بل أيّ كابوس كنا نعيش تحت وطأته»!.

لا يريد منصور أن ينسى هوسه بالسياسة أبدًا، ولا يملّ من الكلام عنها، ومحاولة تحليل مواقف الدول ومستقبل الصراعات السياسية، وكان يسخر مني؛ لأنني لا أشاطره الاهتمام نفسه.. كنت أغار من حيويته وقدرته على رؤية أمور أبعد من ذاته، ومناقشة قضايا لن تعود عليه بالنفع مباشرة، وكان يحسد هواجسي حياله، فيقول لي أحيانًا من دون سابق إنذار «الاهتمام بشؤون السياسة متعة ذهنية، لا يقدرها الخاملون عقليًا

أمثالك»... ولما كنت أبدي امتعاضي، على استحياء، من هذه الآراء التي تهزأ بي بوضوح، كان يضحك وهو يستطرد: «السياسة تعني رغيف الخبز وكيلو اللحم وتذكرة الأوتوبيس»... هكذا كان يقول لي في القاهرة، وها هو يكرّر الكلام نفسه في دبي، حتى حين غرقت صفاء زوجته في النهر، لم يتوقف عن شراء جرائد المعارضة، خاصة العربي والأهالي، قبل أن يلتحق للعمل بها، ومتابعة الأحداث، وقد رأيتُه أكثر من مرة يمسح دمعته، تسللتا من عينيه من دون أن يدري، وهو شارد على المقهى، ثم يحرك رأسه يمنة ويسرة بقوة وبسرعة كأنه ينفذ عن نفسه غبار الحزن، ثم يمسك الصحيفة؛ ليطلع فيها رأياً أو عموداً لأحد كتّابه المفضلين!

هل أخبر منصور بوقائع ما جرى لي على أسرة الغواني والعاشرات؟ أم أنتظر لأجرب حظي - أو جسمي - للمرة الثالثة؟ وهل أحتمل الصبر للمرة أخرى، أو بالأحرى هل يمكن أن أحتملني إذا كان مصير المرة الثالثة هو نفس مصير المرتين السابقتين؟ وهل مقدور عليّ أن أظل نهباً هكذا لألاعيب جسدي، فيخطف منّي التركيز في العمل، ويعرّضني لتفريغ دائم من قبل مدير مكروه، يتصيد أقل الأخطاء ليكيل لي الانتقادات بالجملة؟

كنت أقف هكذا في القسم نصف غائب عن الوعي، تلاحقني الأفكار والوساوس حين رنّ الموبايل، فكانت هندا!

16

الحقيبة

لم يستغرق لقائي مع هند المغربية أكثر من ساعة ونصف الساعة.. انتظرتها حسب الميعاد في شارع الرقة أمام مطعم أوتوماتيك. كانت الرطوبة خانقة كالعادة في هذا الوقت من أوائل سبتمبر، فغرقت في عرقي اللزج والمقرف؛ خاصة وأن قميصي الأزرق كان مصنوعاً من قماش رخيص الثمن، فالتصق بجسمي وفاقم توتري. ترددت في أن أدخل المطعم لأنعم بهواء المكيف، ولكنني خشيت أن تكون أسعار المشروبات مرتفعة فتضطرب ميزانيتي، فتحملت اختناق المناخ على مضض لأكثر من ثلث ساعة، وهند لم تظهر بعد.

طَفْتُ على شاطئ ذكرياتي وقائع اليوم المشهود مع هند، فوجدتني أطأ على رأسي خجلاً وكأن هناك من يحاسبني، ثم زاحمتها إيرينا الروسية فجأة حينما رأيت قطعة تحوم حول مدخل المطعم، فتذكرت حفيدة القياصرة مع قطتها. ولكن سرعان ما عادت هند لتحتل صدارة تفكيرني لتضمحل صورة إيرينا تدريجيًا.. تأملت هنديين يتكلمان بصوت مرتفع،

وهما يسيران أمامي، ويتحدثان بلغة عجيبة تثير الضحك، فضحكت. نظرا إليّ في وقت واحد، وبادلاني الضحك من دون أن يعرفا لماذا أضحك؟ اللعنة... تأخرت هند والرطوبة البائسة كأنها جبل متين، يلتف حول أعصابي فيخنق روحي! ترى... ما الذي دعاها للاختفاء طوال ستة أشهر تقريباً منذ لقائنا الفاشل؟

ولماذا تذكرتني الآن؟ ماذا تريد مني بالضبط؟ هل ستدعوني لكرر التجربة مرة أخرى على سريرها الوثير؟ ليتها تفعل، لكنني لن أجرؤ على أن أطلب منها ذلك، أو حتى ألمح لها، فما حدث أمر لا ينسى، كما أنني لست واثقاً بالمرّة في قدرتي على إتمام فعل الجنس معها، إذا تعرّت أمامي مرة أخرى؛ لذا من الأفضل ألا تدعوني إلى مخدعها اليوم أو غداً، حتى لا تتكرر المأساة وأصبح أسيراً لرائحتها التي مازالت عالقة في جسدي حتى هذه اللحظة، فأنا أشم هذه الرائحة فجأة من دون سابق إنذار، ومن دون سبب منطقي، فقد تغزوني وأنا أتأمل قبلة حارقة في فيلم يعرض في التلفزيون، أو أشاهد رجلاً وامرأة يسيران في سبتي ستر وهما ملتصقان يدّاً بيد، أو تقتحمني رائحة هند دوماً، وأنا أمارس العادة السرية في حمام السكن! نعم... لقد تراجع نفوذ هذه الرائحة الآن بعد مرور هذه الأشهر، ولكنها موجودة وتعلن عن سطوتها فجأة وبصورة مخيفة لدرجة، تجعلني أشعر بصداع شديد لا تزول أو جاعه إلا بالنوم!

بعد 45 دقيقة وصلت هند بسيارة مازدا.. تساءلت: من أين لها بهذه السيارات الحديثة؟ اتصلت بي قائلة إنها ستكون أمام المطعم بعد خمس دقائق، وعليّ أن أستعد؛ لأنها لن تستطيع الوقوف أكثر من ثوانٍ بسبب

الزحام الشديد في شارع الرقة.. اضطربت أعصابي وشعرت برغبة جارفة في دخول الحمام لقضاء حاجتي، تماسكت قدر استطاعتي، ولكن التقلصات التي سقط في مطبها جهازي الهضمي بدت أقوى مما أحتمل.

أنعشني الهواء المنبعث من مكيف السيارة، فأيقنت أن الرطوبة هنا أقسى مما يتخيل أحد، ثم شعرت خطأ أن الرغبة في قضاء الحاجة قد زالت؛ ذلك أنني فور جلوسنا في مطعم مراکش بشارع الشيخ زايد عاودتني منغصات الجهاز الهضمي، فاستأذنتها لدخول الحمام، حيث تخلصت من عذابات الجسد وتقلصات جهازي الهضمي دفعة واحدة!

كانت هند تردي فستاناً بنياً قصيراً مكشوف الصدر بحمالتين، ومرصعاً عند نهديها بوردتين كبيرتين حمراوين، طلبت لنا شايًا مغربيًا، دون أن تسألني ماذا أريد أن أشرب، وكنت قد غسلت وجهي مرتين بالصابون في حمام المطعم؛ لأزيل رائحة العرق الذي تصبب مني بسبب توحش الرطوبة وأنا أنتظرها.

- أمي ماتت.

قالتها وهي تشعل سيجارة، لم تنتظر أي تعليق مني، حيث أضافت بسرعة من دون أن أنطق بكلمة:

- هذا سبب غيابي عن دبي الأشهر الأخيرة.

ورطة لم تكن في الحساب، ماذا أقول لها؟ وهل يمكن أن أطلب منها لقاء آخر في سريرها، وجثة أمها مازالت ساخنة في القبر؟!

- البقية في حياتك.

- أشكرك... كيف حال العمل؟

حكيت لها باختصار سخافات المدير موسى الوحش وملاحقته لي وتهديده إياي بإنهاء خدمتي.. كانت تنصت لي بنصف تركيز، فقد كانت مشغولة بتليفونها المحمول، تتأمله وتبحث فيه عن رسائل وصلتها أو تصوغ رسالة لأحد، كما أنها تلقت عدة مكالمات طوال المدة التي جلسناها معًا، وأنا أيضًا رنّ هاتفي مرة من قبل أختي ثريا، فرددت عليها برنة مماثلة.

حاولت أن أستثير اهتمامها فسألتها:

- هل كانت مريضة؟

- مَنْ؟

- والدتك!

- آه... طبعًا... كانت تكابد السرطان منذ سنين.

بدالي واضحًا أنها لا تريد أن تتحدث عنها، فتوقفت عن طرح الأسئلة، بل توقفت عن الكلام كله، وتأملت الجرسون، وهو يرفع «برّاد» الشاي المغربي إلى أعلى ويصب منه الشاي بأداء مسرحي، ذكرني ببائع العرقسوس في مصر وطريقته في الصب!... لاحظت أن هند تناولت بعض حبوب الصنوبر.. التي جاء بها الجرسون مع الشاي ووضعتها في فنجانها.

قلدتها، لكنها تناولت حفنة أخرى من الصنوبر، وبدلاً من وضعها في الشاي قذفتها في فمها دفعة واحدة وراحت تمضغها، أحبت الصنوبر.. لكنني لم أستسغ طعم الشاي المغربي، ومع ذلك أتيت عليه كله، فقد كنت جائعًا.

- هل تأكل كسكس بالدجاج؟

تعجبت كيف أدركت أنني جائع، خشيت أن أعلن موافقتي فترتبك ميزانيتي، ولكنها لم تسمح لي بالتفكير طويلاً؛ حيث قالت:

- أنت ضيفي، وأنا سأدفع الحساب!

نادت على الجرسون مباشرة وطلبت كسكس بالدجاج لي ولها! تأملت ديكورات المطعم الغارق في المنمنمات المجلوة بالإضاءة الخافتة!

التهمت الكسكس بسرعة، لم تأكل هند إلا القليل، فوددت لو تناولت ما بقي في طبقها؛ لأنني لم أشبع، لكنني تحرّجت، ثم أشعلت سيجارة وناولتني واحدة، وهي تتلفت حولها قبل أن تخبرني:

- أريد أن أحفظ شيئاً عندك.

لم أفهم ما قالت، فعبرت بحاجبي عن الاستفهام، فأردفت بسرعة:
- حقييتي الخاصة... أريد أن تحفظها عندك.

- أي حقيبة؟

عدّدت لي هند محتويات حقيبتها، حيث تضم أوراقها الشخصية المهمة، وقليلًا من المشغولات الذهبية كما قالت. ثم بررت لي رغبتها في عمل ذلك بأن بيتي أكثر أمانًا من الشقة، التي تعيش فيها الآن مع بنات لا تعرفهن جيدًا، ومعظمهن من الفلبين وروسيا والصين وأوكرانيا! ثم أضافت بنبرة لا تخلو من غنج، وهي تضع يدها فوق يدي:

- محمد... أنا أثق فيك كثيرًا.

لم تمنحني أي فرصة للتفكير في طلبها، إذ سرعان ما سألتني:

- هل تحب عبد الحليم حافظ؟

- لماذا؟

- ألا تسمع... إنه يشدو بأغنية «جانا الهوا»!

ثم استطردت بحسرة بادية:

- أمي كانت تحبه كثيرًا.

لم أتنبه إلى أن صوت عبد الحليم ينبعث برفق من سماعات، وضعت في أركان المطعم من دون أن يلحظها أحد، فأغنياته لم تكن تستهويني، بعكس منصور ابن خالتي، الذي أغرم به فترة تأثرًا بوالديه؛ خاصة أمه التي كانت تحب حليم كثيرًا.

غلبت النشوة هند وهي تنصت لحليم، فرددت معه وهي تتمايل:

«مارمانا الهوا ونعسنا... واللي شبكنا يخلصنا».

ظلت تغني وأنا أتأملها بينما شهوتي فيها تنمو وتزدهر، فأجدني أمد يدي لألمسها فلا تمنع، وتترك لي يدها أعابثها كيفما أشاء حتى يرن الموبايل الخاص بها فجأة، فتسحبها لترد بلهجة مغربية لم أفهم منها شيئًا، ولكن قبل أن تنتهي من حديثها التليفوني، رنّ هاتفني فكان منصور الذي طلب رؤيتي على مقهي «ذكريات» الآن إذا لم أكن مشغولاً.

عند خروجنا من باب المطعم، كانت الرطوبة قد بلغت مستوى بائسًا، فلعلت هند هذا المناخ وهي في قمة التأفف، وقد أشعلت مكيف السيارة، فور أن أدارت المحرك، ثم صرخت:

- ياه... ما هذه الرطوبة الخانقة!

شاركتها الإحساس بالانزعاج الشديد من رداءة الطقس، فتمتمتُ
بعبارات تؤيد غضبها وتدعمه، وقبل أن تتحرك بالسيارة التفتت إلى
الخلف؛ لتحضر حقبة جلد بنية كبيرة نسبيًا مثل التي يحملها المحامون،
فناولتها لي وهي تقول:

- محمد... هذه حقيتي الخاصة جدًّا... رجاء الحفاظ عليها جيدًا...
أشكرك.

أخذتها بهدوء وأنا أهمس:

- لا تقلقي... سأحافظ عليها.

عقبت على كلامي قائلة:

- أعرف أنك تملك دولابًا خاصًا... ضعها فيه بين ملابسك وأغلقه
جيدًا!

لم أعلق، على الرغم من أنني لا أعرف من أخبرها أنني أملك دولابًا
خاصًا، ولكنها لم تتركني للتفكير، بل مدت يدها إلى حيواني الذي همد،
وهي تضحك سائلة:

- كيف أخبره الآن... أما زال نائمًا؟

غرقت في نهر حيائي، إذ مرت كالطيف وقائع اليوم إياه معها،
فاضطربت، وأظنّ أنها لاحظت ذلك؛ لأنها قالت بقدر من الجدية:

- لا بد أن نكرر المحاولة مرة أخرى!

حين نزلت من سيارتها عند مقهى ذكريات.. ودعتها، وأنا ألعن رطوبة شهر سبتمبر وحظي التعس مع النساء.

دخلت مسرعاً إلى المقهى هرباً من سجن الرطوبة، فاستقبلت أذني على الفور صوت أم كلثوم، وهي تقول: «اسقني واشربْ على أطلاله». وجدت منصور ابن خالتي يتبادل حديثاً ضاحكاً مع فتاة تجلس بجواره.

- سمية الأبراشي... صحيفة مصرية في جريدة «الخليج».

قدمها إليّ بوّد شديد، وهو يشير نحوي:

- هذا يا عزيزتي محمد ابن خالتي.

- صديق الطفولة والصبا والشباب.

أكملت سمية التعريف وهي تبتسم، ثم مدت يدها بثقة لتصافحني قائلة:

- أهلاً يا محمد... لقد حدثني منصور عنك كثيراً.

مفاجأتك لا تنتهي مع النساء يا منصور: من أول المرحومة صفاء، حتى الفلبينية التي لا أعرف اسمها، وها هي سمية... ترى ما حكايتها هذه يا ابن خالتي؟ ولماذا لم تخبرني بها من قبل؟ حقاً إنها جميلة ورقيقة... هكذا تفصح ملامحها البيضاء الدقيقة، وعيناها السوداء والواسعتان!

أنت تنعم بالنساء في القاهرة وفي دبي يا منصور، وأنا غير قادر على مجازاة هند في العبث داخل السيارة، فتخذلني شهوتي لحظة أن تلمسه، فينكفئ وينكمش... اللعنة!

وضعت حقيبة هند البنية بين ساقي وأنا أجلس، فبادرني منصور
متسائلاً:

- لمن هذه الحقيبة؟

- إنها خاصة بصديق.

كذبت عليه، لأنني لو أخبرته بالحقيقة لسألني: مَنْ هند؟ آنذاك ربما
لا أقوى على مواصلة طريق الكذب، فأصبح صريع الحقيقة المخزية
والمؤلمة، «هند يا منصور امرأة أخفقت في إثبات رجولتي بين أحضانها»،
هل تريد أن تسمع ذلك؟ لا.. لن أقول لك؛ حتى لا تسخر مني وأنت
الشاب الذي خبر النساء وأحاط نفسه بالجماليات!

تأملت سمية خلصة وأنا أدخن الشيعة، بدا لي أنهما متفاهمان جيداً،
كانت ترتدي بلوزة خضراء وبنطلون جينز، وتضع ساقاً فوق أخرى، شعرها
الأسود القصير كان مُصَفَّفاً بطريقة تؤكد أنها فتاة عملية.. لم تكن تدخن،
ولم تتوقف عن إلقاء النصائح لنا بأن التدخين مضر وغير ممتع. تصدى لها
منصور مدافعاً عن سحر الشيعة، ولما طلبت مني الكلام، اكتفيت بتأييد
آراء منصور.

- سيأتي الأستاذ صلاح الغندور بعد قليل.

- هذا أمر جيد... فأنا لم أره منذ زمن.

تابعت حديثهما حيناً وانشغلت بمشاهدة مطاردة حامية بين أسد وذئب
على شاشة التلفزيون، بينما أم كلثوم تهتف من مسجل المقهى: «أعطني
حُرِّيَّتِي أَطْلُقْ يَدَيَّ». رنَّ هاتفني، وكانت هند تسألني هل وصلت إلى البيت

ووضعت الحقيقة في مكان آمن. أربكني هذا الإلحاح، فوجدتني أرفع الحقيقة بشكل لا إرادي لأضعها على فخذي وأمسكها جيداً، وأم كلثوم تكرر «إنني أعطيتُ ما استبقيتُ شيئاً». في تلك اللحظة، دخل علينا الأستاذ صلاح مقهوراً مكدوداً، تسبقه دموع حارقة، تعرقل انهماك الحروف على شفثه... سهم الرعب الذي انطلق من عيني منصور لم يكن له شبيه، فسأله بنبرة عالية لفتت انتباه كل من في المقهى:

- ماذا حدث؟

بصوت مجروح، وقلب منفطر، ودموع ساخنة، قال لنا الأستاذ صلاح الغندور:

- لقد مات بدر المنيأوي ضمن فناني المسرح، الذين احترقوا في قصر ثقافة بني سويف أمس!

انخرطنا جميعاً في بكاء شديد باستثناء سمية الأبراشي، التي تفحصتنا بحزن وذبول، أما أم كلثوم فكانت تشدو بأسى يمزق الأفئدة:

- يا حبيبي كل شيء بقضاء...

ما بأيدينا خُلقنا تُعساء!

أنا ... مرة أخرى

«حتى سوما الصينية يا محمد! لقد جاءت إلى بيتك ونامت فوق سريرك وتعرت راضية مرضية مقابل خمسين درهماً فقط. وبذلت معك مجهودات خارقة عسى أن يرفرف حيوانك وتزدهر رجولتك من دون جدوى... ما أقبحك يا محمد».

مَنْ أنا حقاً؟

محمد عبد القوي الزبال... نعم هذا اسمي... وهذا جسدي الملعون... المناوى لرغباتي... المتمرد على رجولتي... الساخر من شهواتي... الناقم على غرائزي. ولكن هل هذا يكفي لأعرّف نفسي؟ وأمس قال لي منصور إنه ينوي أن يخطب سمية الأبراشي في الصيف القادم، وعليّ أن أفكر جدّياً في الزواج كما قال، ثم أضاف: «إنني أحبها يا محمد... وهي أيضاً».

تحبها؟ وأين صفاء الشرنوبي؟ هل نسيته يا منصور؟ أم أن الموتى ليس لهم نصيب في العشق! من رأى دموعك يوم ابتلعته مياه النيل لا يمكن أن يخمن أنك ستنسأها لتتزوج بأخرى بعد أقل من أربع سنوات! بل وتعلن

بتبجح أنك تحب سمية الأبراشي! من سمية الأبراشي هذه أصلاً؟ مجرد صحفية التقيتها هنا قبل شهر، ودارت بينكما اتصالات تليفونية ومقابلات عملية في المؤتمرات الصحفية، كما قلت لي... فهل هذا يكفي لأن تقول إنك تحبها! رحمك الله يا صفاء... لو تدرين ماذا سيفعل بك ابن خالتي لما تزوجتينه في السر... ولكن ما لي أنا وغرامياتي!

وقبل أسبوع دقت سوما الباب.. كنت أجلس وحيداً في البيت يوم إجازتي، كانت فتاة صينية تبيع الساعات وال«سي ديهات».. تصعد الأدوار وتطرق الأبواب لتعرض بضاعتها التكنولوجية. دعوتها للدخول بحجة الاطلاع على البضاعة، وأنا أضمر في نفسي شيئاً خبيثاً.

أفرغت ما في حقيقتها على الأرض، وجلست القرفصاء تعدد لي مزايا ما تبيعه بلغة عربية ركيكة ومتكسرة. فهمت بعضها ولم أفهم معظمها، كما أنني لم أكن أهتم بما تقول، فقد كنت أفكر في الحيلة، التي تجعلني أنقض عليها من دون اعتراض أو فضائح، فلما أخبرني أن هناك «سي ديهات» جنسية، تجرأت عليها ومددت يدي لأمسك يدها. لم تحاول سحبها فقمّت لأرفعها بين يدي وأضمها، فلم تشأ أن تفلت مني، فقط سألتني بلغتها العربية المرتبكة وجسد منهك هذه التجوال:

- كم ستدفع؟

لم أجد إجابة سوى أن أرد سؤالها بسؤال:

- كم تريدن؟

- مائة درهم.

- كثير جدًا... معي خمسون فقط.

- موافقة.

بعد أقل من دقيقة كانت سوما، هذا هو اسمها الذي أخبرتي، به ولا أدري إن كانت صادقة أم لا؟ قد تعرت تمامًا، حيث نزعت بلوزتها البيضاء وبطلونها الجينز، فبدت لي أقل من طفلة. حجمها الصغير ككل لا يشي أبدًا بأنها امرأة ناضجة، فنهاها مثل ليمونتين صفراوين، وفخذاها أرفع من زندي، فكيف أضاجع شبعًا لا قوام له؟ طلبت منها أن تستحم لأن رائحتها لم تكن تحتمل.. شكرتني وهرولت نحو الحمام بفرح، وحين خرجت كانت تسبقها ابتسامة رضا وامتنان. أعطتني الواقي الذكري الذي أخرجه من حقيبة يدها، فرفضت استخدامه.. نظرت لي مندهشة وتمتمت كلامًا لم أفهمه.

المأساة بحذافيرها تكررت مع سوما، فلا المداعبة، ولا الغنج، ولا التعري، ولا التأوهات الصينية، ولا حتى الملامسة للجسد الساخن استطاعت أن تُنهض ما هو ساكن، أو تحيي ما هو ميت، فتركتني سوما ولملمت بضاعتها بما فيها الواقي الذكري، ولم تأخذ شيئًا، بعد أن تركت لي نظرة شفقة، تندرج على جسمي المسكين! حيث لم أرها بعد ذلك أبدًا!

الفراغ يقتلني... وأبي يصارع الموت منذ أسبوعين في مستشفى المعادي العسكري، وأختي ثريا لا تمل من لفت انتباهي برناتها كل ساعتين، وشقيقي حسن قرر أن يعود إلى القاهرة ليتولى منصبًا مهمًا في

كارفور مقابل ثلاثة آلاف جنيه شهريًا، ناصحًا إياي - أو أمرا - بأن أحافظ على وظيفتي، وإلا لن أجد من يحميني. وحقيبة هند قابعة بين الملابس لا أدري ما بها، وأنا جالس بمفردي في المنزل يحاصرني الفراغ، حتى أمجد صفوان استقال من العمل بكارفور منذ عشرة أيام، والتحق بشركة عقارات براتب مغر، فبدت النعمة عليه من فورها!

وبدر المنيأوي نال تكريمًا يليق بجثمانه المتفحم من صديقه صلاح الغندور، فكتب عنه ثلاث مقالات متتالية تضج بالحزن واللوعة على الفقيد، وتلعن الحكومة ووزيرها ومسؤولي الثقافة بها؛ لأنهم تركوا بدر والذين معه يحترقون من دون مجد في قصر ثقافة مهممل، وغير مؤهل لاستقبال عروض مسرحية!

حتى منصور رثاء بمقال موجه للقلب، يعدد من خلاله خصال رجل نبيل وحكيم تعيس الحظ، فأبكاني حين قرأه لي، وبكي معي، على المقهى، ولم ينس منصور أن يهدي المقال إلى روح بدر العذبة وأرملته الوفية وزوجته الراحلة صفاء الشرنوبلي، حيث ذكر في مقاله الحزين أن بدر المنيأوي فتح له منزله؛ ليقضي فيه ليلة دخلته السرية.. كان مقالاً جريئاً على الرغم من الدموع، التي تقطر من بين حروفه!

عَضَّني الجوع، فقممت أفتش في الثلاجة عن شيء، فلم أجد سوى قطعة خبز أفغاني أشتهيهِ كثيراً عندما يكون طازجاً، وبقايا جبن أبيض، وتفاحة يتيمة، فأكلتها كلها، وعدت إلى غرفتي لأفكر في سوما وصديقاتها الصينيات بائعات التكنولوجيا والهوى.. لقد هجرن بلدهن وسافرن آلاف الكيلومترات بحثاً عن دراهم قليلة، حتى لو اضطررن إلى انتهاك

أجسادهن، وعرضها لمن يدفع هذه الدراهم القليلة! حقًا ما أتعس بلادهن وما أفسى الغربة! هل قلت الغربة؟ ومن أنا أصلاً؟ ألسنت غريبًا هنا أيضًا؟ فلا أم ولا أخ ولا أخت ولا أهل ولا تلك البلاد بلادي؟ ومع ذلك، أنستني مأساتي مع النساء هنا أني غريب!

هل أعود إلى وطني؟ هل أظل هنا أذوق الذل وأبلع الإهانة من مديري ومن شقيقي ومن النساء؟ أم أعود إلى القاهرة لأقدم الشاي والقهوة والشيشة في المقاهي، فتعصرني الغربة داخل وطني؟

محمد عبد القوي الزبال خريج كلية التجارة منذ ست سنوات، وجرسون في مقهى شعبي بالقاهرة... هذا هو مصيري في أفضل الأحوال إذا تمردت على غربتي وقررت العودة إلى مصر! ضحكت بصوت عالٍ على وضعي البائس، وعلى الألفي دولار فقط التي استطعت توفيرها طوال عام كامل من الوقوف عشر ساعات يوميًا في كارفور! حمدت الله على كل شيء، ولكن من دون حماس كبير!

وقعت عيني على ملابس المتسخة والمكومة داخل سلة الغسيل المحشورة بين الدولاب والسرير. انزعجت جدًا لأنني يجب أن أقوم بغسلها في تلك الغسالة المهترئة نصف الآلية! قلت لنفسني: ما أتعس هذه المهمة الأسبوعية المزعجة! حقًا كيف تتحمل السيدات هذا العمل المنحط: غسيل الملابس؟ ثناقلت وأنا أتحرك نحو الغسالة لأضع بداخلها ملابس، وأنا أحلم بيوم أفتني فيه زوجة، ترحمني من هذه السخافات المنزلية! وهل هناك فتاة تقبل أن تتزوج شابًا مثلي عاجزًا عن مضاجعتها؟

خلاص: هل صنفت نفسك ضمن العاجزين جنسيًا يا محمد؟ وكيف تعلق ممارستك للعبادة السرية بنجاح كل يوم تقريبًا! اطرده غراب التشاؤم هذا من فوق شجرة أفكارك، واستعد ثقتك بنفسك وبقدراتك! هكذا قلت لنفسي، وأنا أقذف بملابسي من دون همّة في وعاء الغسالة!

ثقب أذني أذان الظهر الذي يرفعه دومًا رجل دين باكستاني، مزدان بلحية كثة تميل إلى الاحمرار، وذو نبرة حادة ومزعجة، كانت توترني عندما ارتطمت بأذني عند سماعي إليه لأول مرة، لكنني تعودت على إيقاع صوته المدبب مع الوقت. كان المسجد ملاصقًا للبنية التي أقطنها، ومع ذلك تكاسلت أن أذهب للصلاة، وقلت لنفسي: «القيظ شديد في الخارج، فلا بأس أن أصلي هنا»، وبالفعل توضأت وأحضرت سجادة الصلاة، التي حرصت أمي على دسّها في حقيبتني عندما غادرت القاهرة، ثم اتخذت موقعي من القبلة وشرعت في إقامة الصلاة!

لم تتركني هواجسي كالعادة أستمتع بلذة العبادة، الأمر الذي كان يعذب روحي على الدوام، حيث رأيت شبح هند وهي عارية يعبر أمامي وأنا أقرأ الفاتحة، فاستغفرت الله وبدأت شعائر الصلاة من جديد، عبثًا أحاول طرد أجساد النساء اللاتي أخفقت في مضاجعتهن من خيالي من دون فائدة، أغمضت عيني حتى لا أراهن يتسكعن عرايا في غرفتي؛ فيفسدن عليّ صلاتي، استجمعت أعصابي مصوبًا تركيزي نحو الآيات والصور الكريمة حتى أنجزت الصلاة بسرعة، كي أتخلص من عذابات التشويش، وأنا أتساءل بنادم: هل سيغفر لي الله شططي هذا في الصلاة؟ أم أنه يمتحن قوة إيماني ومقدرتي على الإخلاص له وحده، مهما كانت إغراءات الدنيا؟

رن هاتفي، كانت هند تقرؤني السلام وتطمئن على حقيقتها. فرحت
لأنني قد أراها اليوم، فأقهر الفراغ الذي أهيمن فيه منذ الصباح، ولكن هند لم
تمنحني أي فرصة للفرح؛ إذ أخبرتني أنها في طريقها إلى المطار للسفر إلى
هونج كونج، في مهمة عمل تستغرق أسبوعاً، ثم ختمت كلامها بدلال:

- عندما أعود يجب أن نلتقي فوراً... لأنك أوحشتني!

الغنج الذي تسرب من بين حروف هذه العبارة أهاج مشاعري في
لحظة، فوددت لو قبلتها، ولكنها أردفت قبل أن أنطق بكلمة:

- الحقيبة يا محمد... حافظ عليها!

نهضت على الفور من فوق سرير وحدتي متوجهاً نحو الدولاب،
أزحت الملابس من فوق حقيبة هند وأحضرتها؛ لأحاول فتحها مرة أخرى
بعد إخفاقي يوم أدمى قلوبنا الأستاذ صلاح، وهو يتحدث بنشيج يمزق
القلب عن علاقته ببدر الميناوي.

ليلتها... كانت الصدمة بهول الحريق الذي أودي بحياة 40 فناناً تقريباً
في مسرح بني سويف قاسية جداً، حيث لم أكن مهتماً بما يكفي لمعرفة
محتويات حقيبة هند، لذا عندما عجزت عن فتحها حين اكتشفت أنها تعمل
بأرقام سرية، تركتها جانباً ولم أكرر المحاولة... لكن إلحاح هند الغريب
يدفعني الآن لأفك أسرار هذه الحقيبة! لعلها تحتفظ بصور ورسائل عشيق
لها! أحرقني شعور بالغيرة! لا أدري إن كان هذا الشعور حقيقياً أم مزيفاً؟
صحيح أن هند تعرت أمامي ورأيت، بل ولمست كل كنوز جسدها الظاهرة
والخفية، إلا أنها لم تحبني كما أنني لم أحبها؟ على الرغم من سطوة

رائحتها التي تلتصق بأنفي وجلدي، فمن أين تتسلل عناكب الغيرة إلى صدري؟ وكيف يمكن فهم سخطي الشديد عليها الآن؛ لأنها لم تخبرني بالأرقام السرية لفتح الحقيبة!

لعنة الله عليك يا هند... قسمًا سأحاول حل ألغازك أيتها المرأة اللعوب! أقبلت على مفاتيح الأرقام الثلاثة وحاولت أن أجرب أرقام صفر وصفر وصفر - فلم تفتح.

حاولت مرة أخرى صفر واحد صفر، فأخفقت.. ثم صفر صفر واحد، فكانت النتيجة سلبية. بعد المحاولة العشرين، أيقنت أنني لن أتمكن من فتحها! ففكرت للحظة أن أستعين بسكين حاد، لأشق جلد هذا الغموض، وبالفعل هممت بالذهاب إلى المطبخ، إلا أن رنين الموبايل أوقفني في منتصف الصالة، فعدت إلى حجرتي لأجد أمجد صفوان يدعوني على الغداء، ثم يقول لي:

- بعد عشر دقائق سأكون أمام مدخل العمارة!

سرني جدًا اتصاله، لأنه سيخرجني من حالة الفراغ التي أكابدها منذ الصباح، ألقىت حقيبة هند وأنا أسبها جانبًا، ثم عدت ووضعتها في الدولاب، ودسستها بين ملابس حتى اختفت. بعد ذلك أغلقت الدولاب بالمفتاح، وأنا متردد: هل أخبر أمجد صفوان عن هند وحقيبتها؟

كان شارع الشيخ زايد مزدحمًا بما يكفي، حيث كانت السيارة تتحرك كالسلحفاة وسط سيل من السيارات، تتدفق كلها من ديرة نحو بر دبي حتي تصب في شارع الشيخ زايد في اتجاه أبوظبي. وكان أمجد صفوان

قد نقل هواه من هيفاء وهبي إلى شيرين، فوضع «سي دي» لأغنياتها في السيارة وهو يشرح لي مفاتن أدائها وهي تغني «آه يا ليل» و«لازم أعيش» و«جرح تاني». وكان حماسه يزداد مع بطء حركة السير، فيعلن أن شيرين أهم مطربة في العالم العربي الآن، ودليله أنها ليست فتاة جميلة، ولكن الجماهير تطاردها من حفلة لأخرى، وتقني ألبوماتها بعشرات الآلاف!

لم أكن متحمسًا لشيرين أو لغيرها، بل كنت مشغولًا بحقية هند ومحتوياتها. كما أن البنائات الشاهقة التي تكلل شارع الشيخ زايد من الجانبين كانت تثير إعجابي لنظافتها وسموقها وتصميماتها الفريدة ذات الواجهات الزجاجية عادة! مررنا على فندق كراون بلازاثم مركز مزايا ثم دار الصدى؛ حيث انعطفنا من جانب حديقة الصفا نحو اليمين، لندور مع الجسر نحو الجهة الأخرى من شارع الشيخ زايد.

- هذا مطعم أبو علي.

أشار لي أمجد بفخر وكأنه صاحب المطعم، ثم استطرد:

- اطلب ما شئت... فأنت ضيفي اليوم.

حين كادت عيوني تخرج من محجريهما عندما رأيت «رزمة» المال فئة الخمسمئة درهم التي أخرجها أمجد من جيبه ليدفع الحساب، ضحك بشدة، وهو يقول:

- الخير كثير... أكثر مما تتخيل.

ثم سحب ورقة من فئة المئتين درهم من «رزمة» أخرى، وناولها لي قائلاً:

- هذا ما اقترضته منك... أشكرك.

عندما كنت أستمتع بالرشفة الأخيرة من عصير المانجو، وأنا أتأمل نظافة وفخامة المطعم، لم أكن أتخيل لحظة أن أمجد صفوان الذي ارتدى بدلة كتان بيضاء زادته بهاء وأناقة والذي التهم الطعام بشراهة نمر جائع، ثم عبّ كوبيّن من عصير التفاح بسرعة فائقة، وهو لا يتوقف عن إعطائي النصائح في أن الحياة من دون مال لا معنى لها، وأنه سر البهجة والحبور، والكل يأتي إلى دبي ليصطاد البهجة ويصنع الحبور، أقول لم أكن أتصور لحظة أن هذا الذي أمامي يضج بالفرح والشباب والحيوية، سأراه بعد أقل من خمسة أشهر، يبكي بحرقه ويلطم خديه مثل الثكالي ونحن مكومان في زنزانة واحدة في سجن دبي، وهو يلعن المال والزمن والغربة صارخاً:

- لم أقتلها!... أقسم بالله ثلاثاً لم أقتلها!

سميت الأبراشي

لم أستمر في وظيفتي بكارفور سوى شهر واحد فقط، بعد عودة شقيقي حسن مبتهجًا إلى القاهرة؛ ليتسلم وظيفته في كارفور المعادي. ففي صباح يوم الثلاثاء بئس، استدعاني المدير موسى الوحش.. اتجهت نحو مكتبه يعتريني اضطراب، فليس من عادته أن يستدعي أحدًا إلا لتوبيخه أو معاقبته بلفت نظر أو خصم من راتبه.

استقبلني ببرود ونظرة شماتة، كان يرتدي قميصه الأخضر الفاقع، الذي لا يكاد يغيره ودخان سجائره يعبق فضاء الحجرة، فشعرت بالاختناق. لم يطلب مني الجلوس، بل أعطاني مظروفًا مغلقًا، وهو يقول بنبرة صوته المزعجة:

- يؤسفني إبلاغك أن الإدارة قررت إنهاء خدماتك.

وقبل أن أستفسر عن السبب، أكمل بأداء من يريد أن ينهي الموقف بسرعة، من دون أن ينظر نحوي:

- لقد تحملنا أخطاءك كثيرًا إكرامًا لشقيقك... لكن للصبر حدودًا!

غمغمت بصوت مرتجف، وأنا خفيض الرأس:

- ولكن...

- لا تنس أنك لا تعرف الإنجليزية بالمرة!

آخرستني عبارته بقدر ما أوجعتني، فلم أرد.. كنت أعرف مأساتي مع هذه اللغة الملعونة منذ زمن، ولم أحاول أن أتعلمها وأتقنها كما نصحني منصور كثيرًا. لم أكن بحاجة إليها وأنا هائم على وجهي في القاهرة، وقد أنقذتني هند كثيرًا من مطبات واجهتني أثناء عملي في كارفور بسبب جهلي بها، فكانت تقفز من مكانها لتلتصق بي؛ لتتحدث مع الزبون الأجنبي، الذي يستفسر مني عن أنواع الموبايلات أو مزايا بعضها، فأقف عاجزًا أمامه يعترضني الخجل لا أعني ماذا يقول، ولا أعرف ماذا أفعل، حتى تنتشلني هند من هذا المطب، فتتولى الإجابة عن أسئلة الزبون، بل وتتفنن في شرح خصال هذا الموبايل أو ذاك بلغة إنجليزية سلسلة وأداء مترع بالثقة، ثم تطلب مني - بعد أن تنجح في إقناعه بالشراء - أن أكتب له الفاتورة وأوقعها حتى يُحسب لي أنني قادر على البيع، وتضاف إلى إنتاجي!

لكن يبدو أن أحد زملائي كان يخبر موسى الوحش بخييتي الإنجليزية، وبأن هند هي من تتحدث وتبيع، لا أنا! لعله الباكستاني منير خان، أو لعله أحد الفلسطينيين، وربما يكون نائل أبو شمالة تحديدًا الذي يكره كل البشر، ماداموا ليسوا فلسطينيين مثله! يجوز أيضًا أن يكون الوحش لاحظ ذلك بنفسه عند مروره المعتاد علينا.

عندما خرجت مخذولاً من مكتب موسى الوحش، كان طيف أبي
يتظرني ساخطاً أمام الباب، يرمقني بنظرة احتقار ويقذفني بسهام شتائمه:
«ألم أقل أنك فاشل مهما حاولت»، «هل نسيت تحذيراتي لك، عندما
قررت السفر: الفاشلون فقط من يبحثون عن الرزق خارج بلدانهم».

انهالت شتائم وتوبيخات أبي في قلبي وعقلي ووجداني، وأنا في طريق
عودتي إلى قسم الهواتف، متناقل الخطى.
- أمامك حتى آخر الشهر لتدبر أمرك.

هكذا قال ابن المضاجعة موسى الوحش، وهو يكاد يطردني من مكتبه،
حاولت أن أستعين باسم شقيقي حسن، ولكني لم أفجح، وظللت واقفاً
أمامه كالفار المذعور، وهو يكيل لي الاتهامات من أول جهلي بالإنجليزية،
حتى شرودي الدائم!

استقبلني زملائي في القسم بعيون، تؤكد أنهم كانوا على علم بما
سيحدث لي، ولم يرفق بي أحد منهم. بل راحوا يتغامزون ويوشوشون
بعضهم بعضاً، أو هكذا كان يخيّل إليّ كأنهم مجموعة من الحشرات
المقززة، التي التفت حول بقايا طعام فاسد وراحت تلتهمه بشراهة.

لكن عندما سألتني الباكستاني منير خان بجلافة: «متى ستعود إلى
بلدك؟»، أدركت أنهم كانوا يعلمون، وكانوا ينتظرون!

نظرت إليهم بعيون تصارع الدموع حتى لا تنهمر على الرغم مني،
فاقترب نحوي زميلي اللبناني الذي ربّت على كتفي قائلاً، وهو يشير بيده
إلى السماء: «لا تحزن.. الأرزاق على الله»!

كررت هند هذه العبارة في الليلة نفسها، وهي تواسيني في الموبايل، عندما كان عبد الله راشد يقرأ قصيدته، لكن منصور ابن خالتي لم يتوقف عن تأنيبي ونحن نجلس في مقهى «ذكريات» في مساء ذلك الثلاثاء البغيض؛ لأنني لم أبذل أي جهد لتعلم الإنجليزية، كما كان يلح على ذلك كثيرًا ناصحًا إياي بأنه لن ينجح موظف - أي موظف - في دبي، ليس على دراية جيدة باللغة الإنجليزية، ثم يصرخ في وجهي قائلاً:

- نحن العرب هنا قلة بالقياس إلى الهنود والباكستانيين وغيرهما... ولن تسعفك إلا الإنجليزية.

ثم يستطرد ضاحكًا:

- أو لغة الأوردو... أيهما أسهل لك في التعلم؟

أنقذني مجيء سمية الأبراشي من رماح النقد، التي يطلقها عليّ منصور، منذ جلسنا على مقهى «ذكريات» في تلك الليلة المحزنة.

كانت سمية ترتدي فستانًا أبيض بنصف كم مزدانًا بأوراق شجر خضراء كبيرة الحجم، يصل طوله أسفل الركبة بقليل، وتحمل في يمينها حقيبة يد أنيقة لونها أخضر مثل ابتسامتها الوديدة، فبدت كأنها تتحرك وسط حديقة، لا مقهى!

- لا تحزن يا محمد... ستجد وظيفة.

بادرتني بهذه الجملة وهي تصافحني بيدها الملساء، ثم أعقبت على الفور بغضب، وهي تشير بسبابتها إلى الشيشة:

- ألن تتوقفا عن تدخين هذا السُّم؟

- هوّني عليك يا حبيبتى ... سيأتي يوم ونهجرها.

بسرعة لافتة رد منصور على سمية، التي اكتفت بإيماءة من كتفيها لم أفهم ماذا تقصد بها! هل تستخف بما يعلنه منصور؟ أم تتمنى له أن ينجح في هجر الشيثة؟

لغة الهوى التي تحدثت بها عيون منصور وسمية، وهما صامتان يتبادلان نظرات غرام مستقر ومكين جعلتني أشعر بضآلتي، بل وبغيرة شديدة من ابن خالتي، الذي ينعم بوظيفة مرموقة باعتباره صحافيًا لامعًا، كما أنه يأتنس بالحب وينوي الزواج للمرة ثانية، بعد أن ابتلعت مياه النيل زوجته الأولى!

- ماذا تنوي أن تفعل يا محمد؟

سألّني سمية وهي ترتشف برقة شديدة الشاي بالنعناع الذي تفضله باستمرار، بينما كفها اليمنى تقبع بسكون داخل الكف اليسرى لمنصور؟ انتبهت إلى صوت أم كلثوم، وهي تشدو من مكان ما في المقهى: «ولما أشوف حد يحبك يحلى لي أجيب سيرتك وياه»، لأن سمية همست آنذاك في أذن منصور بكلام لم أسمع، فابتسما سوياً!

كان بادياً لي أنهما يتصرفان كزوجين، أو على وشك الزواج، فسمية لا تتحرج أبداً أن تناديه بـ «حبيبي»، وأن تتركه يلمس جسدها أو يضع ذراعه على كتفها أمام الناس، بل لا تمنع حين يلتقيان أن يمنحها قبلة على خدها كتحية!

لكنني لا أعلم المدى الذي وصلت إليه علاقتهما. وبصراحة أكثر... لا أدري هل أعضاء ورده الجنس بينهما أم لا ؟ وإن كنت أظن أن العجلة التي قرر بها منصور ابن خالتي أن يتخذ قرار الزواج من سمية قد تعود إلى شغفه بها جنسيًا، وأنها رفضت أن تطفئ نيرانه، قبل أن يتم الزواج رسميًا! هذه كلها ظنوني، ولكن المؤكد أن الأستاذ صلاح الغندور كان له دور بارز في تشجيع منصور على اتخاذ هذا القرار! أقصد قرار الزواج بسرعة. كما أن الدكتورة منى رشاد زوجة الأستاذ صلاح قد أفصحت عن إعجابها باختيار منصور؛ إذ قالت مرة، وهي تحثه على الزواج:

- اختيارك موفق يا منصور... سمية فتاة رقيقة وجادة.

وفقًا لما حكاه لي منصور، فإن الأستاذ صلاح وقرينته كانا لهما الفضل في سرعة اتخاذ قراره بالزواج من سمية الأبراشي، بل وقد أكدت له الدكتورة منى رشاد أن هذا الزواج لا يعد من قريب أو من بعيد خيانة للزوجة الراحلة، بل وشرحت له عندما أخبرها أنه يكابد قدرًا من عذاب الضمير؛ لأنه لم ينس صفاء الشرنوبي بعد، على الرغم من غيابها قبل سنوات. فكيف يتزوج من فتاة أخرى؟ بأن قالت له عبارة ظل يرددتها أمامي كحكمة، يجب أن تنتبه إليها.

قالت له الدكتورة منى: «منصور... نحن لا ننسى الذين رحلوا أو غابوا... لكن مع مرور الأيام نتوقف عن أن نحبه!»!

- لم تجبني يا محمد... ماذا تنوي أن تفعل؟

أعادني سؤال سمية إلى مصيبي، ولأنني لا أملك إجابة، فقد اكتفيت
بمط شفتي إلى الأمام تعبيراً عن قلة حيلتي، ولكن منصور حاول أن يخفف
من مناخ الكآبة، الذي جثم فوق نفسي هائفاً:

- لا تقلق... دبي تحتشد بفرص العمل... وعلينا أن نسعى حتى تظفر
بوظيفة، ثم ... أن...

فجأة، حدثت جلبة في المقهى، أوقفت منصور عن متابعة الكلام، حيث
دخل مجموعة من الشباب المصريين دفعة واحدة وبصحبتهم أصدقاء من
فلسطين وسوريا ولبنان، ولكنهم كانوا قلة على أية حال، واتخذوا أماكنهم
أمام التلفزيون بهمة ونشاط وهم يتصايحون، ثم تبعهم مجموعات أخرى
متفرقة، كلها من المصريين الذين جاءوا ليتابعوا مباراة الأهلي والزمالك
في الدوري كما أخبرنا الجرسون. لم أكن من المهتمين بشؤون الكرة
ونجومها، كما أن منصور ابن خالتي كان يكتفي برصد أحوالها من دون
الإفراط في متابعتها!

انطفاً صوت أم كلثوم فجأة بعد أن قالت «ألاقي قلبي أنا حبه ما جبه
على بال... لا عن هواك له غنى ولا يوم لغيرك مال». بعد ذلك مباشرة
انطلق معلق رياضي بصوت مرتفع من شاشة التلفزيون؛ ليتحدث مع
خبراء رياضيين عن تصورهم للقاء المزمع وإمكانيات الفريقين وخطط
المدربين!

الصخب الذي أحدثه رواد المقهى جعل سمية الأبراشي تشعر بارتباك
واضح، فطلبت أن ننصرف، ولكن منصور أعاد لها هدوءها، وهو يمسك
يديها قائلاً:

- لا تقلقي يا حبيبتي؛ فلنذهب إلى تلك الزاوية بعيدًا عن التلفزيون!

ثم أضاف باسمًا:

- المصريون هم هم في كل مكان... في القاهرة مثل دبي... مهووسون بالأهلى والزمالك!

- وأنت؟

سألته سمية بلهفة أثناء تحركنا نحو زاوية بعيدة في المقهى، لم تمنع الضجيج من أن يصل إلى مسامعنا، ولكنه كان أخف بدرجة كبيرة. بدت سمية كفراشة ملونة وسط غابة من الشوك، وهي تسير بأناة خلف منصور نحو الزاوية، لم تكن هي الفتاة الوحيدة في المقهى، بل كانت هناك فتاتان روسيتان، على الأغلب، جلستا مع رجل يرتدي الزي الشائع للمواطنين الإماراتيين، المكون من جلباب أبيض وغرة وعقال!

كما كانت هناك امرأتان مصريتان ترتديان الحجاب وتدخلان الشيشة بصحبة رجلين يبدو أنهما زواجهما وأصوات الأربعة العالية كانت تشي بجنسيتهم! ومع ذلك، لاحظت سمية الأرق والأجمل، نظرًا لأن المرأتين المصريتين كانتا بديتين بصورة لافتة، بينما الروسيات قد تكونان بائعات هوى لأن مكياجهما كان صارخًا!

لم يكتف منصور بالرد على سؤال حبيبته بشأن كرة القدم، بل راح يشرح بحماس ما كنت أعرفه منه سلفًا، من أن على المرء المشغول بقضايا أمته أن يهتم بما يشغل بال الغالبية العظمى من الشعب، حتى لو كان لا يوافق ذوقه، أو لا يميل إليه؛ حتى يتسنى له معرفة المزاج العام للجماهير التي

يكافح من أجل التواصل معها والتأثير فيها! ظل منصور يتحدث في هذه المسألة باستفاضة، وكأنه يريد أن يوضح تمامًا لحبيبته الجديدة التي لا تعرف القاهرة إلا من خلال زيارتها في إجازة الصيف، إذ إنها جاءت مع أبيها إلى دبي، وهي طفلة لا يتجاوز عمرها خمس سنوات! يريد أن يوضح لها عالم الكرة في مصر وصراعاته وفضائله، ولكنها قاطعته فجأة وهي تضحك:

- لم تجبني بعد... هل أنت أهلاوي أم زملكاوي؟

بسرعة جابوب على سؤالها:

- أهلاوي طبعًا.

ثم أكمل حديثه عن سبب انحيازه للأهلي؛ «لأنه نادي الفقراء والبسطاء المصريين منذ إنشائه، أما الزمالك فهو نادي الأرستقراطية والبورجوازية المصرية».

لاحظت أن منصور لم يتوقف عن استخدام المصطلحات اليسارية، التي صدّع بها رأسي قبل أن يأتي إلى دبي، وبالتحديد منذ التحاقه بالجامعة وارتباطه بمنظمات يسارية سرية. وقد ظننت خطأ أنه ألقى بهذه المصطلحات، التي جرجرته إلى المعتقل مع المرحوم بدر الميناوي من نافذة الطائرة، التي أقلته من القاهرة إلى دبي، ولكن يبدو أنه لم ينس ولم يتعظ!

- ألا يعتريك الضجر من المفردات اليسارية يا منصور؟

فوجيء بسؤالٍ ونبرة صوتي المحتجة، فتوقف عن تدخين الشيشة، ونظر إليّ مندهشاً وهو يضع «لاي» الشيشة جانباً. ندمت لأنني سألته فقد كنت مستفزاً منه في هذه اللحظة، فأبعدت عيني نحو الكتلة البشرية، التي تحدّق في التلفزيون ذاهلة وكأن على رؤوسهم الطير، ولكن سمية أفلتتني من نظرة عينيه وهي تضحك، وتشير نحوي:

- أنت أيضاً... تنزعج من «البورجوازية والإمبريالية والبروليتاريا».

دهشة منصور من كلامي انقلبت فجأة إلى ضحكة رائقة وصافية، فازداد وجهه إشراقاً وبهاء؛ الأمر الذي دفع سمية الأبراشي إلى أن تنظر إليه بتدله لم تتمكن من كتمانها، أو لم تخجل من الإفصاح عنه، وهي تمسك يده بكلتا يديها بفرح زوجة في طور الإعداد!

- يا حبيبتى... هذه مصطلحات علمية، تشرح بوضوح أوضاع الصراع الطبقي في الـ...

- هـ «الصراع الطبقي»... مازلت تردد المفردات نفسها!

قالت سمية ذلك صارخة وكأنها ضببطته متلبساً بجريمة، ولكن ابتسامتها الحانية لم تغادر شفثيها حتى وهي تبدي احتجاجها على تعبيرات منصور، الذي عاد إلى ضحكته، أو عادت إليه ضحكته، وكأنه نسي ملاحظتي، وظل يوجه حديثه نحو سمية الأبراشي، بعد أن اعتدل على مقعده ليصبح مواجهاً تماماً لها قائلاً:

- يا حبيبتى... أنا لا يهمني في هذه الدنيا إلا أن يزول الظلم، ويتحقق العدل بين الناس، لا يهمني إلا أن يُنصف الفقراء في بلدي مصر، وفي العالم كله!

- وأنا أيضًا أحب الفقراء وأعطف عليهم.

تحولت نبرة سمية إلى الجدية وهي تتحدث بهذه العبارة، ولكنني ابتسمت بيني وبين نفسي وأنا أتعجب من تعليقها على منصور «ماذا تعرفين أنت عن الفقراء يا سمية؟ أسرتك تمتلك فيلا في مدينة 6 أكتوبر وأخرى في المعمورة بالإسكندرية، لا تقيمون فيهما أكثر من شهر كل عام، بينما تقطنون فيلا فاخرة هنا في القصيص، فأين أنت من الفقري ابنة المهندس الكبير والطبيبة الناجحة؟ إن سيارتك المرسيدس قابعة في الموقف أمام المقهى الآن، فكيف تتحدثين عن الفقر؟ هل سمعت يا سمية عن شبرا الخيمة؟ هل تجولت مرة في حواري وأزقة دمنهور شبرا؟ هل ركبت مرة أوتوبيس 26 أو 913... أو حتى ميكروباس المؤسسة أو المظلات؟ هل انتظرت مع المنتظرين، ثم انحشرت مع المنحشرين، وسال منك عرق ذي رائحة كريهة، وأنت تحاولين الانفلات من تكدس البشر؟ أو عصفت بأنفك الدقيق روائح البسطاء والمحتاجين، الذين تكوموا داخل الأوتوبيس، وهم يلعنون الزمن والأيام والحكومة؟

لقد صدق منصور حقًا وهو يقول لي إنه مرتعب من ثرائك الفاحش، وأنه يخشى عليك من فرط رقتك وأموال أسرتك، ولكن الغريب أن منصور مازال يكرر كلامه عن الفقراء وانحيازه لهم وكأنه مازال يقطن في دمنهور؟ أين أنت الآن من الفقري منصور؟ لقد ذقت لذة النعيم في دبي، وامتلكت سيارة ما كان أبوك مدرس التاريخ الجليل يحلم بأن يقتني عشرها؟ تتحدث عن الفقري ابن خالتي... ترى كم أصبح رصيدك في البنك الآن بعد هذه السنوات يا ابن شبرا الخيمة؟ وكم حصدت من سنابل

المجد كصحفي لامع؟ لقد كان أمجد صفوان محققًا، وهو يؤكد لي «المال سر السعادة... والكل يأتي إلى دبي ليصنع السعادة»!

كلهم مغمورون بالحبور إلا أنا، المطرود من وظيفتي والذي لا أعرف كيف سيمضي بي الزمن هنا، بل لا أعرف أين سأبيت بعد أيام، عندما أترك شقة كارفور».

«أوه.. جووول» .

أفقت من شرودي على صيحات رواد المقهى التي انطلقت دفعة واحدة كسيل انهمر من السماء فجأة، لقد أحرز الأهلى هدفًا أهاج أتباعه وأطربهم، فوصلنا - نحن الذين نجلس في الزاوية بعيدًا - صخب شديد أفسد علي شرودي، وأربك العاشقين اللذين مازالا يتحدثان عن الفقراء والصراع الطبقي!

قام منصور مسرعًا ليشاهد إعادة الهدف، ثم عاد وهو يطلب من الجرسون تجديد نار الشيشة، وأن يحضر لنا شايًا آخر!

- متى ستنصرف... يبدو أنه لن يأتي!

سألته سمية وهي تنظر في ساعتها، ثم عبثت بكوب الشاي الفارغ بيدها؛ حيث كانت تنقر عليه نقرات متفرقة بأظافرها، محدثة صوتًا ناعمًا ورقيقًا.

نظر إليها منصور مبتسمًا، وهو يقول لها بحسم:

- لا... عبد الله راشد ملتزم دومًا بمواعيده!

ثم جذب نفسًا عميقًا من الشيشة، تاركًا إياي حائرًا أتساءل: مَنْ عبد الله راشد هذا؟

19

عبد الله راشد

أول مرة رأيت فيها عبد الله راشد كذبت عليه... سألني أين تعمل؟
فقلت: في كارفور، على الرغم من أنني استلمت رسالة إنهاء خدمتي من
ابن الكلب موسى الوحش في صباح ذلك اليوم.. آنذاك صوّب منصور ابن
خالتي رصاص عينية نحوي مندهشاً من قدرتي على الكذب، أما سمية
الأبراشي التي كانت على وشك الانتهاء من كوب الشاي الثاني، فقطبت
جبينها احتجاجاً علي كذبتني، التي لم تجد لها تفسيراً.

وقد قالت لي ذلك فيما بعد مؤكدة «إن إنهاء الخدمة أو حتى الطرد من
الوظيفة ليس سبّة، يداريها الإنسان أو يخجل منها».

أما منصور فقد ظل يضرب كفّاً بكف، بعد انصراف عبد الله راشد،
متهمًا إياي بأني إنسان غريب ومن الصعب تعليل سلوكي!

لم أשא أن أرد عليه، ولكن سمية الأبراشي التي أيدت كلامه، راحت
تخفف من حدته تجاهي هامسة بصوت سمعته جيداً:

- دعه وشأنه اليوم.

لم يجلس عبد الله راشد معنا في مقهى «ذكريات» سوى نصف ساعة فقط، بدأها باعتذار عن تأخره عشر دقائق بسبب حادث فوق جسر المكتوم عطّل المرور، ثم تناول قهوة تركي سادة من دون رغبة كبيرة، وهو يقرأ بصوت رخيم آخر قصائده التي أعجبت منصور وسمية كثيراً... وقد وعده منصور بأن يطلعها على الأستاذ صلاح الغندور غداً؛ لتتشر في الملحق الثقافي الأسبوع القادم.

كانت هذه المرة الأولى في حياتي التي أجلس فيها مع مواطن إماراتي، على الرغم من أنني قضيت أكثر من عامين في دبي، كنت أرى خلالها الإماراتيين، وهم يتسوقون في سيتي سنتر دبي، خاصة الشباب منهم الذين يطلقون شعورهم لتصل حتى الكتفين، كانوا يرتدون زيهم المحلي المعتاد، والمكون من جلباب أبيض يقال له «كندورة» وغترة بيضاء أيضاً وعقال، أما أقدامهم فتستقر داخل «شبشب» جلد، ونادراً ما كنت أرى أيًا من هؤلاء الإماراتيين - كباراً أو صغاراً - يتتعلون حذاء من أي نوع!

كنت أسمع عنهم أنهم طيبون، بل أطيب أهل الخليج كافة، يشاركونهم في ذلك العمانيون. وكنت أستشعر هذا الأمر من خلال متابعتي لهم، وهم يتجولون في سيتي سنتر، على الرغم من أن أعدادهم كانت قليلة جداً، بالقياس إلى كثافة الذين يرتادون المركز التجاري الضخم!

كانوا يتحركون بهدوء وببطء، يؤكد خلو بالهم من الهموم وحسن سلوكهم ورقتهم؛ وكان هذا البطء أو ذلك الهدوء في حركتهم يغيظني أحياناً، فكان منصور يفسر لي السبب نقلاً عن الأستاذ صلاح، بأنهم

مرتاحون ماليًا، وأن القيظ الشديد هنا عوّدهم على هذا الإيقاع الهادئ، حتى لا يتعرقون والماء شحيح في الصحراء!

مع الوقت كنت أعتاد على مرآهم وإيقاعهم البطيء، بل كنت أحب أن أتلصص أحيانًا عليهم، فأسترق السمع ماذا يقولون إذا مرّوا أمامي في قسم الهواتف؟ وماذا يأكلون إذا ذهبوا إلى ركن المطاعم الضخم في سيتي سنتر؟ فكان الفتیان منهم، مثل كل فتیان العالم الآن، يهرعون نحو مطاعم الوجبات الأمريكية السريعة مثل الكنتاكي وماكدونالدز.

أما نساؤهم وفتياتهم، فكنت أراهن يتجولن في سيتي سنتر بهدوء، يفوق هدوء رجالهن وفتياتهن! وكن يرتدين العباية السوداء «الجلباب»، بينما يضعن فوق رؤوسهن قطعة من قماش حريري تسمى «الشيلة»، تشبه الحجاب عندنا في مصر، بعضهن يبالغن في إحكام هذه «الشيلة» حتى لا تظهر من تحتها شعرة واحدة من رؤوسهن، وبعضهن يتراخين في ضبطها، فتسدل شعورهن الناعمة فوق جبينهن فيرفعهن بلفتات ناعمة وساحرة!

في الليلة التي كذبت فيها على عبد الله راشد، كنت أراقبه وهو يلقي علينا قصيدته التي كان يحفظها عن ظهر قلب، فلم يستعن بورقة يقرأ منها، بل صافح منصور وسمية بود يؤكد معرفته بهما جيدًا، ثم صافحني باحترام، ومنصور يخبره بأننا أولاد خالة.

سأله منصور ماذا يشرب، فاعتذر شاكراً، ولكن مع إلحاح منصور: قال عبد الله راشد من دون حماس: قهوة!

لاحظت أنه يتحدث معنا بلهجة مصرية، وإذا اضطر أن يستخدم مفردة محلية، سارع وأتى بما يقابلها في لهجتنا، وهو يتبسم.. بدا لي من ملامحه الهادئة وعينه الناعستين وصوته الخفيض أنه شخص مزود بقلب رحيم، أنفه الكبير بصورة ملحوظة لم يكن منفراً، بل يمكن الاعتياد على رؤيته، وفق تناسب وجهه الممتلئ قليلاً. كان عبد الله راشد من الذين يهتمون بتشذيب شواربهم ولحاهم، لذا يمكن القول بأنه شاب وسيم وأنيق؛ خاصة أن جلبابه الأبيض لاح لي كأنه خارج من تحت المكواة تَوًّا. لم أتمكن من تحديد عمره، فالغتره والعقال يخدعان الرائي، إذا لم يكن متعوداً عليهما! ولكن أكثر ما أثار انتباهي أثناء جلوسنا في المقهى في تلك الليلة هو هذا الأريج المنبعث من الرجل، لم أشم رائحة مثلها من قبل، كانت رائحة فوّاحة ومنعشة على الرغم من هدوئها، الحق أقول لكم: لقد آنسنت له ولملامحه وعطره وصوته الرخيم.

فور الانتهاء من قراءته لقصيدته، رنّ الموبايل الخاص بي، كانت هند، فاستأذنت بحركة لا إرادية من رأسي وخرجت من المقهى مسرعاً بعيداً عن الصخب. كنت قد اتصلت بها في الظهيرة، عندما طردني موسى الوحش لأخبرها بأحوالي ومصيبي، فلم ترد. قلت لها ما حدث وكيف أنهم أنهوا خدماتي، فلعنت أمهاتهم بأفزع السباب التي تعودت عليها، بعد أن كانت تذهلني في البداية جراتها في استعمال مفردات غاية في البذاءة، ثم هتفت مواسية لي: «لا تحزن... الأرزاق على الله»، واتفقنا على أن نلتقي غداً.

حين عدت إلى مجلسي في المقهى، كان عبد الله راشد يخرج من جيبه ورقة، كتب فيها قصيدته وناولها لمنصور، ثم راح يوجه سؤالاً إليه وإلى سمية، وهو يتسم:

- متى سنشرب «الشربات»؟

قالها بلهجة مصرية صحيحة، فأيقنت آنذاك أنه على علاقة طيبة بمنصور على الأقل، وعندما جاوبه منصور، وهو يرمق حبيبته بنظرة حالمة بأنه قريباً سيشرب «الشربات»، نظر نحوي، كأنما يراني لأول مرة، وسألني:

- أين تعمل يا أستاذ محمد؟

على الفور كانت إجابتي جاهزة:

- في كارفور.

لا أعرف لماذا كذبت عليه حينئذ.. ربما لم أشأ أن يراني عاطلاً في أول لقاء بيننا، فيشفق على حالي أو ربما حاولت أن أبدو أمامه أنني إنسان ناجح، مثل منصور ابن خالتي الذي يعامله باحترام، أو ربما خرج مني الجواب من دون تفكير وبحكم العادة! لا أدري!

لكن التقرير الذي صبه على رأسي منصور ابن خالتي، لأنني كذبت على الرجل الشاعر، لم يشعرني بالندم، أو بالذنب آنذاك، بل جعلني أشعر بغصة وخرج فيما بعد، حين تعرفت على عبد الله راشد أكثر؛ لأنه كان الوحيد في كل الإمارات الذي ساعدني بحق، فلا منصور ابن خالتي ولا صلاح الغندور ولا هند المغربية ولا أمجد صفوان ولا أي أحد مدّ لي

يد العون، مثلما فعل عبدالله راشد. عندما وصلتني ونحن نجلس جميعًا على مقهى ذكريات، بعد ذلك بأسبوعين، رسالة على الموبايل من أختي ثريا مكونة من كلمتين اثنتين فقط زعزت كياني كله، حتى أن عبد الله راشد لم يستح، وهو الذي لم يعرفني بعد كما ينبغي، أن ينهض ويحتضنني بقوة، ثم يربت على كتفي برفق، مثلما فعل منصور والأستاذ صلاح، وهو يهمس بصوته الرخيم:

- شد حيلك... البقية في حياتك.

كانت رسالة ثريا تقول:

«بابا مات».

20

سيؤول

طوال حياتي كنت مسكوناً بيقين كبير بأن اشتداد الأزمات على المرء يعقبه دومًا انفراج وانفتاح، وأنه ليس من العدل أن يتركنا الله هكذا نهبًا لمشكلات عويصة تضعضع منا الروح، وتفسد علينا الحياة، وهو الذي قال في قرآنه الحكيم «إن مع العسر يسرًا، إن مع العسر يسرًا».

هذا الإيمان بأن فرج الله قريب هو الذي حماني من الانهيار النفسي من جرّاء قسوة أبي وشتائه لي منذ طفولتي المبكرة، وهو الذي حماني أيضًا عندما لم أجد عملاً في مصر إلا بشق الأنفس، على الرغم من أنه كان عملاً وضيعاً... مجرد «قهورجي»! وهو الذي هدّأ من روحي حين طردني موسى الوحش من وظيفتي، في صباح يوم لعين، وهو الذي ثبت من عزيمتي حين قبضوا على هند بتهمة الاتجار في المخدرات، بينما حقيقتها المليئة بالحشيش ساكنة في دولابي! بل هذا الإيمان نفسه هو الذي ضبط أعصابي ووقاها من الانفلات، حين وضعوني في سجن دبي مع أمجد صفوان بتهمة قتل إيرينا الروسية!

الأغرب أن إيماني بقدرة الله هو الذي نجّاني من تدمير نفسي هائل،
كاد يعصف بكياني كله، وأنا أرى ذكورتني مستباحة، ولا فائدة منها، على
أسرة هند وإيرينا وسوما، بل هو الذي أعاد إليّ ذكورتني، أو أعادني إلى
ذكورتني، فاستطعت أن أضاجع زوجتي، كما يفعل الرجال بالنساء، بعد
عذابات نفسية دامت ستة أشهر، منذ ليلة زفافنا قبل عام!

هذا الإيمان بقدرة الله على نجدتي دوّمًا، كان محط سخرية لاذعة
من منصور، فأنتم تعلمون أنه لم يكن من المؤمنين. ومع ذلك كان شديد
الحذر، عند انتقاده لسلوك المتدينين، أو بالأحرى حين يرى الناس منصاعة
لأقدارها بحجة أن هذه إرادة الله. وكان لا يعتريه يأس أبدًا من تفنيد هذه
الأفكار المستكينة والآراء الانهزامية كما كان يسميها!

كنت أنصت إلى اتهاماته الموجهة نحو هذه الأفكار بتركيز شديد؛ حيث
كان يؤكد أن معظم السلوكيات والآراء المتخلفة، والتي ترتدي مسح
الدين هي وليدة فكر شائع في هذه المنطقة، وكان يقول إن المصريين الذين
جرحتهم هزيمة 1967، والذين أضناهم الفقر والعوز؛ فسافروا إلى منطقة
الخليج هم الذين عادوا بهذه الخرافات والخزعبلات باسم الدين، حتى
أنهم فرضوا على نسائهم زنيًا يعود إلى قرون خلت، معتبرين أن الحجاب
رمز للإسلام! وهو اختزال - كما يقول ابن خالتي - مرفوض!

كنت أدرك أيضًا أن كلام منصور لا يعود إلى قناعاته الفكرية فحسب،
بل إنه تأثر بآراء اثنين أكبر منه سنًا، هما المرحوم بدر المنيأوي في القاهرة،
والأستاذ صلاح الغندور هنا في دبي. وكنت أحاول مجابهته وتفنيد

آرائه قدر طاقتي، وأشهد أنه كان قوي الحجة والبراهين، يسألني أسئلة لا أملك إجابة لها، فاستعد بالله وألوذ بالصمت، فيضحك هو ساخرًا من جهلي وتديني الفج كما كان يسميه. ولا أنسى أن أخرجني مرة أمام سمية الأبراشي - التي أظن أنها تشاطره الأفكار الجريئة نفسها - حين سألني من دون داع:

- محمد... لماذا لا توجد دولة إسلامية متقدمة؟

كنا نتناول العشاء في مطعم دانيال الكائن في مركز مزايا في شارع الشيخ زايد، وكان قد عودّني دومًا على أن يدعوني إلى مثل هذه العزائم، بين حين وآخر من باب الكرم، ورفقًا بحالي وراتبي الضعيف - وقد حاولت مرة أن أتولى أنا دفع الحساب، فرفض بشدة من دون أن يتخلى عن ابتسامته الوضيئة هاتفًا:

- ألا تستحي... نحن أبناء خالة وأصدقاء، وأنا أعلم تمامًا مقدار راتبك يا محمد.

- ولكن.

بحزم قال لي:

- انتهى الأمر... أنت ضيفي في أي مطعم أو مقهى، مادمنًا في دبي.

لم يكن هذا الكرم غريبًا عليّ، فطوال علاقتنا كان منصور يمتلك من المال أكثر مني بكثير، وكان لا يجد أي غضاضة في أن يقرضني بعضًا منه، من دون أن يحاول استرداده مرة أخرى، وقد زاد هذا السخاء وذاك الكرم معي عندما جئت إلى دبي، وعند دخولي السجن، بعد أن ذاق منصور لذة

المال الوفير.. صحيح أنه ساعدني غير مرة بمبالغ متوسطة، ولكنه رفض أن يستردها حين حاولت، كما رفض تمامًا أن أتولى دفع الحساب في أي مطعم أو مقهى.

عندما سألني في مطعم دانيال عن السبب في عدم وجود دولة إسلامية متقدمة، لم أجد إجابة، لأنني لم أفكر في هذا الأمر من قبل، فقلت كلاً ما أدرك أنه معتاد ومكرور، وأنه سيدحضه على الفور، قلت:

- لأننا ابتعدنا عن ديننا.

- ولماذا ابتعدنا عن ديننا؟

مرة أخرى لم أجد إجابة، فقممت بحجة أنني سأحضر لنفسي المزيد من الأرز واللحم مادام «البوفيه» مفتوحاً.. كنت أقول ذلك وأنا أبتسم، وحين عدت قذفني منصور بسؤال ثالث، قبل أن أضع الأرز في فمي:

- هل رأيت أمة متقدمة تضع نساؤها حجاباً فوق رؤوسهن؟

هنا ضحكت سمية الأبراشي بشدة، فلاحت أسنانها البيضاء المنتظمة كالآلى مضيئة. قلت مستفهماً، وأنا أتلذذ بطعم الأرز الإيراني المخلوط باللحم:

- ماذا تقصد؟

ازدرد منصور قطعة بطيخ، وهو يشرح ما غمض عليّ:

- الحجاب ليس مجرد زي تضعه المرأة، بل هو تعبير عن رعب من كل ما هو جديد، فالتني تداري شعرها، تغلق عقلها أيضاً وتعطله عن التفكير والتأمل.

لم يعجبني كلامه، فصرخت بصوت، انتبه له الجالسون حولنا في
المطعم، فالتفتوا نحونا مندهشين:

- يا سلام!

انبرت سمية الأبراشي للدفاع عن أفكار منصور، وقد لاحظت أنها
تأكل على مهل وكميات قليلة، ولعل ذلك ما جعلها تتحرك داخل قوام
متناسق ورشيق!

قالت سمية بحماس وبإيقاع صوتي سريع «إن الحجاب إهانة للمرأة
وللرجل معاً... ذلك أنه يختزل المرأة إلى مجرد شيء مثير للرجل، وهذا
خطأ، فالمرأة كائن حر له عقل وفكر، كما أن الرجل الذي يرى المرأة
مجرد جهاز إشعال لغرائزه؛ فهو يهين نفسه ويحوّله إلى حيوان يلهث،
خلف تلبية رغباته الجنسية ليس إلا... ثم أنه ليس من المعقول أن جداتنا
نزعن الحجاب مع ثورة 1919؛ أي قبل أكثر من 80 سنة... لتدخل المرأة
معترك الحياة، فتتعلم في المدارس والجامعات، وتصبح طبيبة ومهندسة
ووزيرة وسفيرة وعالمة.. ثم يأتي الآن من يقول لها ضعِي الحجاب...
فشعرك عورة... والأفضل أن تعودِي إلى البيت».

كانت سمية تتحدث بغضب حقيقي... وكانت حروفها من سرعة
أدائها تتعثر على شفيتها أحياناً، كما أن حركة رأسها أثناء كلامها أسقطت
خصلات من شعرها على جبينها وعينيها.

منصور، الذي قام ليحضر لنفسه مزيداً من البطيخ الذي يعشقه، عاد مع
نهاية الكلام ليوقفها بإشارة من يده، وهو يسألني غامزًا بعينه اليسرى:

- قل لي بصراحة يا محمد... هل ما يثيرك في المرأة شعرها... أم أن هناك أشياء أخرى؟

أدهشني سؤاله وأربكني، أما سمية فغمرها خضر البنات الذي أشعل خديها حمرة، فنظرت إليه معاتبة برفق، ثم حاولت أن تبدو كما لو كانت مشغولة بالطعام، وهي تنظر في الطبق الذي أمامها عابثة بأدوات المائدة.

«تسألني ما الذي يثيرني في المرأة؟ أه لو تعرف يا منصور حكايتي بأكملها مع النساء! لقد رأيت كل شيء يا ابن خالتي... رأيت الشعر والعنق والنهد والبطن والفرج والفخذ والعجز والمؤخرة.. كل شيء رأيتَه ولمسته، وما استطعت إلى النساء سبيلاً... أه لو تعرف مأساتي يا منصور، ما سألتني هذا السؤال».

- أليست «الأشياء» السفلية... هي ما تثيرنا يا محمد نحن معشر الشباب؟ أخرجني منصور من شرودي بهذه العبارة التي نطقها... وهو يضغط على حروف كلمة «الأشياء» حرفاً حرفاً؛ الأمر الذي دفع سمية الأبراشي لأن تقف فجأة وهي مرتبكة، من فرط الحرج. نظرت إلى منصور بغضب مكتوم مخلوط بابتسامة قلقة، ثم انصرفت نحو البوفيه بحركة سريعة!

«الأشياء السفلية... وآه من عذابي من الأشياء السفلية يا منصور... كفاك كلاماً من فضلك... فالوجع يحاصرني من كل النواحي، فلا عمل، ولا امرأة ولا ذكورة. اصمت... أرجوك».

- هه... لم تخبرني: ما الذي يثيرك في المرأة؟

لم أرد، لأن سمية الأبراشي ألقت عليّ سؤالها، قبل أن تصل إلى المنضدة حاملة بعضاً من الفواكه:

- محمد... ألم تفكر لحظة... لماذا ينعم الغرب بلذة التقدم، بينما نحن المسلمون نقبع في ذيل القائمة، ونحن مرتاحون!

تناولت بعضاً من البيسي، بينما تولت سمية الإجابة عن سؤالها:

- المرأة هناك حرة... لا حجاب... ولا قهر ولا غيره... إنها تشارك الرجل في كل شيء... لذا تضاعفت الطاقة الخلاقة للمجتمع عندهم.

- ولكن الحجاب يا سمية... فرض أمر به الله النساء بارتدائه في القرآن الكريم.

تدخل منصور، وهو يضع الشوكة في طبق البطيخ بحدة هاتفاً:

- أتحدى أي إنسان أن يستخرج لي سورة من القرآن تبشر، التي ترتدي الحجاب بدخول الجنة، وتندر التي لن تضعه بمصير جهنم!

فاجأني كلام منصور، ولأني لا أحفظ من القرآن الكريم إلا أبسط السور وأصغرها، فلم أجرؤ على مواجهة التحدي، ولكني سألته:

- هل شيوخ الدين الذين يؤكدون على أن الحجاب فرض على المرأة لا يعلمون ذلك؟

كنت أعرف أن منصور قارئ نهم للقرآن، وأنه يحفظ الكثير من آياته، لا من باب التدين، بل كما كان يقول لي: «حتى أعرف سر إيمان الناس به، وحتى أتعلم منه فنون البلاغة العربية»، كما أنه قرأ الأناجيل الأربعة في

العهد الجديد، علاوة على العهد القديم... كنت أعرف كل ذلك؛ لذا حين سألته عن الشيوخ ومدى معرفتهم بالحجاب، كنت أدرك أنه سيهتمهم بالجهل أو النفاق.. لكنه حين بدأ يرد، رن هاتفه، فعرفت من حفاوته بالمتصل به أنه الأستاذ صلاح الغندور، الذي دعانا إلى مقهى «ذكريات» فوراً، ليحكي لنا مشاهداته في كوريا الجنوبية، التي زارها لمدة عشرة أيام وعاد منها فجر اليوم.

حاولت سمية أن تعتذر عن الذهاب معنا؛ لأنها قد تتأخر عن العودة إلى منزلها، ولكن من دون جدية كبيرة، وفي نهاية الأمر أقنعها منصور بالجلوس فترة ثم الانصراف. التقينا جميعاً في «ذكريات»، حيث فوجئنا بالأستاذ صلاح قد سبقنا ومعه عبدالله راشد، صافحني صلاح الغندور بحرارة، وهو يقول:

- لم نرك منذ زمن... سنعد لسهرة قريباً... وأنت أول المدعوين.
- وأنا؟

هكذا تساءل عبد الله راشد ضاحكاً:

- أنت صاحب بيت أيها الشاعر الجميل... لا تحتاج إلى دعوة!
بدا الخجل واضحاً على عبدالله، الذي ظل يتمتم بعبارات شكر، تؤكد امتنانه للأستاذ صلاح الذي منحه فرصة لنشر قصائده والظهور بقوة كشاعر إماراتي شاب، يمتلك موهبة حقيقية.

كان المقهى هادئاً إلى حد ما، فرواده قليلون في هذا الوقت من الصيف القاطظ، والرطوبة الخانقة لا تشجع الناس على الخروج من منازلهم بعد

العودة من العمل. وقد تهادى صوت أم كلثوم في خلفية المكان، وهي تتساءل: «جددت حبك ليه.. بعد الفؤاد ما ارتاح».

يجب أن أعلن لكم بصراحة أنني من أشد المعجبين بأناقة الأستاذ صلاح، فما من مرة رأيته فيها، إلا ولففت انتباهي هذه القدرة في انتقاء ملابسه؛ حتى يبدو في كامل بهائه.

في تلك الليلة مثلاً كان يرتدي جاكيت أبيض سبور من الكتان، تحته قميص أزرق نيلي، وبنطلوناً كحلياً، فبدالي أنه من نجوم السينما أو الإعلام، الذين لا نراهم إلا على الشاشة فقط.

فور جلوسنا أخرج الأستاذ صلاح من حقيبة ورقية أنيقة، كانت معه، هدايانا التي أحضرها من كوريا الجنوبية، وكانت كلها عبارة عن تماثيل خشبية لبوذا في أوضاع وأحجام مختلفة، لكنه وهب منصور وسمية هدية إضافية عبارة عن تماثيل صغيرين من حجر لإلهين ذكر وأنثى، يرمزان إلى الخصب والنماء عند الكوريين القدماء، ثم قال لهما باسمًا:

- هيا... أسرعاً وتزوجا حتى يرضى عنكما بوذا وآلهة الكوريين.

كانت سمية أكثرنا فرحاً بالهدايا، فظلت تتأمل بوذا الخشبي والآلهة الحجرية طوال الجلسة، أما أنا فكنت فرحاً لأن الأستاذ صلاح تذكّرني بهدية، وإن كنت لا أعرف ماذا سأفعل ببوذا الجالس بجثمانه الضخم وابتسامته شبه البلهاء، فأنا على وشك الطرد من السكن خلال أسبوع ولا أعلم أين ستقذف بي المقادير، ولا ماذا سأفعل بأشياء المتواضعة من ملابس وخلافه!

في هذه الليلة سرد لنا الأستاذ صلاح بحبور شديد مشاهداته في كوريا الجنوبية، حيث قال إنهم شعب مهذب جدًا وعملي جدًا، موضوعًا أنهم كانوا من أفقر ثلاث دول في آسيا عام 1961، والآن هم من أغنى عشر دول في العالم، وأن متوسط دخل الفرد يزيد عن 22.500 دولار سنويًا، في حين أن متوسط دخل الفرد في مصر مثلاً لا يتجاوز 1200 دولار سنويًا فقط! فقاطعه منصور ضاحكًا «أي إن الإنسان الكوري يساوي 20 مصريًا». ضحكنا جميعًا باستثناء الأستاذ صلاح، الذي اكتفى بابتسامة مجاملة أطلقها في وجه منصور، ثم أكمل حديثه عن الكوريين شارحًا لنا مدى افتتانهم بالزهور، التي يبتكرون منها أشكالاً مذهشة على شكل بشر وطيور وفراشات إلى آخره، يزينون بها شوارعهم وطرقاتهم؛ الأمر الذي يجعل السير في الطرق العامة مسألة ممتعة للبصر؛ خاصة أن المناخ هناك مسالم والهواء نقي ينعش الصدور!

كان الأستاذ صلاح الغندور يتكلم بحماس يبين لدرجة أنه نسي أن يتناول الشيشة، فوضعها جانبًا حتى لا تعطله عن مواصلة الحديث. أما نحن، فكنا منبهرين بما يقوله العائد من سيؤول، خاصة وأن الأستاذ صلاح يتحدث بصوت رخيم يسر الأذن ولغة جزلة بسيطة وشائقة، حتى أننا لم نشعر بطعم ما نتناوله من شاي أو شيشة، حتى وصل في كلامه عن الدستور الكوري، فنظرنا له شاخصين!

قال الأستاذ صلاح: إن الكوريين الجنوبيين الذين وصل عددهم إلى نحو 50 مليون نسمة، ويعيشون في مساحة صغيرة جدًا، تكاد تماثل مساحة

شبه جزيرة سيناء... هذا الشعب المكافح والدؤوب تمكن من وضع مادة في الدستور، لا أظن أن لها مثيلاً في أي من دساتير العالم.

ثم سكت الأستاذ فجأة، وراح يتناول رشفة من الماء أعقبها بمثلها من الشاي، بعد ذلك مرّ بعيونه على وجوهنا جميعاً، متأملاً لهفتنا في معرفة نص هذه المادة؛ حيث كانت عيوننا كلنا مصوّبة نحو فمه تنتظر، ولكن منصور لم يطق صبراً فبادره هاتفاً:

- ما هذه المادة يا أستاذ صلاح؟

- صبراً... لقد جفّ ريقِي... سأواصل فوراً.

اعتدل الأستاذ صلاح في مقعده، قبل أن يقول لنا: إن الدستور الكوري ينص على أن «على الدولة أن توفر لجميع المواطنين حق التمتع بالسعادة»! ثم صمت وكأنه يختبر مدى شغفنا واهتمامنا بما قصّه علينا!

قبل أن ينبري عبدالله راشد للكلام، وزع عينيه بين منصور والأستاذ صلاح متعجباً:

- ولكن السعادة نسبية... فكيف يمكن توفيرها؟

ابتسم الأستاذ صلاح برفق، وهو يرت على كتف عبد الله، ثم قال بصوت لا يخلو من شجن: «معك حق يا عزيزي، ولكن علينا أن نعي تماماً أنه من المستحيل أن يكون هناك إنسان سعيد، وهو لا يجد عملاً أو مسكناً لائقاً أو تأميناً صحياً أو مدارس صالحة لأبنائه... هذه هي المتطلبات الأساسية لأي مواطن، ومن دونها من الصعب أن يمسك بطائر السعادة، والدولة هناك توفر كل ذلك للجميع».

سكت الأستاذ صلاح، فانتبهنا إلى أم كلثوم، وهي تخاطب حبيبها «انت
النعيم والهناء... انت العذاب والضنا»، فشرد كل منا مع نفسه مستعيداً ما قاله
الرجل، أما أنا فقد تحسرت على حالي، هناك يوفرون العمل والمنزل، وأنا
هنا لا عمل ولا منزل، ثم خرج صوت منصور فجأة ليبدد سكون جلستنا،
وهو يضحك:

- لو لم أكن مصرياً لوددت أن أكون كوريًا!

لم أر عبد الله راشد يقهقه كما رأيته في تلك اللحظة، فقد أعجبه
التلاعب بشعار مصطفى كامل، وقد فاجأني أنه يعرف هذا الشعار، عندما
سأله منصور إن كانت مرت عليه هذه العبارة أم لا؟

عدوى الضحك انتقلت إلينا جميعاً، حتى الجرسون الذي كان يرفع
أكواب الشاي الفارغة نظر إلينا برهة، ثم شرع في الضحك. وقف منصور
فجأة ليعلن بصوت مدوّ:

- لقد قررت أن نقضي شهر العسل في كوريا.

تواصلت موسيقى الضحك مع نسمة خجل اعترت سمية الأبراشي،
فجذبت منصور من قميصه برفق طالبة منه الجلوس، وهي لا تكاد تنو
إليه، ولكن الأستاذ صلاح نظر إليها مشجعاً:

- ما المانع.. سيؤول مدينة رائعة.

أوقف صوت الرسالة التي وصلتني على الموبايل إيقاع الضحك
تدريجياً، لكن حين قرأتها تغيرت ملامحي تماماً، وانطفأ لون بشرتي
فجأة... سألني منصور بقلق:

- ما الخبر؟

بصوت خفيض ومنكسر وحروف مهشمة، قلت له:

- أبي مات... إنها ثريا.

كل ما أذكره من وقائع تلك الليلة أنهم احتضوني وطبوا خاطري،
وقدموا لي واجب العزاء بصدق، حتى عبد الله راشد شدّ على يدي بقوة،
ثم ضمّني إلى صدره، وهو يواسيني... أما منصور ابن خالتي، فقد أخذني
لأبيت معه، من دون أن أعترض.. لكن النوم لم يداعب عيوني، لا في هذه
الليلة، ولا في الليالي الطويلة والمخيفة التي قضيتها بعد ذلك!

21

الورطة

شعاع خجول من الضوء يتلصص علينا من النافذة الوحيدة في الغرفة،
معلنًا قدرته على قهر عتمة الليل وإزاحتها إلى حين، بينما زقزقات العصافير
بدأت تنهمر بقوة من فوق الشجر، الذي يحيط بالمكان إيدانًا بالإقبال على
الحياة، والسعي نحو جلب الرزق!

أما أنا، فمازلت مصوبًا عيني منذ ساعات نحو سقف الحجرة الموحش،
التي ألقوا بنا فيها قبل أيام فلا النوم يوافيني، ولا جفوني تطاوعني فتتغلق
على همومها؛ فأنا مسكون برعب كبير مما ستقوله عني عزة سليمان عندما
تعلم بما حدث .

لا أذكر بالضبط منذ متى جرجرونا إلى هنا، مقيدين بأغلال من حديد
«كلبشات»، كأن عقلي توقف عن العمل، أو كأن ذاكرتي سُحقت تحت
عجل المصادفات البائسة، التي أودت بي إلى التهلكة أو تكاد!

وأمجد صفوان لا يفعل شيئًا منذ أن اختتننا بهذا الكابوس، سوى أن
يبكي ويولول ويلطم خديه مثل النساء، أو ينام مهدودًا مكدودًا من شدة

التعب، بعد أن رددت جدران الزنزانة قسمه الدائم بأغلظ الأيوانات أنه بريء!

أما مايكل الفليبي، فقد انزوى بعيداً عنا، بعد أن صفعه أمجد على وجهه بقوة في أول ليلة لنا هنا، حين اكتشف أنه من الشواذ، يبحث عن رجل يدغدغ أنوثته المختبئة تحت جلد شاب أصفر!

لم يكن غيره موجوداً في الزنزانة حين قذفوا بنا داخلها، وعويل أمجد صفوان لا يتوقف، كأنه امرأة ثكلى فقدت ابنها فجأة، وعلى الرغم من أن رجال الشرطة عاملونا برفق شديد منذ أن ألقوا القبض علينا، إلا أن أحدهم لكزه بعنف في كتفه، أمراً إياه أن يكف عن الصراخ والبكاء هاتفاً:

- اصمت... أأنت رجلاً؟

شعرت أن عبارة الشرطي كانت موجهة لي، فأنا الفاقد للرجولة عندما يتعلق الأمر بمضاجعة النساء، حتى وكيل النيابة الذي سألني أمام جثتها المذبوحة عن علاقتي بها... فلم أنطق من هول الصدمة، فنهزني صارخاً:

- أأنت رجلاً... تحدث وإلا كان الإعدام مصيرك!

لم أكن أتخيل لحظة أن أموري التي صارت أهنأ وأهدأ، بعد أن وفر لي عبدالله راشد وظيفة مندوب مبيعات في شركة الحبتور للسيارات براتب معقول جدًّا، يصل إلى 4000 درهم مع العمولات، وبعد أن نجوت من حقبة هند الملعونة، وتخلصنا منها من دون أن يدري أحد، وبعد أن رفف قلبي لأول مرة حول وجه عزة سليمان الصبوح.. لم أكن أتخيل أن أراني متهمًا هكذا في قضية مقتل إيرينا الروسية!

لعنة الله عليك يا أمجد... لماذا قبلت أن أذهب معك مرة أخرى إلى بيتها؟ ولماذا لم أحاول أن أعترض على الرغم من أنني كنت أدرك جيدًا أنه بيت مشبوه، يلتقي فيه سارقو اللذة الجنسية وعشاق الخمر، فيشربون ويتناكحون من دون موارد أو خجل! كنت أعرف، وكنت أمّني نفسي بأنني يومًا عندما أرتاد هذا المكان، وأرى ما أرى وأشم ما أشم من روائح النساء الفواححة، وأتجرع الخمر بغير حساب... آنذاك ستتقدروني ويشتمل جسدي، فأتمكن من امتطاء أي امرأة بصورة طبيعية، فلا يخذلني جسمي، ولا تخاصمني أعضائي، ولا يفضحني عجزى!

لعنة الله عليك يا أمجد... لماذا استجبت لك ولإغراءاتك في هذا الثلاثاء المرفوض، على الرغم من تحذيرات منصور ابن خالتي المتكررة... «الداعرات لن يحلّوا مشكلتك مع النساء»!

نعم... لقد أخبرته بكل شيء... حكيت لمنصور تفاصيل لقاءاتي الفاشلة مع هند المغربية وإيرينا الروسية وسوما الصينية.. كان مذهولاً وهو يسمع، لا يكاد يحول نظريه عني وأنا أتحدث.. كنا قد عدنا منهكين ومضطربين، بعد أن تركنا حقيبة هند بمحتوياتها من الحشيش داخل حاوية قمامة على رصيف شارع جانبي مظلم في حي القصيص! كان منصور هو أول من رأى صورة هند مع آخرين تتصدر صفحة الحوادث.. كنت أتناول قليلاً من الجبن والخيار في منزله، بعد أن أقمت معه منذ طردني موسى الوحش من كارفور! استضافني منصور بكل كرم، وترك لي إحدى غرفتي شقته، بل حمل أغراضي القليلة في سيارته، وساعدني في ترتيب ملاسي داخل خزانة الحائط في غرفتي. ثم سألني عن حقيبة هند، فكذبت عليه،

وأخبرته أن بها بعض أوراقى الخاصة، على الرغم من أنني نسيت ما قلته له حين رآها أول مرة، ونحن نجلس في المقهى أنها خاصة بصديق، فلم يعلق.

ظللت أكثر من ثلاثة أسابيع ضيفاً كريماً على منصور، فكان يخصص لي وقتاً كل يوم ليصطحبني إلى الشركات والمؤسسات المختلفة للبحث عن عمل، لم يتبرم ولم ينزعج، بل كان مرحاً وعطوفاً ينصحنى بألا أضجر وأن أصبر قليلاً؛ لأنني حتماً سأجد وظيفة!

- دبي تحتشد بفرص عمل هائلة... فلا تيأس!

حتى جاء يوم الأحد المرعب، عندما رأى منصور صورة هند في صفحة الحوادث. كنت أتناول الجبن والخيار بمفردي، حين دخل منصور وألقى الجريدة أمامي، وهو يبذل ملابسه قائلاً:

- أليست هذه الفتاة... من كانت تعمل معكم في كارفور؟

«القبض على عصابة تتاجر في المخدرات، مكونة من أفغاني وسوري ومغربية وباكستاني». قرأت الخبر بسرعة البرق، من دون أن أكمل قضم ما في فمي!

- يا نهار أسود.

هكذا صرخت وأنا أمعن النظر في صورة هند!

قمت مسرعاً إلى الدولاب، أخرجت حقيبة هند، تبعني منصور، وهو لا يدري ما الخبر... حاولت أن أفتحها، فلم أنجح.

- ماذا يحدث؟

سألني منصور بعصبية، قلت له: «إن هذه حقيبة هند»، من دون أن أنظر إليه، وأنا مازلت أكافح لفتح الحقيبة بلا جدوى.

- مَنْ هند؟

- ابنة القحبة... مَنْ تزين صورتها الجريدة... تاجرة المخدرات!

- يا نهار أسود.

صاح منصور وهو يهرول نحو المطبخ، ليعود بسكين حاد.

خطف مني الحقيبة. أدخل شفرة السكين في الفراغ الصغير، الذي يفصل جزئي الحقيبة. ضغط بقوة على مقبض السكين.. وقفت أنظر إليه عاجزاً ومرتجفاً. أمرني بحدة: «أمسك معي بقوة ولا تدعها تتحرك بين يديك». كرر منصور المحاولة، فأبت الامتثال. انفتحت الحقيبة فجأة حين قذف بها يأساً على الأرض بعنف!

ثلاثة كيلو حشيش هي كل محتويات الحقيبة.. كل كيلو يمثل عبوة مستقلة جيدة التغليف، كما كانت هناك ورقة بيضاء، كتبت عليها عدة أرقام وبعض الحروف الإنجليزية، لم نفهم منها شيئاً!

جلست على السرير مهموماً واضعاً رأسي بين كفي، لملم منصور عبوات الحشيش وأعادها إلي الحقيبة التي حاول أن يغلقها جيداً... صرخ في فجأة:

- انهض... ارتدِ ملابسك... هيا.

- لِمَ ؟

أشار بيده إلى الحقيقة هاتفاً:

- حتى نتخلص من هذه المصيبة.

دخل كل منا في ثياب الخروج بسرعة.

ولم ينس منصور أن يمد يده على قطعة خیار كانت في الصحن على المنضدة، فتناولها على عجل وهو يقول: «أنا ميت من الجوع... منك لله»!

لم أعلق، وسرت بجانبه صامتاً.

رفض منصور أن نستخدم المصعد، فهبطنا الدرج، وهو يتلفت حوله... لم يكن هناك أحد! طوال الوقت كان يقبض على حقيبة هند بقوة، وحين حاولت أن أحملها عنه، دفع يدي صارخاً... «لا... كفانا مصائب»!

اتجهنا نحو سيارة منصور، التي أوقفها بعيداً عن العمارة بسبب الزحام.. كان المناخ لطيفاً إلى حد ما في هذا الوقت من الأيام الأولى من شهر نوفمبر.

في السيارة وضع مؤشر الراديو على إذاعة لندن، التي بثت تحقيقاً حول قرار المحكمة العراقية بإعدام صدام حسين، الذي صدر ظهر اليوم.

استمع منصور باهتمام إلى آراء المحللين السياسيين، الذين أيدوا القرار والذين عارضوه.. كنا قد وصلنا إلى نفق الملا بلازا بصعوبة من شدة الزحام، على الرغم من أن الساعة تجاوزت العاشرة مساءً.

فجأة سألني منصور:

- ما رأيك؟

- في ماذا؟

- في الحكم على صدام حسين بالإعدام!

أدهشني بروده! مالنا ومال صدام الآن! نحن في كارثة هند وحقيبتها.. ترى من كان يصدق أن هند تتاجر في الحشيش؟ وأنا الذي كابدت الأمرين من سطوة رائحتها التي التصقت بجلدي. ترى... هل كانت رائحة حشيش وأنا لا أدري؟ ما أتعس حظي!

- هه... ما رأيك؟

- في ماذا؟

- في الحكم بإعدام صدام... هل سينفذ؟

- مالي أنا وصدام... دعني من فضلك!

- لا تقلق... سنتخلص من هذه المصيبة حالاً!

انحرف منصور بالسيارة نحو القصيص، مررنا بفندق البستان، وقبل أن نصل إلى جمعية الاتحاد، انعطف يميناً في شارع جانبي.

كان شبه مظلم إلا من بؤر ضوء ضعيفة، تستقر في بعض نوافذ القيلات، التي تراصت على الجانبين.. كنت أعرف أن أعمدة النور في بعض مناطق دبي قد توقفت عن العمل؛ بسبب الإصلاحات والجسور التي يستعدون لإنشائها، ولكنهم كانوا يركبون غيرها، ويوفرون الإضاءة الملائمة بسرعة مذهلة!

فجأة أوقف منصور السيارة، بعد أن مال يسارًا في شارع أكثر إظلامًا.. نظر في مرايا السيارة يمينًا ويسارًا، ثم استدار بكتفه ليرى خلفه، نزل من السيارة حاملًا حقيبة هند، وهو يهمس لي: «لا تتحرك».

توجه بسرعة نحو حاوية القمامة القابعة على الرصيف، وفي لمح البصر قذف بالحقيبة المشبوهة داخلها، ثم عاد مسرعًا، لينطلق بالسيارة بعيدًا عن حي القصيص! عائدًا إلى الشارع مرة أخرى!

تنهدت بملء صدري، وتمتعت بصوت شبه مسموع «الحمد لله».. ضحك منصور وهو يلعن أجدادنا على سذاجتي.. كان يقود السيارة بمهارة شديدة، أكدت لي أنه من المحال أن أتقن القيادة مثله، إذا سمحت لي المقادير بتعلمها.

لاحظت أنه لم يتوجه نحو المنزل، فبدلاً من أن ينحرف يسارًا نحو أبو شغارة، تجاوز الإشارة وظل مخترقاً شارع الوحدة. سألته:

- إلى أين؟

- ألم أقل لك إنني ميت من الجوع... إلى مطعم فرحات!

- لكنني تناولت عشاءً!

- لا... لم تكمل عشاءك بسبب البلوى، التي كنت تحتفظ بها! أشتهي الفول والطعمية... متى آخر مرة رأيت فيها هند؟

«بعد وفاة أبي بثلاثة أيام» هكذا أبلغت منصور.. كانت قد علمت بالوفاة عندما اتصلت بي، ولاحظت أن نبرة صوتي متغيرة.

قلت لها إن والدي مات.. كنت أحاول ابتزاز مشاعرها؛ لتعطف علي وتمنحني بستان جسدها مرة أخرى، لعل وعسى أفلح في قطف ثماره.. كنت أحتاج إلى امرأة أعرفها وتعرفني، أشكو لها ما آل إليه مصيري هنا في دبي.

لم تجلس معي سوى نصف ساعة فقط في مقهى الليدو التونسي، الكائن خلف شركة داناتا للطيران في ديره. كانت ترتدي فستاناً مثيراً أزرق اللون مثل سماء شهر مايو.. ضيق بصورة لافتة، فبدت أعضائها الحيوية نافرة ومغرية بالمداعبة والتقبيل!

- لا تقلق... سأبحث لك عن عمل.

قالت لي وهي تدخن سيجارة طويلة لم أر مثلها من قبل، ثم مدت يدها في حقيبتها السوداء صغيرة الحجم، وأخرجت خمسمائة درهم، وناولتها لي هاتفة بحسم:

- خذ... أنت في وضع غير جيد، خاصة بعد وفاة والدك!

ترددت قليلاً، لكنني لم أمانع.

شكرتها... ثم انصرفت، وهي توصيني برحمة والدي بالحفاظ على الحقيقة.

بعد أن تناولنا عشاءنا في مطعم فرحات.. اصطحبني منصور للتجوال في دوار سبينس القديم بحجة البحث عن أحدث الموبايلات. كانت نسمة خفيفة من هواء نوفمبر بدأت تلطف الجو، فتراجعت الرطوبة التي تحاصرنا منذ شهر مايو، وراح منصور يلح في السؤال عن موقعي من الحكم بإعدام صدام حسين، وهل سينفذ أم لا؟

استفزني هذا البرود... لقد كنا على شفا حفرة من السجن، فقلت له
مستنكرًا:

- أأست قلقًا... كيف تضحك وتأكل هكذا من دون توتر؟

توقف منصور فجأة أمام محل «افتخار» لتجارة الموبايلات، وقبل أن
ينطق، نظر في عيني بشفقة ثم وضع يده اليمنى على كتفي الأيسر، وهو
يقول:

- مَنْ قال لك أنني لست قلقًا ومضطربًا يا محمد؟

استرسل منصور في التعبير عن مخاوفه، فقد تفشي هند خبر الحقية
للشرطة، وقد يكون هناك من كان يراقبها من رجال المباحث، فرأنا معًا
أكثر من مرة، لعل آخرها في مقهى الليدو، ثم ألقى في صدري قبلة
أحرقت فؤادي:

- الحشيش هنا يعني الإعدام!

لم أرد، وراح منصور يستطرد في كلامه عن ضرورة أن يمتلك أعصابه،
وأن يبدو طبيعيًا حتى لا يظن بنا أحد الظنون، ثم طالبني، بل أمرني، بأن
أحكي له كل شيء عن هند وعلاقتي بها، وكيف قبلت أن أحتفظ بحقية
حشيش، هكذا من دون أن أدري!

فجأة... رن هاتفه، فتوقف عن الكلام، ثم قال لي:

- إنها سمية... هيا بنا إلى البيت!

في هذه الليلة المتوترة حكيت لمنصور كل شيء عن هند، من أول وقوفها بجواري ضد الأعيب زملائي في كارفور، حتى إخفاقي التام في المرة الوحيدة التي تعرت فيها أمامي. سردت له كيف أعطتني الحقيبة، وكيف حاولت أن أفتحها مرة، ولكنني لم أفجح.. قلت له كل شيء ما عدا أنها أعطتني خمسمائة درهم بعد وفاة أبي.. كنت أتكلم بنبرة حزينة، وأنا منخفض الرأس طوال الوقت تقريبًا، وكان منصور ينصت لي باهتمام بالغ وعلامات الدهشة، ترسم على وجهه مع مرور السرد.

في هذه الليلة شعرت براحة كبيرة، بعد أن أفضت في الكلام عن هند وإيرينا وسوما، وكأن الحجر الذي أرهق صدري بسبب مأساتي مع النساء قد سقط، لكنني أشهد وأعترف بأنني لم أستطع النوم... ولا منصور ابن خالتي من فرط القلق، لكن هذا القلق يهون الآن تمامًا، حينما أجدني محشورًا في زنزانة، مع شاب فلبيني شاذ وأمجد صفوان، الذي وصل نحبه حدًا لا يطاق، بتهمة قتل إيرينا الروسية !

أبي مرة أخرى

بصراحة شديدة... خجلت أن أدعو أصدقائي إلى الغداء في مطعم فاخر احتفالاً بوفاة أبي كما كنت أحلم وأنوي وأخطط، أو بتعبير أصح، لم أجروء على فعل ذلك. صحيح أنني لم أكن أملك من المال ما يكفي لدعوة شخص واحد، إلا أن ذلك ليس السبب الوحيد في انصرافي عن تلك الفكرة المجنونة، على الرغم من أنني كنت صادقاً حقاً حين أنتويتها، فما فعله أبي معنا من سيئات لم يفعله أب مع أبنائه حسب علمي، ولكن الوقائع التي واكبت وفاته محت من ذهني فكرة الاحتفال بهذه الوفاة. أقصد الوقائع التي حدثت لي هنا، فأنا لا أعرف ماذا تم هناك في القاهرة، سوى أنه مات بالمستشفى، وأنهم دفنوه في قريته شرانيس التي كان لا يزورها إلا لدفن الموتى من أقربائه، وها هو يلحق بهم في القرية ذاتها والمقابر نفسها، التي كان يقف أمامها قبل ذلك خاشعاً، متذكراً مواقفه مع الذي رحل، أو هكذا أظن!

نعم... كنت أنوي دعوة أصدقائي للاحتفال بوفاته، علماً بأن أصدقائي هنا لن يخرجوا عن منصور ابن خالتي وأمجد صفوان وهند المغربية،

وربما الأستاذ صلاح الغندور وزوجته الدكتورة منى وأشرف نادر.. لعلكم
نسيتم أشرف لأنني لم أعد أتحدث عنه، بعد أن ترك كارفور، والتحق -
بتوصية ومساعدة من الأستاذ صلاح - بوزارة التربية والتعليم للعمل
كمدرس تربية خاصة.

صحيح أنني لم أقابله بعد ذلك إلا مرة أو بعض مرة، إلا أنه لا يمر أسبوع
من دون أن يتصل بي ليطمئن على أحوالي، معتبراً أن وضعه الأفضل الآن
كمدرس يعود الفضل فيه بالأساس إلى شخصي الضعيف؛ لأنني من قدمته
إلى الأستاذ صلاح الغندور.

المدهش أنني نسيته متى بالضبط وأين تقابلاً - أشرف والغندور -
بسبب وطأة الظروف التي تحاصرني هنا، وإن كنت أعتقد أنني قد أكون
اصطحبت أشرف معي إلى مقهى «ذكريات» في إحدى المرات، التي
التقيت فيها أمجد أو الأستاذ صلاح، وهناك تم التعارف وقدمت المساعدة
لأشرف، من قبل الأستاذ صلاح!

على أية حال، فأنا لم أحتفل بوفاة أبي كما كنت أنوي. وعليه، لم أتصل
بأشرف ولم أره في ذلك الوقت!

في الليلة التي مات فيها والدي، وهب منصور ابن خالتي نفسه لمعاونتي
على عبور الأزمة «مهما كانت علاقتك سيئة بأبيك، فرجيله مشكلة؛ لأن
موت الأقارب الأولين أزمة». هكذا قال لي منصور، فبعد أن تلقيت العزاء
ممن كانوا في المقهى، اصطحبني منصور إلى شقته، قائلاً لي بصوت
خفيض ونبرة حاسمة:

- ستبيت معي الليلة!

لم أعلق، ورضخت، بل راقنتني الفكرة؛ لأنني لم أكن أود أن أعود إلى شقة كارفور، حيث بدأت أشعر بكره شديد، ينمو نحوها، بعد أن نلت نصيبي من الطرد على يد موسى الوحش.

كالعادة أرهقنا البحث عن موقف للسيارة بجانب العمارة التي يقطنها منصور، فالزحام في دبي والشارقة أصبح لا يطاق، والذي لا يقتصر مكاناً في النهار يوقف فيه سيارته، لن يلقي شبراً واحداً يحتضن سيارته في الليل!

- ما أتعس هذه المنطقة!

هذه هي العبارة الوحيدة التي تفوه بها منصور غاضباً منذ خرجنا من المقهى، حيث ظل كل منا طوال الطريق متشبثاً بصمت مظلم فرضه جلال الموت وهيبته، حتى أن منصور لم يشأ أن يدير الراديو، أو جهاز التسجيل الخاص بالسيارة!

نصحتني منصور بأن أستحم، ففعلت لأن الزوجة الناتجة عن الرطوبة قد أزعجتني بما فيه الكفاية.. في الحمام لم أتمالك نفسي ومارست العادة السرية بفرح وحزن في آن واحد، وبعد أن تخففت من زلزال جسدي، تذكرت أن جثة أبي مازالت ساخنة في القبر، فتأملت أحوال الدنيا، لكن لا أدري لماذا سطا على خيالي منظره، وهو يناديني من البلكونة عندما كنت طفلاً صغيراً: «اصعد يا حمار... بسرعة»!

بصقت على الأرض، كأنني أطرد هذه الذكرى الموحجة التي أدمت قلبي، وجعلتني أحس بضآلتي أمام أطفال الحارة الذين كنت ألعب معهم، وودت لحظتها أن يتعثر أبي في وقفته، وهو يرتدي ملابسه الداخلية، فيسقط من البلكونة ليقضي نحبه!

ربما كانت هذه أول مرة أتمنى فيها موت هذا الظالم الغليظ، ولكنني خشيت أن أبوح بأمنياتي المشؤومة تلك إلى أحد، حيث تلازمي هذه الرغبة كلما وجدته يستعرض قوامه وهو شبه عار في البلكونة! أو أحلم بأن تندلع حرب بيننا وبين إسرائيل، فيلقى حتفه على يد جندي صهيوني، أو يفتت جسده إثر اختراق أحد صواريخ العدو لهذا الجسد! أمنيات قاتمة كانت ترافقني كثيرًا كلما نلت نصيبي من قذاراته، أو رأيته يشتم أمي ويضربها!

آه... أمي! ترى ماذا تفعلين الآن؟ وكيف تلقيت خبر موته وغيبابه اللانهائي؟

أقسم أن عصافير ملونة زغردت في فؤادك، عندما تيقنت أن ضربات قلبه وقذارات لسانه قد توقفتا إلى الأبد! ولكنك ستقوين بواجبك الاجتماعي أمام كارثة موت الزوج على أكمل وجه، فستبكين بحرقه، وتنهمر الدموع من عينيك الشاحبتين بغرارة، وتلطمين خديك بقوة، ويعلو صراخك كلما زاد عدد النسوة، اللاتي يتحلقن حولك من باب المواساة! وقد تصطنعين الإغماء من لوعة الفراق، فتهزول النساء إليك لإفاقتك، وهن يتمتمن بآيات قرآنية وأحاديث نبوية وعبارات شائعة، في مثل هذه الأحوال، ابتكرتها البديهة الشعبية وتاريخ الحزن المصري الممتد قرونًا طويلة!

نعم... أراك الآن يا أمي وأنت تمثلين الحزن، فترتدين وشاح الهم والشروء حينًا، ثم تعددين مناقب الميت الذي أحرق كبذك برحيله أمام النسوة، اللاتي يتعجبن من قدرتك يا أمي على ارتكاب كل هذا الحزن.. وبعضهن يدركن تمامًا حجم القهر، الذي كنت تعيشين فيه تحت ظلال أبي السوداء. ألم تكوني تسردين أمامهن وقائع مخجلة من سلوكيات الميت، عندما كان يصول ويجول في البيت؟ ألم تحترق جفونك من البكاء، وأنت تهمسين لهن أنه الحائل الأول ضد زواج ثريا ومحاسن؟ لأن العرسان يرفضون أن يصاهروا رجلًا مثله، بلغت سمعته المرذولة حدًا لا يطاق!

آه... شقيقتاي... ترى ماذا تفعلان الآن؟ وهل هذا اضطرابكما بعد أن مات الجبار ذو اللسان البذيء؟ وهل تأملان - كما أتمنى - أن تفوزا بنعمة الزواج، بعد أن غاب أبونا إلى الأبد؟

- أين أنت... هل نمت داخل الحمام؟

أفقت من شرودي على صوت منصور وهو يقرع باب الحمام، كنت ممددًا في البانيو، تاركًا جسدي حرًا يتلذذ بالمياه الباردة ورغوات الصابون الكثيفة، التي تتكون بسرعة مذهلة من «جل الاستحمام»، فتدغدغ خلاياي وتسعدني، على الرغم من الهواجس المرة والذكريات الأليمة، التي تتري على مخيلتي.

- أمامي خمس دقائق... لآتتهي.

- بسرعة من فضلك... البيتزا في الطريق.

حقًا... منصور هذا طيب... يعرف تمامًا أنني جائع، ويعني تمامًا كم أحب البيتزا، وأن سعرها المرتفع يحول بيني وبين أن أتناولها كلما هفت نفسي إليها! وها هو يطلبها من المحل «ديلفري».

حين خرجت من الحمام، كان منصور ينهي مكالمة في الموبايل، وقد أدركت أنه يتحدث مع سمية الأبراشي؛ لأنه يخاطبها بحبيبتي.
- سمية تسأل عنك وتطمئن عليك.

قالها منصور من دون أن ينظر إلي، وهو يضع يضع جرائد قديمة على المنضدة استعدادًا لقدم البيتزا.. مشطت شعري أمام المرأة وتأملتني بهدوء، وتعجبت... فمنذ مدة لم أرُنْ إلى وجهي بتركيز في المرأة. انزعجت لأن لحيتي طالت بصورة أظن أنها منفرة، ولكنها تناسب شابًا مثلي فقد أباه للتو، فتركها حزنًا وزهدًا! وكأننا يجب أن نتلقى أخبار الموت ونحن في حالة رثة، أو أن التجمل لا يليق بكارثة الرحيل! أو كأن قذارة الأحياء هي أنسب الحالات، التي تلائم نظافة الموتى!

لم تكن هذه الآراء من وحي أفكاري، بل أطلقها منصور كقذائف في قفائي، وهو يقف خلفي أمام المرأة معاتبًا إياي؛ لأنني تركت لحيتي تنمو هكذا حتى صار وجهي منفردًا!

وعدته أنني سأحلقها في الصباح.. رائحة البيتزا أهاجت شهيتي، فالتهمتها بسرعة، وكان منصور ذكيًا، فقد ابتاع ثلاث فطائر من الحجم الكبير، فأكلت بنهم وامتلاأت معدتي.. كذلك أقبل منصور على البيتزا

بشراة؛ إذ لم يعطله عنها إلا مكالمتين من الأستاذ صلاح الغندور وعبد الله راشد.

كل منهما كان يسأل عن أحوالي ومزاجي بعد الصدمة، التي تلقيتها بخبر موت أبي. فلا أحد منهما يعرف أنني كنت أنتظر هذا الخبر بشغف منذ سنين طويلة، ولا أحد منهما يظن أن هناك أسرة كاملة يعترىها الحبور الآن؛ لأن رب هذه الأسرة قد مات! ولا أحد منهما يدرك مدى سعادتي؛ لأنني لم أكن هناك - في القاهرة - لحظة موته، حتى لا اضطر إلى افتعال الحزن أمام الآخرين، فأنا لست ممثلاً جيداً كما أعتقد، ولن أحتمل طقوس الموت من جنازة ودفن وعزاء؛ حيث ينبغي أن أخفض رأسي طوال الوقت، وألا أتفوه إلا بعبارات مكرورة ومزعجة كثيراً مثل «سعيكم مشكور»، «حياتك الباقية»، ردّاً على جمل أخرى مضجرة ومملة، تقال دومًا في مثل هذه المناسبات التعيسة!

فأنا كثيراً ما كنت أتملص من أداء واجب العزاء؛ هرباً من هذه العبارات السخيفة، والصمت الثقيل المفروض على الجميع، على الرغم من أنني أعلم أن ديننا يحضنا على مواساة الحزانى والتخفيف عنهم، ولكن ما حيلتي وأنا لا أحبذ التواجد في مثل هذه المواقف الحزينة!

حاولت أن أنظف المائدة، ولكن منصور طلب مني أن أدير التلفزيون، حيث سيتولى هو أمر المائدة وإعداد الشاي.. كانت أخبار القتلى والجرحى تتوالى على شاشة الجزيرة، فلم أهتم بالمشاهدة. منصور، الذي أعد الشاي بسرعة وأحضر معه بقايا «تورته» كانت في الثلاجة، اكتفى بقراءة شريط

الأخبار، ثم راح يغير القنوات من دون هدف، حتى لاح وجه فاتن حمامة الماضيء، وهي تذوب عشقًا في فيلم «نهر الحب»، فتوقف عند هذه القناة وهو ينظر لي:

- هذا الفيلم من أحبّ الأفلام لدي!

قلت له بنصف حماس:

- حقًا... إنه فيلم مؤثر.

- إن زكي رستم يلقن الجميع هنا درسًا في فن التمثيل.

- ولكنه رجل قاس.

لم أنتبه إلى أن منصور قد فطن إلى التشابه بين قسوة زكي رستم وقسوة أبي، إلا حين قال معلقًا علي عبارتي الأخيرة:

- رحم الله والدك.

الحق أنني وصفت زكي رستم بأنه قاس، من دون أن أعي أن هذا الأمر له علاقة ما بأبي، فأنا قلت إحساسي بالرجل من خلال مشاهدتي للفيلم أكثر من مرة، لكن يبدو أن العقل الباطن - كما يقول منصور كثيرًا - يقود العديد من سلوكياتنا، من دون أن ندري!

تابع منصور الفيلم بحماس ونشوة، مصرًا على أن يشرح لي مناطق الجمال في أداء الممثلين وطريقة الإخراج.. كان يفعل ذلك بقلب طيب، يريد أن يخرجني من دوامة الموت التي سقطت فيها هذه الليلة، ولكن

النعاس بدأ يتسلل إلى جسدي فيخدرني، فلما انتهى الفيلم، كنت قد بلغت
من الإجهاد مبلغًا لا يحتمل، حتى أنني سمعت صوت منصور ينصحني
بأن أذهب للنوم، وأنا في نصف غيبوبة.

حين تركت رأسي تستقبل الوسادة بلذة، كانت ترن في أذني عبارة
والدي البذيئة:

«اصعد يا حمار... بسرعة!»

23

النبيل

- عبد الله راشد يريد لقاءك الليلة ضروري.

استيقظت على هذه العبارة التي أطلقها منصور في أذني بحماس.. كنت غارقاً في نومي الحزين كالعادة، فمئذ أن طردني موسى الوحش من كارفور، قبل شهرين، وأنا لا أجد عملاً، فصادقت النوم باعتباره وسيلتي الوحيدة لتمضية الوقت الطويل، الذي أجدني فيه وحيداً منبوذاً بين جدران شقة ابن خالتي، التي انتقلت للإقامة فيها منذ وفاة أبي.

كان منصور يستقطع جزءاً من وقته كل يوم تقريباً؛ ليصطحبني معه إلى بعض الشركات والمؤسسات لإجراء المقابلات، أو لإعطائهم صورة من سيرتي الذاتية. كنت أعلم جيداً أن هذه السيرة لا تشجع أحداً على توظيفي، فهي سيرة فقيرة لا خبرات مهمة فيها، ولا تاريخ وظيفي معتبر، ولكنني أطمع في كرم الله. وكم دعوت في صلواتي أن يتعطف عليّ الواحد الأحد ويهيئ لي عملاً؛ حتى لا أضطر إلى العودة إلى مصر خاوي الوفاض، فيتلقفني أخي حسن بانتقاداته وشتائمته! وكأن الله عوّضني عن

والدي القاسي بشقيق فظ لا يرحم. وقد كذبنا منصور وأنا وضمنا السيرة بعض الوظائف، التي لم أمارسها أصلاً؛ الأمر الذي دفع منصور لأن يفعل ذلك بامتعاظ! لكن هناك مرة وحيدة اقترح فيها منصور أن أعود إلى مصر إذا سُدت أبواب الرزق في دبي.. رفضت اقتراحه بشدة، متوسلاً إليه أن يسعى من أجلي:

- الحصول على وظيفة هو كل أمني هنا يا منصور.

نظر إليّ بشفقة ومحبة، وأقسم:

- تا الله ستجد عملاً هنا يا محمد، مهما كلفني الأمر.

تري... فعلها منصور وتحدث مع عبدالله راشد من أجلي؟ فتطوع الرجل ودلّني على طريق الوظائف. أم أن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد سؤال من المواطن الإماراتي الطيب عن أحوالي، وقد رأني الرجل لحظة وفاة أبي، فرقّ لي وأشفق على حالي!

حسنًا... إذا كان منصور قد أبلغه عن بؤسي هنا، فماذا قال له بالضبط؟ وهل سرد له وقائع خيالي مع هند وإيرينا وسوما؟ أم اكتفى بالكلام عن طردي من كارفور؟ منصور حكيم لا يفشي أسرار أصدقائه، ولا يتحدث عن مخادع النساء باستخفاف وتهكم، فهو من يبجل المرأة، ويردد دومًا قول شاعره الفرنسي أراجون «المرأة مستقبل العالم».

لا... لا أظن أن منصور أفشى أسراري النسائية المشؤومة.. ولا أعتقد أن انسحاقني الدائم على أسرة الحسنات سيصبح مضغة الأفواه، ولكن لماذا يطلب عبد الله راشد مقابلي الليلة... ضروري، كما أكد منصور؟

لم أتمكن من الفرار من سراديب الاحتمالات المتوقعة طوال النهار، حيث كان الفضول ينهش أعصابي، محاولاً البحث عن إجابة هذا السؤال الصعب: ماذا يريد مني عبد الله راشد؟ ففي اللحظة التي تلقيت فيها اتصال منصور، قفزت من سريري مهرولاً، يخالجنني شعور بالفرح مخلوط بتوجس وريبة.

تناولت إفطاراً خفيفاً، مجرد خبز وجبن مع الشاي الذي أعدده على عجل، فسقط مني كوب الزجاج على الأرض، فانزعجت جداً واعتبرته فألاً سيئاً. قمت بلملمة شظايا الزجاج، وأنا ألعن توتري الذي حال دون تركيزي، فتذكرت مآسي أمجد صفوان مع الأكواب والزجاجات، حتى ونحن في السجن، فضحكت!

توضأت وقررت أن أصلي الفجر والظهر معاً، بل وأزيد عليهما ركعتين تقريباً إلى الله لعل وعسى أن يستجيب لدعائي، فأعثر على عمل. آه... هل يعود إخفاقي في اقتناص وظيفة إلى أنني أهملت أداء واجباتي الدينية، منذ أن أقمت مع منصور؟ نعم لقد أصبحت كسولاً، أستسلم للذة النوم، فلا أستيقظ لأؤدي صلاة الفجر مثلما كنت أفعل فيما مضى، كما أنني لا أحرص أحياناً على الذهاب إلى المسجد لأداء صلاة الجمعة كما أفعل منذ سنين!

هل إقامتي مع منصور الذي يخاصم المساجد، وينفر من الصلوات، هي السبب في ابتعادي عن تنفيذ أوامر الله، وأهمها الصلاة؟ لكن منصور نفسه لا يصلي، بل لا يؤمن بوجود الله أصلاً، ومع ذلك فهو يتذوق لذة النجاح في الحياة، منذ كنا نلعب في حوار دمنهور البائسة ونحن أطفال،

حتى سطوع نجمه الآن بقوة في أحياء دبي الباذخة! ترى هل يكافئه الله في الأرض ليعاقبه في السماء؟ وأمس قال لي منصور إنه في غاية الفرح؛ لأنه وجد اسمه مذكورًا 3122 مرة عندما دخل على «جوجل» مستخدمًا محرك البحث الشهير في الكشف عن اسمه! كان مغتبطًا بالرقم الضخم الذي وصل إليه على «جوجل»، معتبرًا ذلك من آيات النجاح الكبير، الذي حققه في عالم الصحافة. أما أنا فلا مفر أمامي من الإقرار بأنني لم أحقق شيئًا ذا قيمة في حياتي حتى الآن! فلا عمل ولا حبيبة ولا مال، ولا حتى تعلمت فنون التعامل مع الكمبيوتر، كما طلب مني منصور ذلك كثيرًا، ولا يوجد أي أمل في الأفق يشير إلى أن أحوالي السوداء هذه ستتغير، وأن مستقبلي أخضر ومورق!

بهذه المشاعر المعتمدة التي استولت عليّ بامتداد نصف نهار، ذهبت إلى لقاء عبد الله راشد... ارتديت أفضل قمصاني بعد أن كويته باهتمام، ومشطت شعري جيدًا بعد الاستحمام، وكأني في طريقي لمقابلة حبيبة وليس رجلًا. فعلت ذلك بناء على نصيحة منصور، الذي حرص على أن يتفحصني قبل أن نخرج من باب الشقة، فلما اطمأن على أن هيئتي لا بأس بها... صاح هاتفًا بثقة:

- معقول جدًا... أنت الآن شاب صالح!

لم أعلق على عبارته، واكتفيت بأن ألقيت عليه نظرة استفهام هادئة، فلم يرد عليها، بل قفز نحو باب الشقة، ففتحه بحماس طالبًا مني أن نسرع.

في الطريق من أبو شغارة بالشارقة إلى مقهى «ذكريات» في دبي، اصطدمننا بالزحام المعتاد لشارع الاتحاد، الذي أصبح لا يطاق في أي

لحظة من الليل أو النهار على حد قول منصور.. كانت السيارة تتحرك ببطء شديد ينشئ في قلبي غابات ضجر، بعد أن نهش الفضول من روحي الكثير. ولما سألت منصور: هل تعرف لماذا يريد عبد الله راشد مقابلي؟ ابتسم برفق وقال لي:

- هذه هي المرة العاشرة التي تسألني، وأرد عليك بالجواب نفسه... لا أدري.

كان الحق معه، فقد أزعجته مرارًا بهذا السؤال؛ لذا ألفتُ نحو نافذة السيارة بيأس لأتأمل الطريق الذي تسمّر، فلا حركة ولا يحزنون! ولكن منصور لم يتركني أنعم بشرودي، إذ همس في أذني:

- انصت إلى أم كلثوم واستمتع... كلها دقائق ونعرف.

لم أكن من هواة أم كلثوم بشكل عام، بل كنت أكرهها وأنا صغير، لأن أبي كان يحبها، ويسبنا إذا علا صوتنا أثناء شدوها في الراديو، فكرهتها كما كرهته. لكن مع الوقت، ومع شروحات منصور لعبقريتها، بدأت مشاعري نحوها تتغير قليلًا، فلا بأس عندي من أن أعجب ببعض مقاطع لها في أغنيات محددة مثل الأطلال وألف ليلة وسيرة الحب.. لكنني لا أقدر على التركيز مع ما تقول ساعة ولا أطيع. وأندهش كيف لمنصور أن يظل مصوبًا حواسه كلها نحو أدائها ويطرب له، بل ويسعى لجر جرتي للاستماع إليها وقتًا طويلاً.

كانت تردد «بعد ما اتعودت بعدك غصب عني». انتبهت إليها للحظات، ثم سرقني شرودي من متابعتها، حتى وصلنا إلى مقهى «ذكريات» قبل موعدنا مع عبد الله راشد بربع ساعة.

فور جلوسنا... اتصلت سمية الأبراشي بمنصور، فتبادل معها بعض عبارات قليلة معطرة بمفردات الغرام التي ردها، وهو ينظر إليّ. وما إن أغلق الموبايل حتى اتصل به الأستاذ صلاح الغندور، فحيّاه بحفاوة مؤكّداً له أننا وصلنا إلى المقهى وفي انتظار عبد الله راشد.. كان منصور يتحدث، وابتسامته المشرقة تضيء وجهه كله. وبعد أن أنهى كلامه مع الأستاذ صلاح، طلب لنا الشاي والشيشة، وهو يهز رأسه قائلاً:

- الأستاذ صلاح يرسل إليك تحياته.

ثم سكت قليلاً وأضاف، وهو يمسخ بعينه أرجاء المقهى:

- وكذلك سمية.

تمت بصوت خفيض عبارات شكر وامتنان. وما إن بدأنا في شد أنفاس الشيشة، حتى هلّ علينا عبد الله راشد بجلبابه الناصع ولحيته المشدّبة وابتسامته الهادئة. انخطف قلبي عندما رأيته، وزادت نبضاته سرعة وصخباً.. لاحظت أنه تبادل مع منصور نظرات مأكرة، فأتقد توترتي. ماذا تخبئون لي؟ وشككت في أن منصور يعلم شيئاً ما عن فحوى هذا اللقاء، فانزعجت ونظرت إليه معاتباً؛ لأنه نفى أكثر من مرة درايته بشيء!

لم ينتظر عبد الله راشد طويلاً ليلقي عليّ قنبلته اللذيذة. فبعد أن تناول الرشفة الثانية من القهوة، إذ كنت أراقبه جيداً، اعتدل في مقعده وهو يتجول ببصره متأملاً رواد المقهى، ثم أطلق في وجهي عباراته الخالدة بالنسبة لي:

- مبروك يا محمد... غداً ستستلم وظيفتك الجديدة في شركة الحبور للسيارات.

وقبل أن أستوعب ما قال بالضبط، وقبل أن أجاهد للسيطرة على دقات قلبي، التي بلغ إيقاعها حدًا مدهشًا، وقبل أن أنطق بحرف، أكمل عبد الله راشد كلامه بثقة صائحًا:

- الراتب 4000 درهم... أنت تستحق كل خير يا محمد.

ثم أخرج من جيبه مظروفًا به ورقة أعطاها لي، بينما ناولني منصور قلمه الخاص وهما يتسلمان ويقولان في نفس واحد:

- هيا... وقع العقد... ألف مبروك.

كأن ليلتي هذه ليلة القدر، وكأن أبواب السماء مفتوحة عن آخرها في هذه اللحظة، وكأن الله يرّبّ على كتفي ليطمئن فؤادي، وكأن ملائكته يحومون حولي لينشروا رذاذ بركتهم أمام عيوني. يا الله... أخيرًا خرجت من صحراء البطالة إلى حقول العمل. أخيرًا امتلكت وظيفة، وبكم؟ أربعة آلاف درهم... يا الله... ألف ألف شكر.

أمسكت القلم بيد مرتجفة، وأنا أبحث عن المكان المخصص لتوقيعي، ولكن منصور طلب مني أن أقرأ بنود العقد أولاً، قبل أن أمهره بتوقيعي ناصحًا إياي:

- لا توقع على شيء أبدًا قبل أن تقرأه جيدًا.

همهمت بالموافقة وأنا أطوف بعيني سريعًا على بنود العقد، فلم أقرأ منها شيئًا تقريبًا سوى قيمة الراتب. ثم وضعت توقيعي، وأنا أقاوم دموعي بصعوبة بالغة. وقبل أن أعيد القلم لصاحبه، هلّت علينا سمية الأبراشي بنفستان وردي وابتسامة ملونة وهي تحمل بين يديها «تورته» جميلة. وما

إن قالت لي «ألف مبروك يا محمد»، حتى كان الأستاذ صلاح الغندور وزوجته الدكتورة منى رشاد يقفان أمامنا بكامل أناقتهما المعهودة، ونظارتهما الطبييتين الجديتين.. احتضني الأستاذ صلاح بقوة، وهو يهتف «ألف مبروك يا محمد». أما الدكتورة منى فصافحتني بحرارة مهتة، حيث اتخذت مكانها بجوار سمية الأبراشي.

نعم... الكل كان يعرف بمن فيهم منصور، وقد رتبوا المفاجأة هكذا حتى يبلغني عبد الله راشد نفسه بالنبا السار، فهو الذي سعى لتوفير هذه الوظيفة مستثمرًا علاقاته القوية مع أحد مديري شركة الحبتور، وهو الذي طلب رفع الراتب من ثلاثة آلاف درهم - كما هو متبع عندهم - إلى أربعة آلاف، كما عرفت من منصور فيما بعد.

لم تقتصر مفاجآت تلك الليلة الساحرة على عقد العمل و«تورته» سمية التي التهمناها في الحال، ووزعنا بقيتها على رواد المقهى، الذين ظنوا خطأ أنها مناسبة خاصة بعيد ميلاد أحدنا، فظلوا يرددون «كل سنة وأنتم طيبون»، فكنا نبادلهم التهنة بالشكر والابتسام.

أقول لكم لم تقتصر المفاجآت على هذه الأمور الجميلة فحسب، بل كانت الهدية التي قدمها لي الأستاذ صلاح الغندور رائعة أيضاً؛ إذ منحني شنطة كرتون بها قميصان فاخران، قائلاً بأداء رصين وابتسامة طيبة: - أتمنى أن يكون المقاس مضبوطاً.

شكرته بصوت لا يكاد يُسمع، فقد تراكت ورود الفرحة داخلي حتى حاشت مني الكلام، وفي اللحظة نفسها همس منصور في أذني:

- أما البنطلون والحذاء ففي السيارة.

نظرت إليه متعجبًا، فواصل كلمه متجاهلاً نظرتي:

- نعم... هديتي لك بمناسبة الوظيفة الجديدة.

كان احتفالاً رائعاً لدرجة أنني عند عودتنا إلى المنزل، ظللت أردد في سريرتي بصوت غير مسموع «الحمد لله... الحمد لله». كما لم أتوقف عن إسداء الشكر لمنصور طوال الوقت، ونسيت أنه كان على علم بهذه الأخبار البهيجة، ولم ينبئني بها! كان قلبي يقفز فرحًا، ومسام روعي تستعد بشغف للإقبال على الحياة مرة أخرى، ورغبتني جارفة في أن ينزاح هذا الليل سريعًا ليملؤني النهار بأزهاره الملونة عند استلام وظيفتي الجديدة. ولكني لم أكن أعلم أبدًا، لا أنا ولا منصور ولا سمية الأبراشي، ولا الأستاذ صلاح الغندور وزوجته ولا عبد الله راشد، ولا حتى عزة سليمان أنه بعد خمسة أشهر فقط، سألقى في غياهب السجن، وقميصي الجديد الذي أهداني إياه الأستاذ صلاح ملطخ بدم إيرينا الروسية، التي دُبِحت في لحظة غدر مشؤومة!

24

عزة سليمان

عيناها العسليتان تزرع في قلبي بساتين محبة، نظرتها الحالمة تنشر في روحي أنهار فرح.. بشرتها الخمرية تطرح أمامي أشجارًا مورقة، تحميني من قيظ دبي الملعون. ابتسامتها المترعة بالحنان كشفت لي متعة السهر كل ليلة، متلهفًا إلى لقاءها كل صباح! أما لفتاتها الأسرة، فجعلتني ألمس السماء وأصادق النجوم.

منذ اللحظة الأولى... لا... منذ النظرة الأولى... وجدتني منجذبًا بقوة إلى عزة سليمان بطولها الفارع وشعرها الأسود الناعم وبنطلونها الجينز.. كانت قد سبقتني إلى العمل في شركة الحبتور بعامين.. استقبلتني بترحاب شديد قائلة لي: «أهلاً بابن بلدي».

كانت هذه أول مرة أسمع فيها هذا التعبير «ابن بلدي»، فاهتز كياني وارتج، وقد كررته عندما استقبلتني - مع منصور - عند خروجي من السجن بعد محنتي الكبيرة.. حيّني بمحبة حقيقية، أشرقت من عينيها العسليتين ذات الوميض المباغت.

بدا لي واضحًا حضورها القوي في الشركة واحترام الجميع وتقديرهم لها.. كانت مزودة بمهارة لافتة في القدرة على بيع السيارات. ما إن يدخل زبون قاعة المعرض حتى تتوجه إليه مباشرة، وبعد أقل من نصف ساعة يخرج الزبون سعيدًا، بعد أن يكون قد اقتنى سيارة جديدة وافقت ذوقه وبسعر مناسب، بينما تقنع عزة بابتسامة رضا عن النفس تمنحها لذاتها بعد إتمام صفقة البيع! كنت أراقبها جيدًا. لم تكن تستخدم الأساليب المبتذلة لإغراء الزبائن بالشراء، كما تفعل بائعات أخريات هنا وهناك وفي كل مكان، بل كانت تنكئ على مقدرة شبه خارقة في إقناع الزبون على أن هذه السيارة أو تلك هي الأفضل، وأن مواصفاتها ستلائمه تمامًا، وأن طريقة شرائها بالأقساط - أو كاش - ستناسبه تمامًا أيضًا. كانت عزة تمارس عملها بحب حقيقي، تجيب عن أي سؤال يطرحه الزبون بحماس، وتشرح له ما غمض عليه من إمكانيات السيارة.. كانت تستعين بذكاؤها الفطري في الإيغال داخل نفس المشتري، فتعرف كيف تؤثر عليه، وتصارع تردده بعبارات قصيرة واثقة، فتجعله يقبل على اقتناء السيارة - أي سيارة - وكأنه يقتني طائرة نفثة!

من اللحظة الأولى أدركت عزة سليمان أن مهاراتي في التسويق والبيع محدودة - هل أقول معدومة؟ ومع ذلك قررت أن تهب روحها لمساعدتي بكل طاقتها - كما قالت لي فيما بعد - حتى أكتسب ولو قدرًا قليلًا من فنون البيع! كانت تعطيني دروسًا منتظمة في كيفية إغراء الزبون بمميزات السيارة، وكيفية تبسيط أمور الدفع لشرائها، وسهولة إجراءات البنك لتمويلها. كانت تشرح لي ما تقول بهمة:

- الزبون لا يريد إلا أن يستلم السيارة ومفتاحها من هنا في أقرب وقت.
كنت أنصت إليها باهتمام وإعجاب، وهي تكرر كلامها حول ضرورة
أن يشعر الزبون أنه لن يبذل أي جهد، لا مع البنك، ولا مع إدارة تراخيص
السيارات في المرور، ولا مع مراكز الصيانة.. كانت تقول ذلك وتهتف:
- الزبون دومًا كسول... ومعه حق.

- لماذا؟

- لأنه يدفع عشرات الألوف من الدراهم، فمن حقه إذن أن يُدلل
ويستمتع.

كنت أستمع إليها بتركيز شديد، وأنا أتأمل شفيتها الرقيقتين مع إيقاع
صوتها، وهو يرتفع وينخفض، مستخدمة حركة يديها كثيرًا أثناء الكلام.
نادرًا ما رأيتها ترتدي غير البنطلون الجينز الأزرق، في الوقت الذي تختار
فيه بلوزات أنيقة ذات ألوان زاهية تزيد جمالها، ولكنها كانت تحافظ على
الاحتشام بشكل عام في ملابسها، وأثناء سيرها بخطوات سريعة دائمًا.

أما ما جعلني مفتونًا بها، هائمًا في بحرها الأنثوي الجميل، حتى
وأنا أكابد عذابات لا نهائية في السجن، فيتمثل في بساطتها اللامتناهية،
وصراحتها العجيبة، وفخرها المستمر بأنها ابنة «سباك» من «السواح»
يمارس مهنته بشرف، وأن والدها مكافح أصيل، استطاع أن يعلم أبناءه
أفضل تعليم، على الرغم من أن حظه من التعليم الرسمي كان شحيحًا
للغاية، حيث كان بالكاد يعرف القراءة والكتابة. كما أنه لم يفرق بين البنت

والولد، فلم يُحابِ أشقاءها الثلاثة على حسابها، هي وأخواتها الثلاث أيضاً.

- طوال الوقت كنا فقراء ومحرومين.

كانت تخبرني ذلك بأسى، ولكن من دون مذلة أو استدرار لشفقة، بل يمكن القول أنه أسى مخلوط بفخر واعتزاز، لأنها استطاعت - هي و كل أشقائها - أن يتجاوزوا مراحل التعليم كلها بنجاح كبير، فلها شقيق نال الدكتوراه في الحقوق العام الماضي، وشقيقة تسعى للحصول على الماجستير في التاريخ هذه السنة.

- حلمي أن يرتاح أبي من العمل... لقد تجاوز الستين.

«ياللعجب... تفخر بوالدها كل لحظة، وأنا ألعن أبي حتى وهو ميت». قالت لي ذلك في أول لقاء منفرد بيننا خارج الشركة.. كانت هي من بادرت إلى دعوتي، بعد أن لاحظت اهتمامي الشديد بها، وترددي المعيب في أن أبوح لها بما يدور في داخلي. كنت معتاداً أن يمر عليّ منصور بعد انتهاء فترة العمل في التاسعة مساءً، ولكنه اعتذر لارتباطه بحضور فعاليات الشارقة المسرحية، وطلب مني أن أتصرف!

انتهزت عزة سليمان ارتباكِي، بعد أن أنهى منصور اتصاله بي، ولما عرفت مشكلتي، تطوعت قائلة بمرح:

- لا تقلق... سأوصلك حتى باب شقتكم.

ثم أضافت ضاحكة:

- لا أريد أكثر من درهمين!

في الطريق من الشركة - التي تتخذ موقعًا كبيرًا في منطقة «ديرة» - إلى الشارقة، اقترحت عزة سليمان أن نتناول الشاي في مقهى الفنانين في منطقة «الممزر». لم تجعلني أفكر في اقتراحها؛ إذ سرعان ما قالت: - أنا صاحبة الدعوة.

ثم استطردت وهي تنحرف بالسيارة شمالاً من عند مول «الملا بلازا»:

- سأنتظر دعوتك لي عند استلامك أول راتب.

كانت تنشر رذاذ أنوثتها الأسرة في كل إيماء وكل كلمة، وهي تقود سيارتها الميتسوبيشي البيضاء بثقة واقتدار. كنت مضطربًا بصورة لافتة، فلأول مرة طوال حياتي أضبط قلبي يرفرف هكذا، مسكونًا بحبور كبير نحو الفتاة التي أسرتني، وممتلئًا بمشاعر لم أتذوق مثلها من قبل. لا ليست مشاعر جنسية رخيصة كالتي تعتريني كل ليلة، أو كالتي جرجرتني نحو أسرة هند وإيرينا وسوما. إنها مشاعر حريرية... بيضاء... تدفعني لأن أطير مسرورًا وسعيدًا؛ متجاوزًا أزمتي المتفاقمة في مخادع الغانيات.

في هذه الليلة، وعلى مقهى الفنانين، أحسست أننا متشابهان، فهي ابنة فقر مثلي، وهي تقطن في حي «السواح»، هذا الحي المتهالك، مثلما تربيت أنا في دمنهور شبرا. وهي لها عدد كبير من الأشقاء والشقيقات، قد يكون أكثر مما لي، ولكنها على أية حال نشأت في بيت مزدحم وفقير كما حدث معي!

لكن نقطة الخلاف الجوهرية تتمثل في الموقف من الأب.. هي تعشق والدها وتقدر كفاحه كلما سنحت لها الفرصة، بل أظن أنها تحاول في الكلام لتأتي على ذكره معلنة اعتزازها به وحبها الشديد له. أما أنا، فلا أكف عن صب اللعنة في داخلي على والدي حيًا وميتًا. ولا أطيق أن آتي على ذكره أبدًا مع أي أحد، بل أتهرب سريعًا إذا سُئلت عنه، مثلما حدث مع عزة نفسها حيث قلت لها: «إنه متوفى وكان ضابطًا متطوعًا في الجيش بالإعدادية»، ولم أزد حرفًا واحدًا بعد ذلك.

الحق أقول لكم: إن هناك نقطة خلاف أخرى جوهرية ومهمة، تتمثل في نجاحها وإخفاقي، في تألقها وشحوبي، في جرأتها وجُبني، في اعتدادها بنفسها وارتباكي! لكن يبدو أن هذه الفروقات لعبت دورًا فعالًا في انشداي إليها، وتوقي الدائم إلى البقاء معها إلى الأبد.

المدحش أن عزة سليمان كانت تتعامل مع زملائنا في العمل بقلب مسالم، وروح مرحة دومًا، على الرغم من أنهم يمثلون جنسيات مختلفة؛ الأمر الذي يجعل أشواك الغيرة تنمو في ساحة الشركة بيسر. فمدير المعرض مثلًا رجل لبناني، وهناك موظفون وموظفات من مصر وفلسطين وسوريا والأردن ولبنان وتونس وباكستان والهند والفلبين. ومع ذلك شَيدت عزة صداقات حقيقية مع ثلاث فتيات: إيناس الفلسطينية ومادلين اللبنانية، اللتين فاجأتنا عزة بزيارة غير متوقعة إلى القاهرة، وهيام السورية؛ حيث كنت ألاحظ أحاديثهن المستمرة معًا، وضحكاتهن المكتومة غالبًا.. كما كن حريصات على تناول الطعام معًا، فيطلبن البيتزا أو وجبات الغداء من مطعم الشامي القريب من الشركة.

كذلك لم تخجل عزة سليمان من التعامل مع الشباب في الشركة بالروح نفسها، حيث كان يعاملونها بود واحترام مثلما رأيت.. كان مناخ العمل في الشركة مغايرًا بصورة كبيرة عن أجواء العمل في كارفور، فلا وجود كثيف لجنسية معينة، تفرض نفوذها وتخدم مصالحها فحسب، يدعمها في ذلك مدير بائس من الجنسية ذاتها مزوّد بغريزة إيذاء الآخرين، كما كان يفعل موسى الوحش. ولا مديرنا اللبناني يسمح بازدهار أحقاد ومرارات في نفوس مرؤوسيه؛ إذ سرعان ما يسعى بهدوئه الجميل إلى تبديد وإزالة أي خواطر سلبية أو جروح محتملة. حقًا لقد كان مثالًا للمدير الناجح الذي يحظى بتقدير وحب الجميع كما لاحظت. حتى أنا شخصيًا وجدتني أتابع بإعجاب رصانته في الحديث، وطريقة إدارته للشركة، وكيفية تعامله معنا نحن الموظفين الصغار، فضلًا عن أناقته الشديدة، التي تطلق حوله هالة من الافتتان والجاذبية، والتي تذكرني بأناقة الأستاذ صلاح الغندور.

صحيح أن هناك موظفة سورية منفّرة كانت تكره عزة وتضمّر لها سوءًا، لكن هذا الكره وهذه النية السيئة لم تكن مقصورة على عزة سليمان فحسب؛ إذ إن أحقاد وسموم سمر عز الدين طالت كل النساء اللاتي يعملن في الشركة - ولم يسلم من لدغاتها الشباب أيضًا - وإن كان نصيب عزة سليمان هو الأكبر؛ نظرًا لكونها الأكثر كفاءة ونجاحًا.

وقد علمت من عزة أن مديرنا اللبناني تحمل ألعيب وهو اجس سمر عز الدين كثيرًا، وأنذرها كثيرًا أيضًا.. فلما أخفق في ضبط وإحكام جهازها النفسي الشرير، أنهى خدماتها غير نادم، في الوقت نفسه، الذي كنت أصارع فيه جدران زناتني وأنا أتوقع حكمًا بالإعدام!

حصافة منصور ابن خالتي جعلته ينصت إلى دقات قلبي باهتمام من دون أن أدري، بل ويتابع شرودي الليلي اللذيذ وأنا غافل عنه؛ إذ باغتني فجأة:

- محمد... قل لي مَنْ هي؟

نزل عليّ سؤاله كالصاعقة... فجوابته، بعد توتر وبصوت خفيض:

- مَنْ؟

- يا عزيزي... أنا عليم بدقات القلوب!

قال لي ذلك وهو يضحك. كنت أشاهد التلفزيون آنذاك، أو بتعبير أكثر دقة، كانت عيوني مسددة نحو التلفزيون، لكنني لا أرى إلا وجه عزة سليمان الصبوح. بينما كان منصور يتابع حصاد اليوم على قناة الجزيرة، ويبدو أنه لاحظ شرودي، فاسترق السمع إلى دقات قلبي، فلما تأكد أنها دقات غرام، سألني بثقته المعهودة عن من تكون تلك التي استعمرت فؤادي وفقاً لتعبيره!

بطبيعة الحال، كان من الحماقة أن أخفي أسراري الغرامية الجديدة عن منصور، وهو الذي يعرف أدق التفاصيل عن خيالاتي الجنسية مع هند وإيرينا وسوما، فكيف أداري عنه هذا الحب العفيف والجميل؟ كما أنني كنت أتوق بشدة لأن أتحدث عنها وعن مشاعري الطازجة، التي تزورني لأول مرة.

قلت له كل شيء. حكيته له افتتاني برقتها، وانجذابي لأدائها، واختلاسي النظرات لمتابعة تحركاتها داخل المعرض. سردت له طريقتها في البيع،

وتصرفاتها مع الزبائن، بل لم أستح أن أخبره عن مساعداتها الدائمة لي، من أول سندويتشلت الجبن واللائشون والبيض، التي تحضرها معها لتتناول إفطارنا معًا، حتى شرحها المتواصل لفنون البيع وجذب العملاء! كنت أتحدث عنها بفرح، وكان قلبي كلما ذكرت اسمها رقّ ورفرف، وكنت أتحايل وأنا أتكلم لأذكر اسمها مرة ومرات، لأنني اكتشفت مؤخرًا لذة أن يذوب الفؤاد كلما نطق اللسان باسم الحبيبة!

تابع منصور حديث الشوق هذا باهتمام بالغ، لم يقطعه سوى اتصال من سمية الأبراشي؛ حيث تركني ليحدثها من غرفته بصوت خفيض. عموماً لم يرغب عني سوى خمس دقائق، وعاد متلهفًا لمواصلة الإنصات، خاصة أنه رآها يوم إعلان خطبته على سمية الأبراشي. فلما توقفت عن السرد بعد أن أفضت في الكلام عن عزة وأخواتها وأبيها، نهض منصور فجأة وأمرني أن أتبعه إلى المطبخ، حيث أعد لنا كأسين من الويسكي «رد لابل» الذي يفضلهُ دومًا، مع طبق سلطة خضراء وزيتون مخلل. لم يكن منصور يشرب الخمر إلا مرة أو اثنتين على الأكثر كل أسبوع. وفي كل مرة لا يتناول أكثر من كأسين من الويسكي، وإن كان أحيانًا يستبدله بالبيرة، وتحديدًا «الكورونا» المكسيكي، التي كنت أفضّلها أنا أيضًا نظرًا لمذاقها المسالم والهادئ. أما أنا، فلم أجروء على تناول البيرة أو الويسكي منفردًا، حتى في أيام إقامتي وحيدًا من دون عمل في شقة منصور؛ ذلك أن منصور هو من يشتري الخمر وهو الذي يعمل، فكيف أقدم على تناول هذه الخمر وهو ليس معي؟ على الرغم من تشجيعه لي، حيث كان يقول دائمًا:

- عندما تريد أن تشرب لا تنتظرنني... اشرب.

لكنني لم أفعل من باب الخجل. وكم من مرة فتحت باب الثلاثة وأخرجت زجاجة الكورونا، وهممت بنزع غطاءها، لكنني تراجع في اللحظة الأخيرة، وأنا ألعن نفسي «كيف أشرب وأنا عاطل؟ كيف أشرب ما لم أدفع فلسًا واحدًا في ثمنه؟».

- حكايتك تحتاج إلى الخمر لاستيعابها.

هكذا قال لي منصور ضاحكًا ونحن نخرج من المطبخ، هو يحمل كأس الويسكي، وأنا بيدي طبق السلطة والزيتون.. جلس منصور على الكنبه ماذًا قدميه على المنضدة، وفي يده اليمنى كأس الويسكي - منصور لا يتعاطى الخمر إلا في كأس، ويندد دومًا بمن يشربها في كوب زجاج - أما يده اليسرى ففيها سيجارة كعاده. وزّع منصور نظره بين التلفزيون وبينني بعد أن تناول أول جرعة، بينما كان كياني كله موجهًا إليه، أنتظر بشغف رأيه في حكاية غرامي.

- هذه الفتاة تحبك.

- هه!

ندت عني صرخة فرح من دون قصد.. بإيقاع صوتي رزين ضاغطًا على كل حرف، حتى يخرج واضحًا مكتملاً، كرر منصور عبارته الساحرة، التي أضأت فؤادي:

- هذه الفتاة تحبك.

بغض النظر عن قلبي الذي لا أدري أما زال في مكانه أم خرج من جسدي؟ فإن ما قاله منصور دغدغ ذكورتني إلى أقصى حد، ولكنه فتح باب الأسئلة التي لا تنتهي.

- كيف عرفت يا منصور؟

أعاد منصور وضع جسده فوق الكنبه بصورة أخرى، بعد أن أرجع قدميه إلى الأرض، ثم نظر إليّ برهة قبل أن يتحدث مدعوماً بخبرة عاشق قديم قائلاً:

- هذا الاهتمام الشديد بك من قبل عزة لا يمكن تفسيره إلا وفق قوانين الغرام.

ثم أضاف وهو يطفئ سيجارته:

- ألا تحضر معها كل يوم سندويشات لجناحك كما تقول؟

- نعم... نعم.

رجع منصور بظهره نحو مسند الكنبه، وأعاد وضع قدميه على المنضدة، وهو يتناول رشفة من الويسكي، ويهتف باسمًا:

- إنه الحب يا عزيزي!

كانت هذه أول مرة ألحظ فيها الشعر الكثيف في ساقبي منصور الممددتين أمامي، حيث يرتدي منصور «شورت» كعادته طالما كان في المنزل، يعلوه «تي شيرت» من القطن.. بعكسي أنا الذي لا أرضى عن البيجاما بديلاً.

لقد فسر لي منصور حكاية السندويشات، التي بدأت عزة تصر على تجهيزها وإحضارها لي كل يوم بعد شهرين من التحاقني بالعمل في الشركة، وبعد أن أصبح خروجنا معًا إلى مقهى الممزر أمرًا طبيعيًا أشتاق إليه، ولا تمنع هي في مجاراتي.

- السندويشات رمز الحب.

كرر منصور هذه العبارة أكثر من مرة، ثم هب ليأتي بمزيد من الثلج، وهو يعلن بثقة:

- إنها تبحث عن زوج... فانتبه!

ملعون منصور ابن خالتي... كيف لم أنتبه إلى ازدهار اهتمامها بي ورعايتها لي من يوم إلى آخر، على الرغم من أنني لم أصرح لها ولو من بعيد أنني أحبها، أو أنها تحتل مكانًا مرموقًا في فوادي.

لم أجرؤ على الإفصاح أبدًا، ولا أعرف كيف احتملت خمسة أشهر كاملة من الالتصاق بعزة سليمان نفسيًا ومعنويًا، من دون أن أبوح لها بحجم تأثيرها في حياتي.

في تلك الليلة نمت سعيدًا ونامت عزة على الوسادة الخالية بجواري، أو هكذا تخيلت أنها تشاطرنني السرير نفسه باعتبارها امرأة حياتي القادمة... حياتي الجميلة، حيث أصنع معها أسرة ودیعة ونجب أربعة أبناء: ولدين وبتين. وأكون أبًا رحيماً بهم صديقاً لهم، لا أباً فظاً غليظ القلب مثل أبي.

غداً... غداً سأستجمع كل طاقتي وأحاول أن أخبرها، أو أن ألمح لها أولاً أنني بها شغوف وبأنوثتها مفتون! وأنها كنز حياتي الذي وجدته أخيراً.

غداً... غداً... سأستعيد بالله، فأنا أطلبها في الحلال... نعم ستوافق
وسيعضدني المولى في رجائي. وسأتجاوز محتتي ومأساتي مع هند
وأخواتها البائسات، اللاتي فضحن عجزي وسخرن مني!

هكذا نمت في تلك الليلة مشمولاً بأحلام خضراء وأمنيات بلون
الورد، ولكنني لم أكن أعرف أبداً أنها لن تأتي في الغد، وأني سأحرم منها
نهاراً بكامله، وأني في الليل سأكون مكبل اليدين يجرنني رجال الشرطة
بملابسي الداخلية نحو السجن، بينما صراخ أمجد صفوان يثقب أذني،
عندما مرّ بجوارنا رجال الإسعاف وهم يحملون جثة إيرينا الروسية!

الخطوبة

- ألف ألف مبروك يا منصور يا حبيبي.

- ألف مبروك يا بني... عروستك جميلة ورقيقة.

كنت أتابع حديث خالتي عنايات وهي تبكي فرحًا، بينما منصور يقبل وجنتيها ويديها في مطار دبي بين مئات من الهنود والباكستانيين، الذين مرّوا على هذا اللقاء التراجيدي ولم ينتبهوا في الأغلب.

سمية الأبراشي أيضًا لم تتمكن من التحكم في دموعها، فذرفت قطرتين، لم تؤثرا على نعمة بشرتها ورونقها هذا المساء.

أول من انتبه لوجودي وسط فوضى الخروج من المطار، كان الأستاذ عبد العليم والد منصور، حيث انشغلت خالتي بابنها وعروسه، تتلمس هذا وتحسس تلك، ولم تلتفت إلى وجودي، إلا بعد أن سمعت زوجها يصفحني ويعزّيني. فصنعت مثلما صنع، وإن كانت قد احتضنتني بقوة، وهي تهمس في أذني:

- والدتك ستجن لرؤياك.

كل شيء في الأستاذ عبد العليم زوج خالتي زاد: وزنه وحجمه وشعره الأبيض، حتى سُمك زجاج نظارته! لقد امتلأ الرجل كثيرًا وتكوّر كرشه أمامه بصورة غير لائقة، كما أن البياض استطاع أن يقهر مساحة كبيرة من سواد شعره الناعم، ولكن وسامته ما زالت قادرة على جذب الانتباه على الرغم من عمره الكبير، أظن أنه تجاوز الستين الآن. أما خالتي عنايات، فكانت هذه أول مرة أراها فيها تغطي شعرها هكذا بإيشارب بني مزدان بزهور صغيرة صفراء، وقد لاحظت أنها امتلأت أيضًا بصورة كبيرة، وأن حركاتها أبطأ مما كانت، ولكن روحها المرحّة لم تفارقها بعد، وغرامها بزوجها ما زال متقدّمًا، فما تنطق بحرف إلا وتلتفت إليه، سائلة إياه إن كان ما تقوله صوابًا أم لا؟ وكان الرجل كريمًا مع زوجته، حفيًا بها، لا يعارضها قط، ولا يسفّه ما تقول أبدًا. وإن لم يوافق رأيا وكلامها، كان يشرح لها بلباقة خطأ الرأي الذي ذهبت إليه، من دون أن يشعرها بأي حرج، فتعود لتوافقته تمامًا، حيث تنتصر لما قال، وتهجر رأيا القديم من دون لحظة ندم واحدة، أو إحساس بالإحباط.

هذا ما لاحظته بقوة وأنا أتابع أحاديثهم، سواء ونحن في مطار دبي، أو داخل سيارة منصور، أو ونحن نتناول عشاءنا تلك الليلة في مطعم فرحات.

منصور الذي يرفل في ثياب سعادة لم أرها من قبل، كان قد استدعى والديه من مصر ليتعرفا إلى سمية الأبراشي وأهلها، ويحضرا حفل خطبته لها، إذ اراقت لهما الفتاة، وباركا هذه الزيجة. في الطريق من المطار جلست بجوار منصور، الذي قاد سيارته برفق، بينما جلست سمية الأبراشي بين

والديه في المقعد الخلفي. لم يتوقف منصور عن السؤال عن إخوته طوال الطريق، وعن شرح الأماكن والشوارع التي نخترقها. وقد تلقى اتصالين أثناء سيرنا على موبايله من الأستاذ صلاح الغندور وعبد الله راشد، حيث كان كل منهما يطمئن على وصول والديه بالسلامة ويبلغونهما التحيات الحارة.

في مطعم فرحات، همهم الأستاذ عبد العليم بعبارات تمتدح البلد ومطارها ونظافتها ونظامها المروري، في الوقت الذي تأسّى فيه على القاهرة التي شاخت وباحت، وصارت مدينة لا تطاق كما يقول. كان يردي بدلة أنيقة نسبياً رمادية اللون فوق قميص أبيض من دون ربطة عنق.. وكان حليق الذقن كعادته، أما شاربه الرقيق، فلم تتبق منه شعرة سوداء واحدة.

لم تتوقف خالتي عنايات عن مراقبة سمية الأبراشي أثناء تناولها الطعام، كما لم تكتفِ بالأسئلة التي وجهتها إليها، ونحن في الطريق، عن أسرتها، بل كررت بعضها واستولدت أسئلة جديدة من أسئلتها القديمة!

في هذا العشاء تألقت سمية الأبراشي بصورة مدهشة، فقد تعاملت مع حماتها القادمة بود وحقق، فزرعت في قلبها أشجار الطمأنينة؛ لأن الفتاة التي سيقترن بها ابنها فتاة مهيبة من عائلة محترمة وراقية، وأنها تعرف الأصول تماماً، وأن منصور بالنسبة لها رجل حياتها و بطل أزمانها الآتية.

لا أخفي عليكم أن المشهد كله برمته كان يغريني بمقارنات عدة، فهي هو منصور يعلن رغبته في الزواج بصورة علنية، بعد تجربة سرية مع صفاء الشرنوبى، لم يعرف بها أحد سوى بدر المنيأوي رحمه الله وزوجته. ترى أين هي الآن؟ وماذا تفعل بعد أن احترق جسد زوجها وتفحّم؟

لقد تكلف منصور آلاف الدراهم؛ من أجل دعوة والديه إلى دبي ثمنًا لتأشيرات وتذاكر طيران وهدايا... إلخ.. كل ذلك حتى «يفرح والديّ بي، فأنا أحبهما ومدين لهما بالكثير»، كما قال لي.

ترى هل كان من الممكن أن أخبر أبي قبل وفاته بأنني أفكر في الزواج؟ لم يكن يدعني أكمل العبارة؛ حتى ينهال عليّ تقرّيعاً بألفاظه البذيئة، أمراً إياي ألا أفكر في هذا الأمر الآن: «تتزوج... وهل تملك المال اللازم لذلك؟ ألا تفهم... إن شقيقتك لم تتزوجا بعد، فما هذه الأنانية أيها الحيوان؟».

- كيف أحوالك في العمل يا محمد؟

طردت خاطر الرديء وبذاءته الذي راودني عن أبي فوراً، عندما انتبعت إلى سؤال الأستاذ عبد العليم، الذي كان يلتهم قطعة كباب بشهية مفتوحة، وقبل أن أجيب أعادت خالتي عنايات السؤال نفسه، مضيفة إليه أن أُمي قلقة جداً عليّ:

- الحمد لله... أحوالي بخير.

ثم أردف منصور، وهو ينظر إليّ باسمًا:

- لقد وجد عملاً ممتازاً في شركة الحبتور للسيارات منذ شهرين.

أما سمية، فخاطبت خالتي بحميمية، وكأنها فرد من أفراد الأسرة:

- محمد إنسان طيب ومنصور يحبه كثيرًا.

- طبعًا يا ابنتي... إنهما شقيقان وتربيا معًا منذ الصغر.

فجأة ومن دون مقدمات، أطلق الأستاذ عبد العليم هذا السؤال في وجه منصور، بعد أن مسح عن فمه بمنديل ورقي آثار الطعام:

- ما موقف الناس هنا من إعدام صدام حسين؟

استبشر وجه منصور، فهذه قد تكون المرة الأولى، التي لا يطرح فيها الأسئلة على أبيه، بل العكس هو الذي يتم. بأدب شديد تحدث منصور عن طبيعة الشعب العراقي التي لا نعرفها نحن في مصر كما يزعم، فهو شعب شديد التنوع يضم أطياً عدة، حيث هناك مسلمون شيعة، ومسلمون سنة، وصابئة ويزيديون وأشوريون، ومسيحيون وعرب وأكراد وتركمان، وقبائل وعشائر... إلخ.. كل هذا التنوع الجميل - يقول منصور - لم يدفع صدام إلى الاستفادة منه وإثراء مجتمعه، بل اعتبر البطش والاستبداد ضرورة حتمية للسيطرة عليه وضبط إيقاعه، ثم هتف منصور بأداء مسرحي:

- أبي... كل العراقيين الذين أعرفهم هنا يكرهون صدام!

وبعد أن بلع ريقه، أكمل:

- بعد احتلال بغداد... استقبلت الإمارات عشرات الآلاف منهم، أولئك الذين فروا من الحرب... لقد كان الشيخ زايد كريماً معهم إلى أقصى حد.

- حقاً، فقد هبطوا مصر أيضاً بمئات الآلاف كما يقولون، وقد وجدوا راحتهم في مدينة 6 أكتوبر.

كنت أتابع حديث الأب والابن باهتمام أول الأمر، ولكن مع إسراف منصور في الحديث عن جبروت صدام فُتّر حماسي لأنني استمعت إليه

كثيراً يردد الكلام نفسه، والحكايات ذاتها عن جرائم الرئيس العراقي المخلوع.. تلك الحكايات الموجعة التي كان يقصها عليه أصدقاؤه من الأدباء والصحافيين العراقيين، الذين أحبهم منصور كثيراً كما أخبرني.

وهكذا وجدتي أزيح وجه صدام الجبار من دون قصد، لأستقبل وجه عزة سليمان البشوش.. استعدت بفرح حوارنا في الصباح عن أحلامها، وكيف تخطط لحياتها، وما الوقت الذي تنوي أن تظل فيه في دبي؟ ومتى ستقرر العودة بصورة نهائية إلى مصر؟ كنت أسألها بحماس، وكانت تجاوبني برضا، بل وترد إليّ أسئلتني طالبة مني أن أجيب أنا.

في هذا اليوم، شعرت أن عزة سليمان تتسلل برفق إلى أوردتي، فتسكن خلاياي، وتغرّد على أبواب شراييني.. لكنني لم أجرؤ أبداً على أن أبوح لها بالأزهار الملونة التي تتكدّس في قلبي كلما رأتها عيناى، ولا أنا قادر على أن أشرح لها كيف أصبحت أعشق فيروز - على الرغم من أنني لا أفهم نصف كلامها - لأنها مفتونة بأغنياتها وموسيقاها!

لم أشعر طوال حياتي بالفرح هكذا من قبل، كما لم يتتابني إحساس مرعب هكذا بالإخفاق، لو أن عزة استقبلت مشاعري الساخنة نحوها بفتور، فأنا لا أحتمل وخز الصد، بعد أن ذقت مرارة العجز. كما لا أظن أنني أصلح للحياة، من دون أن تلونها عزة بابتسامتها المشرقة.

- هل أنت مرتبط يا محمد؟

أذكر جيداً كيف وقع سؤالها عليّ كالصاعقة.. كنا نجلس على مقهى الفنانين في الممزر، وكانت قلقة نسبياً - لا أدري لماذا؟ كانت ترتدي بلوزة

حمراء بنصف كم وبنطلون جينز أسود. كنا منهكين من العمل طوال النهار، وكنت سعيدًا بصورة كبيرة؛ لأنني تمكنت من بيع سيارتين لأول مرة في يوم واحد منذ التحقت بالشركة، فاقترحت عزة دعوتي إلى تناول الشاي ابتهاجًا بهذا الحدث. بصراحة، كان كل منا ينتهز أي فرصة - ولو تافهة - ليدعو الآخر إلى الخروج معًا لتناول الشاي.. صحيح أن عزة كانت الأمهر في اقتناص الفرص واختلافها، ولكنني تجرأت قليلًا ودعوتها غير مرة.

«مرتبط»... هل يمكن أن يأتي يوم، وأفضل فيه صندوق أسراري المخزية مع هند وإيرينا وسوما أمامك يا عزة؟ مستحيل.. لكن سؤالها عن ارتباطي كشف لي حجم الورطة التي أوقعت فيها شبابي؛ حيث إنني لم أعشق من قبل، ولم أتدله في هوى فتاة، أي فتاة من قبل. وأني لم أحاور القمر في ليالي السهر كما يفعل العشاق المغرمون، كما أنني لم أنعم لحظة برؤية الحبور في عيون أي فتاة وأنا أهديها وردة. ياه... ثلاثون عامًا لم أحصد فيها سوى مرارات خيبة جنسية مزعجة ومخجلة.. ثلاثون عامًا لم أكتب فيها جملة عشق واحدة تقرّبًا لأي فتاة، كما يفعل المحبون على مر العصور.. ثلاثون عامًا لم أنتظر بشغف مقدم فتاة على أول الطريق.. ثلاثون عامًا لم أضبط نفسي فيها شاردًا، أفكر في ملامح حبيبة أو معشوقة.

لا... يا عزة... لن أجرؤ قط على أن أبوح لك برصيدي الشحيح مع المرأة؛ لأنها مجرد مغامرات خائبة على سرائر الداعرات!

قلت لها بهدوء، وبصوت أظنه يضج بحزن جليل:

- لا... لست مرتبطًا.

أعتقد أن فراشات ملوّنة انطلقت من عينيها، حين قلت لها ذلك؛ لأنها
بادرتني بسؤال نطقته بمرح حقيقي ورغبة لم تتمكن من إخفائها:

- ومتى تنوي الزواج... أقصد الارتباط؟

آه... لماذا تضغطين على الوتر الحساس يا عزة؟ زواج...! هل أنا قادر
على ممارسة الزواج؟ هل يمكن أن تقنع بي فتاة، أي فتاة، إذا عرفت السر؟
هل يمكن لك أنت يا عزة أن تشاطريني الحياة إذا علمت أن هناك خطرًا
داهمًا يهدد أنوثتك، وهو أنني قد لا أستطيع أن أمنحك سحر اللذة ونعمة
الأمومة؟

- عندما يشاء الله.

آسف يا عزة... لم أستطع أن أقول أكثر من ذلك.. لا أدري حجم
مشاعرك نحوي، ولا أملك أي يقين بأنني إذا تقدمت تجاهك قليلًا،
ستستقبليني بترحاب!

أذكر الآن جيدًا أن الابتسامة لم تفارقها، على الرغم من أنني لم أشبع
طموحها، أو أروي ظمأها الأثوي بكلمة تطمئن فؤادها بأن يومًا ما سوف
أطلبها للاقتران، كما قالت لي بعد أن تخلصت من أزمتي معها، التي
استمرت ستة أشهر منذ زواجنا.

- الحساب من فضلك.

بصوته القوي وهو ينادي على جرسون مطعم فرحات، أخرجني
منصور من حلم جميل بطلته عزة الجميلة، مثلما أدخلتني جثة إيرينا بعد
ذلك بأسابيع إلى كابوس مخيف!

أنا ... مرة ثالث

هذه أول مرة أدخل فيها فيللا في دبي، كما أنها أول مرة تلتقي فيها عزة سليمان مع سمية الأبراشي. كان اليوم الرابع لعيد الأضحى المبارك، وكان صدام حسين قد أعدم في أوله، فأثار لغطاً بين الناس سرعان ما انتهى.

لم أشارك في هذا اللغط، وإن كنت أجامل مَنْ يسألني، فإن كان ضد إعدام صدام أوضحت له أنني متعاطف مع رأيه. وإذا كان يرى أن الرئيس العراقي يستحق الشنق، لم أعترض.. لكن نسمة الهواء في هذه الليلة كانت أكثر من منعشة، وأرق من صدام حسين ألف مرة! أما حديقة الفيللا، فينبعث منها أريج زهور نادرة، وأشجار لا أعرف اسمها ترطب الوجدان وتشرح الصدر.

قد تكون هذه أجمل هيئة بدا فيها منصور؛ فهو عريس الليلة الذي ارتدى بدلة كحلي فوق قميص وردي اللون، و«بيون» كحلي أيضاً، ولبس رابطة عنق. كان يشع أناقة في هذا المساء. أما سمية الأبراشي، بطلة هذه الليلة بامتياز؛ فقد حرصت على أن تبدو بسيطة ورقيقة في آن واحد، من خلال

ارتدائها فستاناً وردياً يلائم مناسبة الخطبة، كما أنها قامت بتصفيف شعرها بطريقة بديعة، فكان الهواء الخفيف الذي يسري بين الشجر يداعب هذا الشعر ويربك انتظامه؛ فتعيده سمية إلى وضعه بحركة رشيقة من يدها.

اتسعت حديقة الفيلا الكائنة في منطقة القصيص لاستقبال عدد محدود من المدعوين، الذين نثروا أنفسهم كيفما اتفق على المقاعد المريحة في الحديقة، أو داخل حجرة الاستقبال في الفيلا.

والد سمية - صاحب الفيلا - كان يبذل جهوداً جبارة لتوفير الراحة للضيوف، فكان يصول ويجول داخل وخارج الفيلا، مرتدياً بدلة بني أنيقة تسبقه ابتسامة رسمية لا تخلو من لطف، يرحب بحرارة ويصافح بحماس، حريصاً على أن يخص كل فترة الأستاذ عبد العليم وخالتي عنايات بالتحية والترحاب.

أما والد سمية، فقد بدت كأمية سابقة وهي تتأني بفستانها الأحمر الطويل، الذي يبرز مفاتن جسدها الممتلئ قليلاً، والذي يناسب سيدة تجاوزت الخمسين. وقد تركت شعرها الأصفر - أظن أنه مصبوغ - يتدلى على كتفها براحتة.. للحظة اعتقدت أنها تشبه الممثلة ليلي طاهر، ولكن حين دقت النظر في وجهها خلصة، وهي توجه الخادومات الفلبينيات، نحو مزيد من إتقان العمل، لم أجد هذا الشبه!

وقفت أقرب باب الفيلا يعتريني توتر لذيذ، فقد دعوت عزة سليمان إلى حضور الخطبة، كما طلب مني منصور، بل لقد تحدث معها تليفونياً ودعاها بنفسه. كذلك فعلت سمية، الأمر الذي جعلني أشعر بفرح كبير؛

لأن ابن خالتي وعروسه يهتمان بي، ويسعيان لأن يوفرا ما يحقق لي قدرًا من السعادة.

لقد أكدت عزة أنها في الطريق، فلماذا تأخرت هكذا؟ هل ترددت في المجيء فقررت العودة من حيث أتت؟ إن التردد ليس من خصال عزة، فأين هي إذن الآن؟

حين دلف الأستاذ صلاح الغندور من باب الفيلا، تتأبط ذراعه زوجته الدكتورة منى رشاد، أيقنت أن منصور خسر معركة الأناقة هذه الليلة؛ فالرجل لاح لي كشهاب لامع يخترق ليل الفيلا؛ إذ ارتدى بدلة ناصعة البياض فوق قميص وردي و«بيون» أحمر. أما الحذاء فلم أر شيئاً له من قبل، فقد كان شديد البياض أيضاً. هذه الهيئة المدهشة للأستاذ صلاح وابتسامته البراقة، دفعت الخادومات الفلبينيات إلى الافتتان به كما لاحظت، وذلك من خلال نظرات عيونهن، وإصرارهن على تقديم المشروبات له طوال الوقت.

«إنه نجم سينما بامتياز» هكذا قلت لنفسى بصوت مسموع، في حين ارتدت زوجته الدكتورة منى رشاد فستان سهرة أسود مفتوح من الصدر يبرز مفاتن جيدها وانسيابيته، التي توافق ملامحها الرصينة والهادئة.. لم تضع الدكتورة من الأكسسوارات والماكياج إلا القليل الذي يؤكد تناسق الوجه وملاحظته. «إن الأستاذ صلاح وزوجته يدوان كعريسین جديدين هذه الليلة»، هذا ما قاله لي منصور بعد أن استقبلهما بحفاوة.. بعد التحايا والمصافحات والمجاملات الرسمية، جذب عبد الله راشد الأستاذ صلاح نحو زاوية في حديقة الفيلا ذات إضاءة أقوى؛ ليطلعه على قصيدته

الجديدة. تابعتهما بعيون قلقة وقلب مضطرب، حتى أنارت ليل الفيللا فتاة أحلامي بوجهها الملائكي.

كانت هذه أول مرة أرى فيها عزة سليمان ترتدي فستاناً، والمرة الثانية كانت فور خروجي من السجن، فطوال الوقت كان البنطلون الجينز صديقاً مخلصاً لها، ولكن في هذه الليلة تجلّت عزة كعروس من السماء بفستانها الأزرق الرقيق، وشعرها الأسود الناعم المصفف بطريقة فريدة هذا المساء.. باقة الورد الضخمة والبديعة التي قدمتها عزة إلى العروسين فسّرت لي سبب تأخيرها.

- لا يمكن أن أراهما لأول مرة، وفي حفل خطبتهما، ولا أقدم لهما وروداً!

هذا ما قالت له لي موضحة سبب تأخيرها، حيث مرّت على ثلاث محلات تباع الورد؛ لتنتقي أرقها وأجملها.

حقاً يا عزة... ما أروعك. كيف لا تفوتك هذه اللمسات الرقيقة، بينما أنا جئت هكذا لا ورد ولا هدية ولا يحزنون! وليس عندي حُجة، فأنا أعمل الآن وأتقاضى راتباً، فكيف لم أُنْتبه إلى هذا الواجب الاجتماعي؟ هل لأنني لا أعد منصور شخصاً غريباً عني، ومن ثم لا ضرورة لتقديم الهدايا إليه؟ ولما سألتني عزة: ماذا أحضرت لهما من هدايا؟ أجبتها بلا مبالاة: لا شيء.

أذكر جيداً وجهها وهو غارق في بحر الذهول.. وأذكر جيداً عتابها الهامس لي بأن هذا لا يصح ولا يليق.. وأذكر جيداً كيف رددت على

مسامعي الحديث الشريف «تهادوا... تحابوا»، وهي تؤكد أن هذا الحديث الشريف هو شعارها في الحياة.

وددت لحظتها أن تنشق حديقة فيلا سمية الأبراشي وتبلغني من فرط الخجل.. لا لأنني لم أسمع بهذا الحديث من قبل، بل لأن رصاصات اللوم التي انطلقت من عيني عزة سليمان، وهي تلقني درسًا في الأصول والأعراف، كانت أقسى مما تحتمل روحي. ومرة أخرى أحسست بمدى وضاعتي، وبأنني شاب فاشل. وها هي عزة سليمان تكتشف عيبًا من عيوبي، التي لا تنتهي فيما يبدو، ولكنها لم ترحمني، وأبدت امتعاضها الشديد لكوني لم أهتم بمناسبة استثنائية كهذه، فأكرم أصحابها بهدية مهما صَغُر شأنها.

أنقذني منصور من تقريع عزة المتواصل، عندما ظهر بيننا فجأة سائلًا:

- ما رأيكما في أغنيات الحفل؟

اكتشفت أنني حتى هذه اللحظة، لم أنتبه إلى الأغنيات التي تنبعث من جهاز الكاسيت، الذي وضع في أحد أركان الحديقة، ولكن عزة تعاملت مع سؤال منصور بحصافة قائلة:

- أغنيات رائعة... من قام بتجميعها؟

بثقة عريس مرغوب ومحبوب، هتف منصور:

- أنا... لقد ظللت يومين أعد هذا السي دي.

انضمت سمية الأبراشي إلينا، وشادية تشدو «يا ديلة الخطوبة عقبالنا كلنا»، فقالت بفرح:

- أحب هذه الأغنية كثيرًا.

ابتسمت عزة وهي ترنو إلى سمية، ثم عَقَبَتْ:

- وأنا أيضًا.

- عُقْبِي لك يا عزة.

سأظل حتى أموت مندهشًا: كيف ومتى تابعت عزة سليمان الإنصات إلى هذه الأغنيات، وهي لم تتوقف منذ أن دخلت من باب الفيللا عن ملاحقتي بسهام التأنيب؟ رmqتها وهي تبتعد عني قليلًا؛ لتدخل في حديث هامس مع سمية الأبراشي. كانت لا تقل فتنة عن عروس الليلة. وكنت خَجَلًا جدًّا منها، ولا أدري ماذا أفعل لأسترد ثقتها في مرة أخرى؟

- ما رأيك؟

سألني منصور من دون أن ينظر إليّ، حيث كان يوزّع بصره على الحضور مثلما يمنحهم ابتسامته.

- في ماذا؟

- في الحفل.

قال ذلك وهو يضع يده على كتفي مسددًا نظره نحوي. لم أكد أكمل كلمة «رائع»، حتى تركني منصور مهرولاً في اتجاه باب الفيللا، ليستقبل مجموعة جديدة من الضيوف، تذكرت بعضها إذ التقيتهم في منزل الأستاذ صلاح في السهرة الوحيدة التي دُعيت إليها.. لكنني لم أذكر اسم أي منهم

سوى «اعتقال عبد الجبار»، ذلك أن اسمها لا يمكن أن ينسى، كما أن منصور أخبرني عن سر هذا الاسم المخيف. قال لي منصور إنها وُلدت وأبوها معتقل في سجون بغداد. وهكذا أطلقوا عليها هذا الاسم المشؤوم، كعادة أهل العراق في اختيار بعض أسماء ذويهم!

لاحظت أن جميع من وصلوا كانوا يحملون هدايا متنوعة للعروسين، فازداد حيائي من نفسي. وبعد أن استقبلهم منصور وسمية بحفاوة وفرح، صافحونني وهم ينادونني باسمي، فكنت أتصيب خجلًا لأنني نسيت أسماءهم. ولولا ذكاء منصور الذي كان يقف بجواري، مرددًا أسماءهم: عبد الزهرة وسارة حكو وجمال عبد الناصر وسعد شينو وسوسن بيرقدار وعماد بيضون، أقول لولا ذكاء منصور لكنت في موقف لا أحسد عليه، لأنهم جميعًا تذكروني وعاملوني بود كبير، حتى أن عماد بيضون قال لي ضاحكًا:

- لا تشرب هنا اليوم، حتى لا تكرر ما حدث في منزل الأستاذ صلاح! كرهته وأنا أبادله ابتسامة مصطنعة، لاحظها منصور بدقة، فسارع إلى الإعلان عن خطته هاتفًا:

- لا شراب هنا الليلة، فوالد خطيبي لا يتناول الخمر، ولكن الأستاذ صلاح يدعوكم جميعًا للسهر في فندق الميريدان بعد انتهاء الحفل. في صوت واحد صرخ عبد الزهرة وسعد شينو «برافو... برافو... أجمل دعوة».

مفاجأة لم تكن في الحسبان، ترى هل سأذهب معهم؟

أنا لا أرغب في ذلك. فقط ، أتمنى أن أظل بصحبة عزة، التي تقف الآن مع خالتي عنايات! حقًا... فيم تتحدثان؟ وكيف تعرفت إليها؟ فلاذهب نحوهما لأتابع حوارهما، فأنا شغوف بكل ما تقوله ابنة «السباك». يا الله... من كان يصدق أنه قد يأتي يوم وأصالح فيه النساء ، بعد أن سُفكت روحي خجلًا على أسرتهن البائسة.

- زميلتك في العمل لطيفة جدًا يا محمد.

استقبلتني خالتي عنايات بهذه العبارة المشرقة، فارتجف فؤادي، وامتلأت معدتي بالتوتر.. ماذا تقصدين بهذه العبارة يا خالتي؟ وماذا قالت لك عزة حتى تصلي إلى قناعة بأنها «الطيفة»؟ هل تلمّحين إلى أنها فتاة تصلح لأن تكون زوجة لي؟ آه... يا خالتي لو تعلمين كبواتي مع النساء، لبكيت من أجلي!

- محمد أخ عزيز يا «تانت».

قالتها عزة وهي ترمقني بنظرة طويلة تعجبت في تفسيرها.. هل أرادت أن تعتذر بطريقة غير مباشرة؛ لأنها أفاضت في لومها لي الليلة؟ أم أنها تحاول أن تؤكد أنني مجرد أخ، وليس لي الحق في الطمع بأكثر من ذلك؟ وهل أجروا أنا أصلًا أن أتقدم خطوة نحوك يا عزة؟ أنا راضٍ بأن أراك وأن أتأملك، حتى لو لم تنتهي لوجودي. يكفيني أن أتابع حديثك مع الزبائن والملاء والزميلات في الشركة. يرضيني أن ألتصص عليك، وأنت تتناولين طعامك برقة لانهاية.. يبهجني أن أنصت إليك على مقهى الفنانين بالممزر، وأنت تفخرين بأبيك المكافح وأسرتك المتواضعة..

يطربني حماسك لفيروز وترديدك لبعض مقاطع من أغانيها وأنت تقودين السيارة.. يؤلمني شروذك المفاجئ وحزنك الطارئ.. تسبيني نظرة عينيك وأنت تعطيني سندويتش الإفطار كل صباح.. آه... يا عزة لو تعلمين كم أحبك، وماذا صنعت بي؟ لكن ما حيلتي وأنا لا أفكر حتى في امتلاكى جرة البوح، وكأنني أتلذذ بغرامي المكتوم.

- أين أنت؟

انتبعت إلى سؤال عزة الذي كررته مرتين، بعد أن لفح نَفْسها خدي الأيسر، وهي على وشك أن تلمسني بكامل جسدها.. جفلت من حرارة جسمها، فكذبت عليها، وقلت لها: إنني كنت أتأمل عناقيد النور التي تزيّن حديقة الفيلا.. يبدو أنها صدّقت زعمي هذا، لأنها أردفت بسرعة:

- حقاً... إن تنسيق الإضاءة مذهش، فضلاً عن ألوانه العجيبة.

ثم أضافت:

- أظن أنهم استعانوا بمهندس ديكور؛ ليتولى تزيين الواجهة والحديقة والصالة.

لم تعطيني فرصة لأعلق، لأنها استطردت:

- غداً سأتصل بسمية وأؤكد.

هكذا يا عزة... أصبحت سمية صديقتك وفي طرفة عين، وستتصلين بها غداً كأنكما صديقتان منذ سنين! أي مخلوقة أنت يا فتاتي. لكن لماذا لم يهتم بك منصور ابن خالتي كما كنت أتوقع؟ لقد صافحك باحترام، وقدم

شكره لك على هديتك الرقيقة، ثم انصرف ليتابع شؤون ضيوفه بهدوء. على أية حال هذا أفضل، حتى لا يفضح أمر غرامي، على الرغم من أنه هو الذي ألح في أن أدعو من أشاء من زملائي الجدد في الشركة.. أخبرته أنني ليس لي سوى صديقة واحدة في الشركة يقال لها عزة سليمان. لم يكثر أول الأمر، ولكنه طلب مني أن أدعوها، ثم خطف من يدي الموبايل ليدعوها بنفسه، عندما لاحظ تلغثمي وأنا أتحدث إليها.

- مَنْ هذا الرجل؟

سألتني عزة بفضول لم تستطع إخفاءه، وهي تشير إلى الأستاذ صلاح الذي تحلّق حوله أصدقاؤه العراقيون والسوريون واللبنانيون، وآخرون لم أرهم من قبل. كان مشهدًا لافتًا بحق، حيث كان إعدام صدام حسين مثار الحديث، الذي وصلني بعض عباراته من أصحاب الأصوات المرتفعة. بدا لي أن الأستاذ صلاح الغندور أكبرهم مقامًا وأكثرهم هيبة، وأنه يتمتع بشعبية يحسد عليها. وددت لو كنت أقف معه الآن، ولكن وجود عزة وانشغالي بها شتت اهتمامي بأي حديث آخر في هذه السهرة. قلت لها بفخر زاعمًا أنه صديقي:

- ألا تعرفينه؟ إنه الأستاذ صلاح الغندور، أهم صحافي مصري هنا بالإمارات.

همهمت بكلمات غير مسموعة وهي تهز رأسها بالإيجاب، من دون أن تحوّل بصرها عنه.. في تلك اللحظة، اكتشفت أن جسدها يقترب مني بصورة لم تحدث من قبل، حين مالت قليلاً نحوي لتفسح الطريق أمام

المدعوين، الذين بدأوا يدخلون إلى صالة الفيللا، بعد أن دعاهم والد سمية الأبراشي لتناول العشاء.

رائحتها زلزلتني، وأهاجت داخلي للحظات ذكريات مؤسفة عن هند ورائحتها ومصبيتها. ولكن سرعان ما امتلأ أنفي برائحة عزة الناعمة والحريية، فأحببت الوقوف قربها أطول فترة ممكنة، لدرجة أننا كنا آخر اثنين دلفا من حديقة الفيللا إلى الصالة.. كان البوفيه عامراً بحق، وكان والد سمية قد أحضر الطعام من فندق البستان القريب، ومعه طبّاخ خاص يتولى تقطيع الخروف المحشي مع الأرز. وقفت متردداً لا أعرف من أين أبدأ؟ كنت قد شعرت بالجوع منذ مدة، وكان شكل الطعام ورائحته تغرياني بالإقدام، ولكن منعني حيائي ورعبي من ألا أتقن آداب المائدة من التقدم خطوة! لاحظت عزة ارتباكي، فسألتني أي الأصناف أفضل؟ سرّني اهتمامها بي، فقلت لها: مثلما ستأكلين سأفعل. وما إن شرعت في إعداد طبقين لنا، حتى قالت لي بنبرة، أزالتي كل ما علق بروحي من غبار تأنيبها لي هذه الليلة:

- ماذا تريد أن أعد لك من أجل إفطار الغد؟

الجريمة

بقع الدم التي لطّخت قميصي كانت أول دليل ضدي في جريمة مقتل إيرينا الروسية، في ذلك المساء المشؤوم. عبثًا حاولت أن أشرح للضباط الذين ألقوا القبض علينا، ونحن نقبّل في الجثة أنني لا دخل لي بما حدث من دون جدوى!

كان نهارًا مملاً و ليلاً أسود... لقد غابت عزة سليمان عن العمل لأول مرة في ذلك اليوم المحزون، منذ انضمامي إلى أسرة الشركة، فحرمتني من طلتها الرقيقة ودعمها المستمر وساندويتشاتها اللذيذة. اتصلت بها لأستفسر عن سبب غيابها، فتكفّل صوتها المبحوح بالإفصاح عن سوء حالتها الصحية.. تمنيت لها الشفاء العاجل وقلبي ينفطر.

شعرت باليتم في الشركة من دونها، وهاجمتني الوسوس - من دون مبرر - بأنني معرض للطرد من الوظيفة، على الرغم من أنني جئت في الصباح، محتشداً بطاقة حب جبارة نحوها، بعد أن أوضح لي منصور أموراً كثيرة أمس عن فنون الغرام وحيل البنات، جعلتني لا أطمئن إلى شعورها

نحوي فحسب، بل حفزتني على أن أحاول أن أبوح لها - ولو بطريق غير مباشر - عما جرى لي، منذ قذفت بي المقادير في حداثق أنوثتها!

لماذا إذن تختفين اليوم يا عزة؟ شفاك الله يا فتاتي الجميلة، وخفف عنك أوجاعك وآلامك يا منية الروح.. لم أتمكن من السيطرة على غول الضجر، الذي أمسك بي طوال هذا النهار الملعون، فكأن الريح تحتي كما يردد منصور قول أحد شعرائه، كلما انشغل بموضوع ما وزاد توتره. حتى الزبائن كان عددهم شحيحاً في ذلك الثلاثاء البغيض، وكأنهم أحجموا عن الحضور؛ لأن وجه عزة الساحر لا يضيء المعرض!

جلست منزوياً في أحد الأركان أتأمل السيارات المعروضة للبيع حيناً، وأعبث في الموبايل أحياناً. حتى هذه اللحظة لا أدري لماذا بعثت برسالة إلى أمجد صفوان في هذا النهار الكئيب أسأله فيها عن أحواله.. ربما لأننا تعودنا على تبادل الرسائل بين فترة وأخرى، أو ربما لأنني من أصحاب الحظ السيء.. ليتني ما فعلت، فقد بادر أمجد فوراً بالاتصال بي، بل دعاني كذلك إلى تناول العشاء في المساء. أعجبتني الفكرة، فوافقت من دون تردد.. كنت أريد أن يمر الوقت لأتحرر من أسر هذا القنوط الذي يفتت أعصابي. حقاً... لا حياة لي من دون عزة سليمان، ولا طعم للنهار من دون ابتسامتها الوضّاءة.

وصل أمجد أمام المعرض في التاسعة تماماً كما اتفقنا.. فاجأني أنه اقتنى سيارة جديدة ماركة تويوتا برادو. لم يعطيني فرصة لأستفسر عنها؛ إذ أكد لي أنه ابتاعها قبل أسبوع واحد فقط، بعد أن باع سيارته القديمة النيسان

صني، ولكن رائحته التتنة ما زالت كما هي بكل أسف. قلت له بأداء يمتزج فيه الحسد بالفخر كونه صديقي:

- واضح أن أمورك المالية على ما يرام.

بسعادة وأداء مغرور، ألقى عليّ حكمته:

- إذا لم نجتمع المال الوفير في دبي، فلن نجتمعه أبدًا طوال حياتنا!

كانت السيارة فاخرة بحق من الداخل، وكانت رائحته المزعجة مختلطة بعطر رجالي غالي الثمن. أما صوت شيرين، فكان ينطلق من الكاسيت كعادة أمجد المهوروس بها.. الزحام بدا شديدًا داخل ديرة في هذا المساء المرفوض؛ الأمر الذي دفع أمجد إلى أن يطلق السباب على كل شيء: الزحام والناس والبلدية وإدارة المرور.

- اليوم الثلاثاء... فلماذا كل هذا الزحام إذن؟

انشغلت عن غضبه بتأمل أضواء المحلات والمولات الفخمة، التي تتكدس في شوارع ديرة، فلما استبدى اليأس لأننا لا نتحرك خطوة واحدة بالسيارة، سألته:

- إلى أين سنذهب؟

ابتسم وهو يرنو إليّ بمكر قائلاً:

- إلى إيرينا... ما رأيك... فلتجرب مرة أخرى؟

ألم تنسَ يا أمجد؟ لعنة الله عليك، فأنا نسيت، أو أحاول النسيان. والفضل كله يعود إلى فراشات الغرام، التي أطلقتها عزة سليمان حول

فؤادي منذ النظرة الأولى. «فلتجرب مرة أخرى»... الفضيحة ورائي ورائي.. لِمَ تعذبني يا أمجد بالذكريات الرديئة؟ انكمشت في مقعدي خَجَلًا منه، وندمت لكوني اتصلت به والتقيته. فكّرت لحظة أن أغادر السيارة، ولكنني تراجع خوفًا من غضبه المتوقع، لو أقدمت على هذا الفعل. ومع ذلك، فأنا لا أريد أن أظل مسجونًا معه داخل سيارة مسجونة بين الزحام، فماذا أفعل؟ ثم خطر لي أن أعاود التجربة مع إيرينا... لِمَ لا؟ حتى إذا وقفني الله وتزوجت عزة سليمان، لا ينفصح أمري معها في ليلة الزفاف، وهو ما كان بكل أسف. ولكن هل أجرو؟ هل يطاوعني قلبي الذي خطفته ابنة السبّاك الجميلة؟ هل أجرو كذلك على التعري مرة أخرى أمام امرأة أخفقت معها من قبل؟ تكدست في قلبي مشاعر شتى متضاربة، فشعرت باختناق فاقمته رائحة أمجد المقززة.. لم أتمكن من اتخاذ قرار، حتى وجدتني أمام العمارة، التي تقطن فيها إيرينا في منطقة البراحة.

- هل هناك ضرورة للذهاب إلى إيرينا؟

سألته وأنا أنزل من السيارة بتلكؤ، فجوابني بثقة مدهشة، وهو يكاد يقفز نحو باب العمارة، فتعثر في الرصيف، وأوشك أن ينكفي على وجهه:

- لا تخف... ستنجح... وهي في انتظارنا!

كانت نسمة هواء لا بأس بها تسري في أجواء هذا الليل المحزون من ليالي شهر فبراير.. دخلنا من الباب الرئيسي للعمارة لو كنا استخدمنا الباب الخلفي لكننا التقينا ونجونا، ولم نلاحظ أي وجود للحارس الهندي.. لم يطق أمجد أن ينتظر المصعد، فتوجه بسرعة في اتجاه السلم وأنا أتبعه.

كالعادة خانه تقدير المسافات، وهو يشب على الدرج، فاختلّ توازنه وكاد يسقط، ولكنني أمسكت به في اللحظة الأخيرة لو كنت تركته يسقط، كنا نجونا من المصيبة على الأغلب.

كان باب الشقة مفتوحاً إلى حد ما، فدفعه أمجد واندفع خلفه من دون تريث. استقبلتنا القطط بمواء موجع ومخيف.. هتف أمجد بالانجليزية: «أين أنت يا إيرينا... محمد جاء معي».

تبعته من دون كلام. لم نجدها في الصالة. لاحظت قطعة منكمشة ترتعش فوق المقعد. «أسوأ شيء هنا هذا الجيش من القطط» قال أمجد وهو يلعن مواءها المزعج. لم نتلق ردّاً عندما كرر أمجد نداءه عليها للمرة الثانية، فدخلنا حجرة النوم بحذر قليلاً، فصدمت أنوفنا رائحة غريبة غير مريحة.. رأينا إيرينا منكفئة على بطنها وهي عارية تماماً. للحظة خجلت وغضضت بصري. اقترب منها أمجد بسرعة، فتبعته.. حاولنا أن نقلبها على ظهرها، فانفجر من عنقها خيط دم لزج وحاد لطح قميصي الأزرق، الذي أهداني إياه الأستاذ صلاح الغندور، كما لطح «تي شيرت» أمجد الرمادي.. كان جسدها ساخناً جداً. صرخ أمجد:

- يا نهار أسود... إنها مذبوحة!

اصطكت أسناني فجأة وارتعشت شفتي بقوة، وكدت أبول على الرغم مني. تسمّرت في مكاني وكذلك أمجد لثوان معدودات مشلولي الفكر والإرادة.. لكن أيادي الضباط ورجال الشرطة كانت أسرع، إذ في لمح البصر امتلأت الشقة بأحذيتهم وصخبهم، فزاد المواء المؤثر للقطط.

اصطخبت روحي واشتعلت رغبتني في التغوّط، وأنا أراني مكبّل اليدين. لم أنتبه إلى صراخ أمجد إلا عندما نهره أحد الضباط ولكزه بقبضة يده في كتفه. مذعورًا جذبني شرطيان نحو أحد أركان الصالة، وطلبا مني عدم التحرك.. استمعت إلى أحدهم يتعجّل الإسعاف، وآخر يسأل عن رجال النيابة ومسؤولي البحث الجنائي والأدلة الجنائية. رجفة شديدة تملكّت روحي وصداع مفاجئ حطم رأسي، على الرغم من أن حاجتي للتغوّط قد زالت. زائغ العينين أنظر إلى وجوه من بالشقة، والذين يتحركون ويتقبّون في كل مكان.. لمحت الحارس الهندي واقفًا يجيب عن أسئلة أحدهم، ولكنني لم أسمع شيئًا. للحظة شعرت أن أبي هو من يقف هناك في غرفة القتيلة يوجّه ويأمر، فانتفضت وارتعبت! لم أفهم أبدًا كيف رأيت دموع قطرة بيضاء، تتساقط من صورة في برواز بني على جدار حائط الصالة؟ أحدهم اقترب مني وطلب الموبايل بأدب، فناولته إياه من دون كلمة! وآخر أخرج كل ما في جيوبه، ووضع جائبًا فوق منضدة. صرخ أمجد نافيًا علاقته بالجريمة، حين ذكر الحارس اسمه أمام وكيل النيابة. تلقّ توبيخًا شديدًا وأمرًا بالصمت. طلبوا مني نزع قميصي الملوّث بدم القتيلة، ففعلت وأنا أرتعش.. نبضات قلبي تزداد سرعة وهياجًا. أشعر أن غراب الموت ينقر صدري. اجتاحتني رغبة عارمة بالبكاء على صدر أمي.. ارتطمت في أذني عبارات تؤكد أنهم عثروا في دولا ب القتيلة على حشيش وهيروين.. سمعت أمجد يصرخ مرة أخرى، نافيًا علاقته بالمخدرات. التشويش الروحي الذي أكابده الآن يعصف بتوازني؛ فأكاد أسقط على الأرض. وددت أن أرى منصور ابن خالتي وعزة سليمان؛ لأقسم لهما بأنني بريء.

- ألا تستحم يا رجل؟

شاهدت أحدهم يضرب أمجد في كتفه بقبضة يده، وهو يعتقه بهذه العبارة.. تذكرت هند ورائحتها ومصيرها الأسود. ترى... هل يمكن أن ألقاها في السجن؟ رأيت أمجد يضع وجهه بين يديه ويبيكي. ومرة أخرى، زجره ضابط قليل الكلام مزود بنظرة شرسة أمرًا إياه أن يكف عن البكاء.. حمدت الله أنني تماكنت دموعي حتى الآن وسجنتها بين حدقتي. وقفت أمام وكيل النيابة مرتعد البدن مفتت الروح.. سألني بهدوء، وأجبت بارتباك وبصدق كامل.. تفحصني وأصدر قراراته، كما فعل مع أمجد. أريد أن أتصل بمنصور، فهل يسمحون لي؟ حقًا... ما أتعس هذا الثلاثاء. شحنت كل شجاعتي وقلت لهم، ونحن نهبط السلم أن ليس لي علاقة بالموضوع. فتشت بعيوني عن وكيل النيابة الذي استجبني، فلم أجده.. أعدت الكلام بأني بريء وأنا أنظر إلى رجل شرطة آخر؛ فرمقني بنظرة مخيفة، فسكت. أمام مدخل العمارة؛ تجمعت أعداد غفيرة من البشر. أغلبهم من الهنود والباكستانيين، حيث طالني رذاذ لغاتهم وإيقاعها الغريب.. لمحت عدة سيارات شرطة وسيارة إسعاف. أشار أحد الضباط إلى الهنود ان يتعدوا، فتلكأوا في تنفيذ الأمر.. كنت أسير بملايسي الداخلية في الشارع العام لأول مرة في حياتي.. فضيحة لم تكن في الحسبان. طأطأت رأسي كاتمًا أنفاسي حتى لا أنفجر من البكاء، لم أعرف كيف أجفف عرقي الغزير الذي يسيل من مسام جلدي بغير حساب، على الرغم من أن الهواء مشبع بنسمة رقيقة ومنعشة في هذا الوقت من الليل. تفاقم لغط المحتشدين على الأرصفة وفي الشارع عند مرورنا. التفت ورائي، فرأيت رجال الإسعاف

يحملون جثة إيرينا. تعجبت كيف نسيت ملامح وجهها الساحر، ولم يبقَ في ذاكرتي سوى صورتها وهي مذبوحة! قذفوا بنا في سيارة الشرطة.. تعثر أمجد صفوان وهو يحاول دخول السيارة مكبل اليدين، فعاونه أحدهم على الوقوف. تساءلت: هل يمكن أن يكون منصور بين الواقفين؟ تجمهرت الناس حول سيارات الشرطة ودققوا النظر فينا. حاول رجال الشرطة إبعادهم، ولكنهم لم ينجحوا إلا حين انطلقت بنا السيارة مسرعة، وهي تصدر صوتها المميز لإفساح الطريق.

في نقطة شرطة البراحة، فتحوا لنا محضر استدلال، فسألونا وأجبنا. ثم نقلونا إلى الحبس الاحتياطي في سجن دبي، بناء على قرار وكيل النيابة، الذي أمر بحبسنا أربعة أيام على ذمة التحقيق، وهو يتفحص أداة الجريمة التي دُبِحت بها إيرينا. كانت عبارة عن سكين ذات نصل حاد وجدوها تحت سريرها. برود وكيل النيابة وهو يسألني، لم أجد له تفسيرًا حتى الآن سوى أنه حقق في جرائم كثيرة مشابهة من قبل، فلم يعد يفعل برؤية الدم الساخن للجثث، أو تبريرات القتلة، كما قال لي منصور فيما بعد.

الساعات الأربع التي فصلت بين دخولنا الشقة الملعونة، وبين إلقاءنا في عنبر الحبس الاحتياطي في سجن دبي مرّت كالدهر.. أول ما لفت انتباهي في السجن هو أنه مكان مكثف، وأن هناك عدة أسرّة في الأركان. كما أنه نظيف بدرجة لم تخطر على بالي قط. فالسجون كما أراها في أفلامنا المصرية، مثلما هي في الواقع، مرتع للقذارة والقبح والنوم على الأرض، بين جيش من الحشرات المقززة!

لم يكن في العنبر سواه، اسمه مايكل.. ملامحه تؤكد أنه قادم من إحدى بلدان شرق آسيا، عيونه الضيقة تطلق أشعة غير مريحة. أزعجه نحيب أمجد صفوان في أول الأمر، ولكنه سرعان ما استثمره ليتقرب إلينا. اشتبك مع أمجد في حديث بالإنجليزية، عرفت من خلاله اسمه، وأنه من الفلبين. كان أمجد ما زال يقسم بأغلظ الأيمان أنه لم يقتلها.. بدا لي أن مايكل يصدق أقواله. أخرج علبة سجائره ونفح كلاً منا واحدة.. فجأة شعرت بجوع شديد، لكن لم أعرف ماذا أفعل؟ ولم أصرح لأحد برغبتي في تناول الطعام. لم تمر دقائق حتى أحضروا لنا وجبة العشاء المكوّن من طبق أرز بالدجاج - برياني كما يسمونه هنا - مع قليل من الخضروات.. التهمنا الطعام في ثوانٍ، ولم ينسَ أمجد أن يمارس هوايته في التعثر بالأشياء، فسقطت منه الملعقة وتبعثر الأرز على بنطلونه. ضحك مايكل على المشهد، ثم نهض بسرعة لينظف بنطلون أمجد بقطعة منديل ورقي.. جلست على سريرتي أتأمل الساعات الرهيبة التي مرّت بي. قرأت آية الكرسي خمس مرات في سريرتي، ثم رددت ما أحفظه من قصار السور. طمأنت نفسي بأني خارج، بفضل الرحمن، من هذا المأزق الثقيل.. الله سيساعدني لا ريب، فأنا بريء وكذلك أمجد. ترى... أين عزة سليمان الآن؟ هل استردت عافيتها وتحاول الاتصال بي؟ لقد أخذوا الموبايل، إنها كارثة لو عرفت.. حتمًا ستعلم بهذه المصيبة. وإذا صدّقت أنني لست من القتلة، فكيف أمحو من ذهنها أنني لست من الفاسقين؟ نعم... الفاسقون الذين يسرقون اللذة من بيوت الدعارة! لا مناص، فالفراشات الملونة، التي أطلقتها عزة حول فؤادي ستموت.. لا أمل في

أن تظل ورود غرامي مضيئة بعد الآن! ولا رجاء في أن أنعم بصحبة عزة والجلوس إليها والتمتع بحديثها العذب، بل لا فرصة أصلاً في استمراري في وظيفتي، التي حصلت عليها بشق الأنفس.. الشارع مصيري والضياغ مستقبلي. أحزاني مبعثرة في قلبي لا أعرف كيف أرتبها؟ وجدتني أذرف دمعتين، وأتساءل: كيف سأتصل بمنصور ابن خالتي.. إنه قادر لا ريب على إنقاذي، فهو يجيد التصرف في مثل هذه المواقف.

- يا ابن الكلاب.

أفقت من هواجسي على صفعة وصرخة ولعنة في وقت واحد.. لقد هوى أمجد صفوان بكفه العريض على وجه مايكل الفليبي، الذي تلقى الصفعة بصرخة كلب ضُرب فجأة بعصا غليظة!

انتفض مايكل ولاذ بركن العنبر، واضعاً وجهه بين يديه وهو ينظر إلى أمجد مرتعّباً، ومعه حق، فالفرق بين الحجمين لا يسمح لمايكل ذي الجسد الضعيف بأن يفكر لحظة في رد الصاع صاعين لأمجد، صاحب القامة الفارعة والعضلات المفتولة. لم أفهم ماذا حدث بالضبط، ولكن أمجد ظل يكيل له الشتائم ويبصق في وجهه صارخاً:

- هل ينقصني الشواذ يا قدر!

يا نهار أسود... مايكل شاذ! مصيبة أخرى لم تكن في الحسبان. وسييت معنا في هذا العنبر! كارثة أخرى تضاف إلى كوارثي في هذا المساء المنكوب! وجدتني أتحرك ببطء لأجلس بجوار أمجد طلباً للأمان، وأنا أتلصص على مايكل المنبوذ في ركن العنبر. نهض أمجد فجأة، وكأنه

نسي تمامًا مايكل وسلوكه الشاذ.. ظل يغدو ويروح، وهو يضرب الأرض
بقدمه، ثم هتف فجأة:

- محمد... لا تقلق... ألم نكن معًا؟ نحن أبرياء... لكن مَنْ قتلها حقًا؟
اكتشفت أنني لم أفكر لحظة في إجابة هذا السؤال، منذ أن رأيته
مذبوحة. فأنا لا أعرفها، ولا أعرف مَنْ أصدقاؤها، ولا مَنْ يرتاد هذه
الشقة الملعونة.. كل ما يشغلني هو التخلص من هذا الكابوس الجاثم
فوق صدري.. لم أستطع النوم، ولم أرحم مايكل من نظراتي، التي تترقب
أفعاله بحذر.

مع اقتراب الفجر سقط أمجد في بئر النوم من فرط التعب، ولكنه نوم
متوتر مخلوط بنشيج ونهنية. كذلك تكوّم مايكل على الأرض في مكانه
ونام مثل جنين.. أما أنا، فقد ظللت أردد آية الكرسي بصوت هامس لأبعث
في نفسي بعض الراحة والأمان حتى غلبني النعاس، فرأيت أبي، في أسوأ
كوابيسي، يجرجر جثة إيرينا، ويقف بها عند سرير في الزنانة، وهو
يصب عليّ اللعنات!

الزفاف

الزغاريد التي انطلقت في فضاء القاهرة هذا المساء تكفي لأن تزف عشرين زوجًا من العرسان، وليس زوجًا واحدًا فقط؛ فوالدة عزة سليمان دعت عشرات النسوة من جيرانها وأقاربها لحضور حفل زفاف ابنتها المصونة. ووالدتي دعت كل نساء دمنهور شبرا، اللاتي تعرفهن للتباهي أمامهن بزواج ابنها القادم من دبي بفتاة رقيقة وجميلة. كانت أمي تعلم أنني لم أحمل من لؤلؤة الخليج، سوى هدايا قليلة ورخيصة الثمن، وأن ما استطعت توفيره طوال أكثر من ثلاثة أعوام من الغربة الموحجة لا يتجاوز ستة آلاف دولار. ومع ذلك كانت تمتلك القدرة على الكذب أمام جاراتها زاعمة أنني أصبحت من الأثرياء، وأن أهل العروس يكتنزون من المال الكثير والكثير.

هذه الكوكبة الكبيرة من النساء لم يتوقفن عن عزف سيمفونية الزغاريد، طوال مراسم الزواج، لدرجة أن العصافير التي تعشش فوق أشجار كازينو «هابي لاند» في المظلات لم تجد مفراً من هذا الإزعاج، سوى مشاركة هؤلاء النساء هذا العزف المجنون، فراحت تطلق زفقاتها بقوة، فلم

يعد أحد من المدعويين في الكازينو يفرق بين زغاريد النساء وزقزقات العصافير.

أمي المتأرجحة دومًا بين الخوف على أبنائها من الحسد، والتفاخر بنجاحهم الكاذب لم تتوقف عن الحركة في أرجاء الكازينو، ترحب بهذه، وتصافح تلك، وتجامل هذا.

كانت سيدة مختلفة تمامًا عن أمي التي عرفت خاتمة طوال عمري، وقد اكتشفت في ليلة الزفاف هذه مدى الشبه بينها وبين خالتي عنايات حين تضحك، وتظهر أسنانها اللامعة، حتى أن منصور لاحظ التغييرات التي اعترت أمي، فهمس في أذني ضحكًا:

- والدتك انطلقت بعد وفاة أبيك!

أما أخي حسن، فلم يتوقف عن إصدار الأوامر، التي تتعلق بمتابعة إجراءات العرس وتفاصيله. وعلى الرغم من أنني فوجئت بأنه أطلق لحيته وأمسك بيديه مسبحة، إلا أن هذا التغيير لم يخفف شعوري نحوه بأنه أخ فظ، غليظ القلب؛ لأنه كان تغييرًا شكليًا لا أكثر، حيث كان يأمرني - وأنا العريس - كيف أسير، وماذا أردي، وكيف أرد على مجاملات الأهل والمدعويين؟

بدا حسن حريصًا كل الحرص على أن يسطو على دور أبي بفجاجة، وهو دور لم يجد له أنصارًا في أسرنا، حتى أن أمي ما فتئت توبخه كثيرًا، عندما يشتط في إصدار الأوامر نحو شقيقتي المسكينتين ثريا ومحاسن، اللتين استقبلتا عزة سليمان بدرجة كبيرة من المودة في أول الأمر، ولكن

سرعان ما تغيرت مشاعر محاسن تحديدًا نحوها بعد فترة وجيزة، فأصبحت تسخر منها لأنها متبرجة، ولأنها تضحك مع الشباب من دون حياء، أو لأنها تعيش في الغربية بمفردها. لم أنزعج من الغمز الذي تكيّله محاسن لعزة باستمرار، فقد كنت أشفق عليها، وأدري تمامًا أن حقدًا على عروستي ما هو إلا تنفيس عن غضب عميق ومكتوم وساخن، تجاه حظها العاثر مع الزواج. كذلك فهمت عزة المزاج النفسي المتوتر لمحاسن، فلم تشأ أن تدخل معها في مباراة نفسية موجهة لقلبي وإحساسي، فكانت تتجنبها قدر الطاقة وتكتم غيظها، إذا تلقت تعليقًا مرًا من أختي.

بعكس محاسن، كانت ثريا أرق وأنبل في استقبالها لعزة. وكانت تعرف وتقدر تمامًا الدور الذي لعبته معي أثناء محنتي المريعة في دبي، جنبًا إلى جنب مع منصور ابن خالتي. أما أمي، فقد اعتبرت أن زواجي من عزة سليمان هو الكنز الذي كان يخبئه لي الرحمن؛ ليكافئني به بعد سنوات القهر والغربة والعذاب، وذلك بعد أن حكيت لأمي ماذا صنعت قبل وأثناء وجودي في سجن دبي. لذا كانت والدتي حريصة على إرضاء عزة وأسرتها بكل الوسائل، بل اضطرت إلى بيع بعض مسوغاتها الذهبية القليلة، من دون تدمير، لأستكمل بئسها تجهيز الشقة التي أخذتها في عين شمس وفقًا لنظام الإيجار الجديد، وذلك عندما لاحظت أن النقود التي وفرتها في دبي تتسرب مني، فلا يكاد يبقى منها شيء لمواصلة مشروع اقتراني بفتاة أحلامي.

- زواجك أول فرحتنا منذ زمن طويل يا محمد.

هكذا كانت تقول لي، وأنا أحاول أن أثنيها عن بيع ذهبها القليل.. ثم
تضيف بأسى:

- أدعو معي يا بني أن تجد شقيقتك من يسترهما.

فكنت أدعو معها الله أن يوفق محاسن وثرىا في زواج ناجح، وكنا
نأمل جميعاً أن وفاة أبي ستعيد فتح الباب مرة أخرى لدخول عرسان
جدد، يطلبون الزواج منهما عن طيب خاطر، حيث أن العقبة الكبرى أمام
انتقالهما إلى بيوت جديدة بصحبة أزواج محترمين قد اختفت بوفاة أبي،
الذي كان العرسان يفرون من عجرفته بعد أول زيارة لمنزلنا.

- سمية الأبراشي جميلة جداً وهي حامل.

أفقت على هذه الملاحظة التي دستها في أذني عزة، ونحن نجلس في
«الكوشة»، يدي فوق يدها، بينما مرت أمامنا برفق سمية، وهي تتوجه نحو
منصور ابن خالتي الذي كان يحاول تصحيح الأخطاء، التي يقتربها أخي
حسن، أولاً بأول في تسير شؤون حفل الزفاف. «فعلاً... سمية جميلة
وهي حامل»... هكذا قلت لنفسي وأنا أتأملها.. كانت ترتدي فستاناً وردياً
يتسع لها ولجنينها، الذي أنهكها كثيراً فيما يبدو، فشحب لونها، وبدأت
مجهدة على الدوام. كانت في شهرها السابع، وقد أصرت أن تصطحب
زوجها إلى مصر، ليس لحضور حفل زفافي فحسب، بل وكي تضع حملها
الأول في القاهرة.

- أريد أن يولد ابني الأول في القاهرة.

هكذا قالت بحسم وهي تخاطب منصور، الذي قبلها فرحاً بهذه الرغبة، التي توافقه تمامًا. ولم يشأ أن يفرض عليها شيئاً؛ إذ لم يخبرها بحلمه في أن يرى ابنه الأول النور في سماء القاهرة.

- يا محمد... مصر هي مركز الكون، فكيف لا أتوق أن تلد زوجتي ابناً البكر في حضنها؟

فاجأني منصور بهذا الكلام عندما أبلغني أنه ينوي أن يحضر حفل زفافي في القاهرة؛ ذلك أن الحياة التي يتذوق طعمها اللذيذ في دبي جعلتني أظن أن حديثه عن أن القاهرة خير وأبقى مجرد كلام لا أكثر، فهو لا يترك مناسبة إلا ويأتي فيها على ذكر عاصمة المعز بكل فخر واعتزاز، مردداً أنها المدينة الأهم على ظهر الأرض.

- كيف؟

- سنأتي أنا وسمية في إجازة طويلة نسبياً.

- وعملك هنا في دبي؟

- عندي رصيد وافر من الإجازات.

حسم ابن خالتي الأمر وحدد موقفه، فجاء بزوجه الحامل ووالدتها ليقطن معهما في الفيلا التي يمتلكونها في مدينة 6 أكتوبر. وقد أهداني منصور تليفزيون 32 بوصة بلازما بمناسبة زواجي. أما سمية، فقد أهدتنا بوتاجاز ضخماً فرحت به عزة كثيراً، على الرغم من أنه التهم نصف مساحة شقتنا الضيقة في عين شمس!

الأستاذ صلاح الغندور لم ينسني أيضًا في حفل زفافي؛ إذ أرسل لي خمسة آلاف جنيه مع منصور باعتبارها «نقطة» يقدمها لي في ليلة زفافي.. تعجبت من ضخامة المبلغ - وسررت به - لكن منصور أكد لي أن الأستاذ صلاح رجل كريم جدًا، ولولا ارتباطه بالعمل في دبي، لحضر زفافي في القاهرة. كما أنه يعتز بي كثيرًا؛ نظرًا لكوني طيب القلب وقليل الحيلة.. قال منصور ذلك وهو يضحك، فشاركته الضحك من دون انزعاج، وتذكرت بتأثر كيف هرول الأستاذ صلاح مع منصور وعزة وسمية وعبد الله راشد إلى أكبر محامي في دبي، عندما علموا بورطتي في مقتل إيرينا الروسية.

عزة سليمان من جانبها لم تبخل على عرسها وبيتها، فرفضت تمامًا أن تؤجر فستان الزفاف، وأصررت على أن تقتنيه. وقبل أن أوضح لها حدود إمكانياتي المالية، وضعت يدها فوق فمي حتى لا أتكلم، وهي تقول لي بحسم مغموس في مياه الحب:

- سأهبك المال اللازم لشراء الفستان... ولكن لا تخبر أحدًا من أهلي وأهلك بذلك.

ثم استطردت وهي تلقني درسًا جديدًا:

- يتحتم على العريس أن يتنازع فستان عروسه من ماله الخاص.

منصور الوحيد الذي أطلعته على سر الفستان وكيفية اقتنائه، فقال لي وهو يضع يده على ركبتي، قبل أن يتناول رشفة الشاي:

- عزة فتاة طيبة، وإنسان نبيل بحق.

كنا نجلس آنذاك في مقهى الحميدية بباب اللوق وسط القاهرة، إذ كان ينتظر موعدًا مع الناقد فاروق عبد القادر. وقد أفهمني منصور أن هذا المقهى هو المكان المفضل للناقد الكبير كما وصفه، ليلتقي فيه أصدقاءه وتلاميذه مساء كل أحد، وأنه ينوي إجراء «حوار العمر» معه. فلما سألته ماذا تقصد بحوار العمر؟ اعتدل منصور في مقعده وجذب نفسًا من الشيشة قبل أن يشرح لي هاتفًا:

- حوار العمر... يعني أنني سوف أسأله في كل شيء: الفكر والأدب والفن والسياسة والحب والمرأة والجنس، وكيف كانت طفولته وصباه... إلخ.

- وهل ستكفي الساعة التي ستجلسها معه لكل ذلك؟
- من قال لك إنني سأجلس معه ساعة واحدة فقط؟ هذا الحوار قد يمتد عدة أسابيع، كل يوم ساعتان أو أكثر.. مثلما فعل رجاء النقاش مع نجيب محفوظ.

من أين يأتي منصور بكل هذا الحماس؟ فهو دائمًا يتحدث ويتحرك ويقرر ويمسح عرقه بهمة ونشاط. وها هو فرح ومبتهج، كما يبدو لي من بريق عينيه ومن نبرة صوته؛ لأنه سيجري حوار العمر مع ناقد كبير، لم أسمع به من قبل، كما لم أسمع برجاء النقاش الذي ذكره تَوًّا.

في هذا اليوم التقيت عزة بعد أن تركت منصور يسعد بناقده، ومررنا على أكثر من ثمانية محلات، تعرض فساتين الزفاف البيضاء. خمس ساعات من التجوال المنهك حتى استقرت عزة على أحدها، ودفعت ثمنه، ثم عدنا

به إلى بيتها، وقدمته إلى أسرتها باعتباري من اشتراه! لم أكن خجلاً بما يكفي من هذا الكذب، ولكنني كنت سعيداً بعزة سليمان، التي تعلمني كل يوم شيئاً جديداً. مثلما أنا مسرور الآن، وهي بجانبني في «الكوشة» ترتدي فستانها الأبيض الرقيق، حيث لاحت لي كحورية من الجنة.. ابتسامتها المترعة بالحنان تضيء ليل القاهرة كله، وشعرها الأسود الناعم مصفف ومستكين تحت الطرحة البيضاء. كنت أتأملها بغبطة، وأنا لا أصدق أن المقادير التي خالصمتني، وألقت بي في السجن ظلماً، صفحت عني أخيراً ومنحتني زوجة أحبها وأرعاهها، وتحبني وترعاني.. زوجة أبعر في قلبها متاعبي وشجونني حين ينقبض قلبي وتعاندني الأيام.. زوجة أمطر في أحشاءها مياه غرامي كلما كوت جسدي الرغبة المجنونة، وأحرق فؤادي وحش الشهوة، الذي يعبث في أوردتي وشرائيني منذ سنين، من دون أن أتمكن من ترويضه.. زوجة تمنحني البنين والبنات، فأضمهم تحت جناحي، وأعاملهم بالتي هي أحسن... لا بطش ولا استبداد ولا بذاءة.

في ليلة زفافي هذه كانت هناك مفاجأتان سارتان، وكابوس واحد من العيار الثقيل في انتظاري.. أولى المفاجأتين تمثلت في وصول عبد الله راشد إلى كازينو «هابي لاند» قبل انطلاق «الزفة» بعشر دقائق فقط.. كانت الساعة تقترب من الحادية عشر مساءً، وفجأة وجدته أمامي بصحبة منصور. لم أعرفه أول الأمر؛ لأنه كان يرتدي بدلة بنية اللون، فكانت هذه أول وآخر مرة أراه فيها خارج ملابسه المحلية، فلما صافحني مهتماً عرفته.. احتضنني بقوة، ودسّ في جيبي مظروفاً أنيقاً به ثلاثة آلاف جنيه، قائلاً:

- إنها «النقطة» كما تقولون في مصر.

منصور كان يعرف بوجوده في القاهرة لقضاء عدة أيام كعادته، ولكنهما اتفقا على أن يظل الأمر سرًّا بينهما حتى يفاجئني في حفل الزفاف.. المفاجأة السارة الثانية كانت حضور صديقات عزة المقربات من دبي: إيناس الفلسطينية وفرح السورية ومادلين اللبنانية. كنت أعرف بطبيعة الحال إيناس ومادلين؛ لأنهما تعملان معنا في الشركة نفسها، ولكن فرح تركت الشركة قبل التحاقها بها، إلا أنها ظلت على علاقة وطيدة بعزة سليمان.. كن يحلمن بزيارة القاهرة، فقرر أن تكون مناسبة زواج صديقتهن الحميمة أنسب فرصة لإنجاز هذه الزيارة.. وهكذا تم الترتيب والتنفيذ. وقد وصلن إلى مصر قبل يومين فقط من حفل الزفاف من دون علم عزة، ثم اتصلت بها مادلين صباح اليوم من الفندق الذي نزلن به لتنبئها بخطوتهن الجريئة.. طارت عزة فرحًا ووصفت لهن المكان، فحضرن إلى حفل الزفاف بأبهى الملابس وأكثرها أناقة، لدرجة أن منصور لاحظ بغضب أنهن فقط مع زوجته تقريبًا، اللاتي لا يرتدين الحجاب، وسط عشرات من البنات والسيدات. «ماذا حدث للبنات والسيدات المصريات؟ حتى في الأعراس لا يردن أن يتخفن من هذا الحجاب الخانق»... قال لي منصور ذلك، وهو يلتقط عدة مشاهد بالكاميرا الفيديو، التي لا يتحرك من دونها، ثم أضاف بحزن عميق:

- لا أمل لنا في مستقبل أفضل وأجمل، إذا ظلت المرأة المصرية مسجونة في تقاليد بالية تحركها أفكار متخلفة!

لم أعلق لأنني كنت منشغلًا بمصافحة بعض المعازيم، وإن كنت قد ألقيت نظرة سريعة على جموع النساء في الحفل، متأثرًا بقول منصور،

فلاحظت أنهن أسرى حزن ما، وأن الابتسامات والضحكات والزغاريد، التي تنطلق هنا وهناك ما هي إلا محاولات مستميتة للفرار من هذا الحزن المقيم.

أما الكابوس الثقيل في ذلك المساء، فتمثل في عدم قدرتي على مضاجعة زوجتي في هذه الليلة التاريخية! بامتداد أربع ساعات، ونحن نحاول من دون جدوى. كنت مسكوناً أثناء النهار بهاجس مريب في أن الإخفاق من نصيبي، مثلما حدث مع هند وإيرينا وسوما، لكنني كنت أحاول أن أطرد هذا الهاجس، وأنا أمني نفسي بأن عزة هي حبي وعشقي، ومن ثم فالنجاح محتم عندما أضمها بين أحضاني. بعكس العاهرات اللاتي كن شاهدات على خييتي؛ لأن لا غرام هناك ولا هوى يجذبني نحوهن.. كنت أظن أن الحب قادر على إشعال قناديل الشهوة وتأجيحها، كما أفهمني منصور منذ اقترانه الأول بصفاء الشرنوبى. ولكن الساعات الأربع التي قضيتها عارياً بين أحضان عزة لم تغلح في تخطي عقبة التأهل الذكورى، التي أعاني منها.

عزة الجميلة لم تحزن ولم تياس في أول الأمر، وبذلت جهوداً جبارة لإضاعة مصاييح الرغبة التي انطفأت في جسدي، فقبلتني وداعبتني، ولمستني وشربتني وأكلتني وامتصتني، وكأنها امرأة خبيرة في فنون الجنس وقوانين السرير.. لكن بكل أسف لم تنجح كل هذه المحاولات والتأوهات والتنهدات والإضاءات الساخنة في تحقيق الاختراق المأمول، والاندماج المنشود. حتى أصبحت رائحتها المثيرة تمثل لي إزعاجاً كبيراً، يزيد من شعوري بالوضاعة، ويفاقم إحساسي بالضالة!

- لا تحزن... غداً نحاول، فقد بذلنا جهداً ضخماً الليلة في حفل الزفاف.

لم أرغب في الرد على عزة، بل أشحت بوجهي عنها، فقبلتني في جبیني وقامت لترتدي قميص نومها، وهي تستشيط غضباً بصورة لم أرها من قبل.. أما أنا فجذبت الغطاء فوقی، وأنا أبكي، في محاولة للاختباء من معشوقتي وجسدها وعيونها وغضبها ورائحتها، لكن حين كانت دموعي تنهمر على الوسادة، فوجئت برائحة هند المغربية تسطو على أنفي تدريجياً، و تنشر أريجها الفوّاح في فضاء غرفة نومي في عين شمس، مطيحة بذلك عطر زوجتي ومسكها، فجفلت واضطربت، ودست رأسي تحت الوسادة للهرب من بطش الرائحة المباغت، ثم قررت أن أسعى إلى زيارة هند المسكينة في أقرب فرصة، حيث تعاني الآن من فقدان الحرية في دبي، بعد أن حكم عليها بالسجن عشر سنوات بتهمة الاتجار في المخدرات. نعم سأزورها في السجن، فيكفي أنها أول امرأة أرثني ما لا يجب أن يرى، وجعلتني ألمس السر الأعظم، وأشم الرائحة المقدسة للجسد الأنثوي المهتاج! نعم... قررت أن أزور هند، في أول ليلة تنام فيها زوجتي بجواري، وهو ما لم يحدث أبداً!

29

السجن

في ظهيرة اليوم التالي لإلقاء القبض علينا، فوجئت بحارس الزنزانة يستدعيني لمقابلة قائد السجن. تساءلت... ترى هل توصل منصور إلى مكاني بعد اختفائي ليلة أمس؟ أم أن عزة سليمان فطنت إلى وجودي، بذكائها الفطري، عندما لم تجدني في الشركة هذا الصباح؟ أم أنهم اكتشفوا براءتي من دم ابنة روسيا، فقرروا إعادة التحقيق معي مرة أخرى؟ ولكن لماذا لم يستدعوا أمجد صفوان، ألا يشاركني التهمة، كما يقتسم معي هذه الزنزانة الكثيبة؟

احتضنني منصور بقوة، وهو يهتف بصوت عال ومتحمس:

- لا تقلق... لا تقلق.

بكيت في صدره لأول مرة منذ أن ألقوا القبض علينا ليلة أمس، وأنا أنهنه وأغمغم بصوت خفيض:

- أنا بريء... لقد وجدناها مقتولة.

- أعرف... أعرف كل شيء... لا تخف... تماسك يا محمد.

ثم أعطاني حقيبة صغيرة بها بعض الملابس ومظروفًا داخله ألفا درهم.. حينئذ فقط، انتبهت إلى أن رجلًا آخر غير القائد موجود بالغرفة.. كان يجلس صامتًا يتأمل لقائي مع منصور، بالضبط كما كان يفعل قائد السجن، الذي سمح لي - متجاوزًا القوانين - بهذه الزيارة التي لم تزد عن خمس دقائق! وقد فهمت فيما بعد من منصور أن الرجل الآخر في الغرفة كان رئيس صفحة الحوادث في الجريدة نفسها، التي يعمل بها منصور، وأنه تولى إبلاغه عن الجريمة وعن اتهامي، فضلًا عن كونه استسمح قائد السجن، الذي يعرفه جيدًا، لترتيب هذا اللقاء.

عدت إلى زناتي مطأطى الرأس أحمل الحقيبة يسبقني نحبي، فهبّ أمجد واقفًا وسألني بلهفة وهو يمسك بكتفي، فبدا طوله الفارع كنخلة، انبثقت فجأة من أرض الزنانة:

-ماذا هناك... هل وجدوا القاتل؟

عشرة أيام مرّت علي في هذا الكابوس الملعون، لا أدري ماذا يحدث في الخارج، ولم أر أحدًا من خارج السجن، سوى لقاء يقيم مع محامي مصري طاعن في السن يقال له سيد عبد الباري.. عرفت فيما بعد أنه أهم وأشهر محامي في دبي، وأنه جاء إلى هنا، قبل إعلان قيام دولة الإمارات العربية المتحدة في عام 1971 بثلاث سنوات. سألني المحامي بنبرة صوته المعدنية عدة أسئلة سريعة وهو يلهث، فأجبت عليها كلها بخوف وارتباك، ثم انصرف من دون أن يقول شيئًا.. وقد قال هذا المحامي لمنصور وعزة وعبد الله راشد فور انتهاء لقائه معي، حيث كانوا ينتظرونه خارج السجن:

- ابن خالتك بريء تمامًا... وسينعم بالبراءة من أول جلسة... تفاءلوا.

قال لهم ذلك وهو يهرول نحو سيارته فارًّا من سياط الشمس، حاملاً سنواته الثالثة والسبعين بخفة ونشاط.. كان يرتدي بدلة سوداء فوق قميص أبيض ورابطة عنق زرقاء، إذ بدا واضحًا على ملامحه أن المقادير تعاملت مع جسده بالتي هي أحسن، باستثناء عينيه اللتين ضاقتا بصورة غريبة، تحسب أنه مغمض دائماً ولا يرى أحداً!

هذا ما كتبه منصور ابن خالتي واصفًا إياه عندما أجرى حوارًا معه، باعتباره أقدم محامي عربي قي دبي، واحتفالاً بمرور 35 عامًا على وجوده في الإمارات.

ثلاثون ألف درهم هي قيمة الشيك، الذي حرره الأستاذ صلاح الغندور، وأعطاه لهذا المحامي كمقدم أتعاب في مساء اليوم الذي زارني فيه منصور الذي أصر، هو وعزة وعبد الله راشد، على اقتسام المبلغ مع الأستاذ صلاح. وبعد مناقشات عصبية وطويلة بينهم عند خروجهم من مكتب سيد عبد الباري، انصاع الأستاذ صلاح الغندور لرغبتهم، بشرط أن يتحمل هو نصف المبلغ، ويتكفل منصور وعزة وعبد الله بالنصف الآخر، وهذا ما كان.

عشرة أيام سوداء مرّت عليّ كالدهر، أختنق كل لحظة داخل أربعة جدران أكره نفسي فيها بانتظام. وأبغض أمجد وأشمئز من مايكل.. ألعن الزمن حينًا، ثم أعود لأستغفر الله حينًا آخر، فأتوضأ وأصلي، وأصرع الوقت بقراءة القرآن الكريم، الذي استعرتة من مكتبة السجن.

عشرة أيام مأساوية زهدت فيها الطعام، فلم أعد أقربه إلا للضرورة وعندما يقرصني الجوع.. وكـم من مرة كابدت فيها آلام الإمساك كلما دخلت الحمام، لكنني لم أشك ولم أتبرم.. عشرة أيام كثية عرفت خلالها حجم الدموع الذي يمكن أن تخزنه عين إنسان، فالنحيب فجأة كان حليفي، والبكاء المتواصل عندما يهجع كل من أمجد ومايكل كان سلوتي، حيث أتلو في سري ما أحفظ من قصار السور، أو أهدئ من روعي بالصلاة قبل آذان الفجر من دون توقف، حتى أصبحت لا أعرف عدد الركعات التي سجدتها، ولا حجم الدموع التي سكبتها!

عشرة أيام مكفهرة كرهت فيها النوم؛ لأنه يسلمني إلى كوابيس مخيفة، أراني فيها مجروراً إلى غرفة الإعدام مشلول الإرادة.. أو أنهم يعرضون أمامي جثتي هند المغربية وسوما الصينية بجوار جثة إيرينا الروسية، حيث يوجهون لي الاتهام بأنني قتلت هؤلاء النساء الثلاثة؛ لأنني أخشى أن يفضحن عجزني الجنسي معهن، فأنهض من نومي مذعوراً أرتجف وأرتعش، وأنصب عرقاً ورعباً.

عشرة أيام مخيفة قررت فيها ألف مرة أن أطلب من إدارة السجن أن ينقلوني إلى زنزانة أخرى، أتلذذ فيها بالحبس الانفرادي، هرباً من عويل أمجد صفوان الدائم وأسئلته المزعجة وتبؤاته المتشائمة، إذ لا يفتأ أن يكرر أن حبل المشنقة هو مصيرنا المحتوم، لكنني أترجع عن قراري، وأقع بنصبي المعتم وحظوظي العائرة في الحياة.

عشرة أيام سيئة الطالع، نُهب فيها روحي، فصرت أسيراً للذكرياتي المشؤومة، لاكتشف أن حياتي كلها كانت ضاللاً في ضلال، تظللها خيبة

دائمة ومنتظمة؛ فلا أنا حققت أحلامي، ولا أنا نجحت في اختبارات الذكورة، ولا أنا جمعت المال مثل كل الذين يأتون إلى الخليج! فلماذا أعيش إذن؟ وكيف تحملت ذاتي بعد كل هذه المرارات التي تردهر في صدري؟ حقًا لقد صدق أبي الملعون، عندما صرخ في وجهي: «الفاشلون فقط من يبحثون عن الرزق خارج بلدانهم».. هأنذا أدفع الآن ضريبة خروجي من مصر. إن الله يعاقبني على كل الموبقات، التي ارتكبتها طوال حياتي، ولكنني كنت قليل الحيلة في بلدي، وحاولت كثيرًا أن أجد الوظيفة اللائقة، فلم أفلح. فلماذا يكون العقاب الإلهي قاسيًا هكذا... الإعدام! أستغفرك يا الله وأتوب إليك! لا حل لي سوى التقرب إلى المولى عز وجل بالصلاة وقراءة القرآن.

عشرة أيام حزينة وأنا أسعى جاهدًا لإزالة هذه الغمة عن روحي، راضيًا بما يهيئه لي الرحمن، قانعًا بعدله، طامعًا في غفرانه.. عشرة أيام بائسة، لم أذق فيها طعمًا لفرح أو رضا، إلا حين تهل عزة سليمان بوجهها الصبوح على شاشة خيالي، فأتعجب من تصاريف الزمان وغدر الأيام! وأنساءل مغتاضًا وموجوعًا: كيف يهبني الله هذا الملاك الأثوي الساحر، ثم يلقي بي في غياهب السجن، في جريمة لم أرتكبها أصلًا؟ وإن كان رذاذ الفضيحة قد لوث سمعتي إلى الأبد. وسأفقد وظيفتي حتمًا إذا نجوت. وستهجرني عزة، ولن أراها ثانية، إذا منّ الله علي بتجاوز هذه المحنة والخروج منها سالمًا.

عشرة أيام مؤلمة أصارع فيها روحي، وأذود عن نفسي ضباع الرعب التي تنقض عليّ طوال النهار؛ فتحرمني لذة النوم في الليل، فأظل ساهرًا

أتأمل وأترقب، وأستغفر وأصلي، حتى أنني أصبحت غير قادر على التعامل مع أمجد صفوان، الذي فاقم السجن من رائحته القذرة بصورة لا تطاق؛ حيث أصبح ينفر من فكرة الاستحمام، ويغضب بشدة إذا اقترحت عليه أن يستحم، على الرغم من وجود دش جيد جدًا داخل السجن، فأهرب من حديثه المقبض وتحليلاته الخائبة وعويله المزعج بالصمت والنظر إلى الأرض.

عشرة أيام ملعونة... حتى جاء فرج الله من دون سابق إنذار؛ ففي ظهيرة يوم الخميس 12 يوليو 2007 استدعانا قائد السجن لمقابلته... ذهبنا إليه أنا وأمجد صفوان، لا نعرف ماذا حدث، ولا ماذا سيفعلون بنا؟ - ألف مبروك... لقد تم القبض على القاتل الحقيقي.

لم أصدق أذني، فتلعثم لساني وانحاش الكلام في صدري أثناء انهمار دموعي فجأة على الرغم مني.. أما أمجد فقد قفز إلى أعلى، حتى كاد يلمس سقف الحجرة، وهو يصرخ بعبارات واحدة: الحمد لله... الحمد لله.

- لا تبتهج كثيرًا... أنت مازلت ضعيفًا لأنك متهم بتجارة المخدرات. بسخرية مرة وبسخ قائد السجن أمجد صفوان بهذه الجملة، فتوقف عن القفز، ولكنه لم يتوقف عن شكر الله، وإن كانت نبرة صوته قد خفت كثيرًا.

بعد أقل من ثمانية وأربعين ساعة كنت حرًا طليقًا.. لا أصدق أنني أجلس في سيارة منصور، وبجوارتي عزة سليمان تمسك يدي بقوة، بعد أن قلت لها وأنا أصافحها وأبكي أمام مبنى النيابة في قلب دبي:

- أحبك يا عزة... أحبك كثيراً.

لملممتني في حضنها، كانت ترتدي فستاناً أخضر، يشبه فساتين مريم
فخر الدين في أفلامها القديمة.. قبلتني في خدي، ثم همست بصوت زرع
في فؤادي بساتين السكينة:

- وأنا أيضاً... أحبك يا محمد... يا ابن بلدي.

هنا تدخل منصور، وهو يرت على كتفينا معاً:

- متى سنفرح بكما؟ هيا إلى السيارة.

فوجئت بسؤاله، وتعجبت من جرأته، فلم أرد.. لكن عزة هُشمت
حاجز الصمت، الذي ساد فترة، وهتفت بصوت يختلط فيه الجدل والخجل
بالضحك:

- قل لابن خالتك... أنا ليس لدي مانع.

فعقب منصور على الفور:

- أخبرها يا رجل برغبتك... لماذا تقف هكذا كالبحر؟

قد تكون هذه أول مرة في حياتي أتجرأ فيها هكذا، فسألته بقلب
مرتجف وعيون ساخنة تحرق خدي:

- هل تقبلين الزواج بي؟

- طبعاً... وخلال هذا العام.

قالت ذلك بحسم، ثم أردفت:

- لا تقلق... وظيفتك محفوظة في الشركة.

منصور الذي كان يتابع تحقيقاً عن أثر العدوان الإسرائيلي على لبنان في إذاعة لندن، بعد مرور عام على اندلاع الحرب، أغلق الراديو فجأة، ليعقب على كلام عزة سليمان:

- عليك أن تتقدم بالشكر الجزيل إلى عبد الله راشد وعزة، حيث كان لهما الدور الأبرز في حث الإدارة على الاحتفاظ بك، بعد أن شاعت أخبارك وصورك في الجرائد مع تفاصيل الجريمة!

نظرت إلى عزة بخجل، وتساءلت: كيف تراني الآن، بعد أن أيقنت أنني واحد ممن يسرقون اللذة في بيوت الدعارة؟ كيف أنفي عن نفسي هذا السلوك الشائن، الذي هجرته فعلاً بعد أن نفحني نسيم غرامها؟ يجب أن أعلمها أن وجودها في حياتي يمثل بداية صفحة طاهرة في كتاب أيامي، وأنني لم أسعَ إلى أي امرأة منذ أسرتني عيناها الساحرتان. ترى... هل ستصدق عزة كلامي هذا، وأنا ما دخلت السجن إلا بسبب زيارة مشؤومة لبيت دعارة؟ توقفت السيارة في طابور طويل، عند شارع «عود ميثاء» في انتظار الفرج، فالزحام في دبي أصبح لا يحتمل. أدار منصور مؤشر الراديو، فانطلق صوت المذيع؛ ليؤكد قيام إسرائيل بمناورات عسكرية استعداداً لمواجهة صواريخ حزب الله، عند اندلاع أي حرب جديدة كما هو متوقع. تساءلت عزة بانزعاج:

- متى تنتهي الحرب؟

بسرعة جابوب منصور، وكأنه كان يعرف السؤال مسبقاً:

- عندما تستفيق مصر وتستعيد هيبتها.

- هل تحب جمال عبد الناصر؟

فوجئ منصور بسؤال عزة سليمان، فنظر إليها بعد أن أوقف السيارة مرة أخرى في إشارة شارع المرقبات:

- لماذا تسأليني هذا السؤال؟

- لأنني أحبه مثل أبي الذي حكى لنا الكثير عنه.. كما أنني قرأت بعض الكتب التي تمجد الرجل.

انبرى منصور في إبداء رأيه في عصر جمال عبد الناصر، الذي اعتبره زعيمًا وطنيًا طاهرًا، بعكس من جاءوا بعده؛ حيث استطاع أن ينقل مصر نقلة كبرى نحو التقدم والعزة.. لكنه ارتكب خطأ فاحشًا حين قام بتأميم الحياة السياسية، وإلغاء الأحزاب.. كما أن عبد الناصر لم يعامل الطبقة العاملة...

لم أستطع مواصلة الإنصات إلى منصور، وهو يفند تجربة عبد الناصر؛ لأنني كنت أعرف هذه الآراء من قبل؛ لذا وجدتني أسرح في فكرة الزواج من عزة، فامتلاً كياني كله برعب كبير لما يمكن أن يحدث في ليلة الزفاف، فقد أخفق فيما ينجح فيه الرجال. وتكرر مأساتي مع هند وإيرينا المسكينتين وسوما.. لماذا تورطت هكذا في طلب الزواج من عزة؟ إن منصور السبب... هو الذي جرر لساني لأطرح عليها رغبتي... هل أراجع؟ هل أشرح لعزة المصيبة التي تنتظرها إذا اقترنت بي؟ ترى... هل إخفاقي في

مضاجعتها أمر محتم حقًا، أم أنني أبالغ؟ لأن عزة ليست مثل هؤلاء النسوة اللاتي كن شاهدات على عجزي!

إنها حبيبة قلبي ومليكة الفؤاد التي ترفرف جوانحي إذا ذكرتها.. أما الأخريات، فكن مجرد عاهرات يبعن لذائذ الجنس بالمال... لا حب ولا يحزنون! عليّ أن أطرد هذه الوسواس الموترّة من خيالي، وأواجه مستقبلتي برحابة صدر، وأفق متسامح، بعد أن منّ الله عليّ بالبراءة والخروج سالمًا من أكبر المحن.

- ما رأيك أنت يا محمد؟

لكزتني عزة بخفة وهي تسألني، فعدت من سماواتي، وأنا أجفل قليلًا:

- في ماذا؟

- ألم تسمع ابن خالتك؟ إنه يؤكد أن عبد الناصر لم يكن اشتراكيًا، وأنه كان يدعم فكرة رأسمالية الدولة. ما رأيك؟

- أعرف آراءه هذه من قبل.. لكن أخبروني من فضلكم: كيف كانت الجريمة؟ وماذا كتبوا عنها؟

حدتني عزة بنظرة احتجاج؛ لأنني لم أقل ماذا كان يمثل عبد الناصر، وقبل أن تعبر عن هذا الاحتجاج بالكلام، كان منصور قد توقف عند مطعم فرحات لتتناول غداءنا، وهو يقول مادًا سبابته في وجهي:

- منذ الثامنة صباحًا ونحن نتظر جنابك في النيابة... الساعة تجاوزت الثالثة والجوع قرصنا.

- معك حق... أنا جائعة جدًا.

تبرع منصور بسرده ما قالتة شرطة دبي في وقائع مقتل إيرينا الروسية، بهذه العبارة: «يجب أن تعرف أن دبي تمتلك جهاز شرطة قويًا جدًا، يعمل به خبراء أكفاء يستخدمون أحدث الأجهزة في العالم، لذا لم يكن صعبًا أن يتوصلوا إليه... إلى القاتل الحقيقي.. اسمه إيجور وهو شاب روسي عمره 22 عامًا فقط.. كان مفتونًا بإيرينا بعد أن تعرف إليها عن طريق شبكة تجارة المخدرات، التي كانت إيرينا وصديقك أمجد صفوان ضمن أعضائها». توقف منصور عن الكلام ليلتهم مزيدًا من الأرز، ولكنني شجعته بنظرة من عيني ليواصل، فمسح فمه بمنديل ورقي، قبل أن يستطرد قائلاً: «حاول إيجور كثيرًا أن يكسب قلب إيرينا، ولكنها كانت تصده على الدوام. كما أنه سعى جاهدًا أن يثنيها عن ممارسة الدعارة، فلم ينجح. وفي يوم الجريمة كان إيجور مكلفًا بنقل كمية من المخدرات إلى منزل إيرينا للتخزين. وكالعادة كرر أمامها عشقه الدائم لها، وشغفه بها، ثم حاول تقبيلها، فنهزته بعنف وشتمته، كما قال في التحقيق. لكن من سوء حظهما، أو حظكما أنت وأمجد، أن الحارس الهندي للبناية كان يتولى تنظيف الطرقة أمام شقتها، فأنصت إلى المشاجرة العنيفة التي دارت بينهما، ففرع الباب عدة مرات، فلم يفتح له أحد.. آنذاك هرول الحارس نحو السوبر ماركت، الذي يقع أسفل البناية، ليجري اتصالًا بالشرطة؛ لأنه لم يكن يملك رصيدًا في الموبايل الخاص به». توقف منصور مرة أخرى ليطلب من الجرسون مزيدًا من الباذنجان المخلل الذي يعشقه.. نظرت إليه مغتاظًا، فابتسم وهو يقول: «سأكمل حالًا». أما عزة فعاتبتني برفق قائلة:

- دعه يكمل طعامه... ثم أنني أحتفظ لك بكل الجرائد التي تناولت القضية.

شكرتها في الوقت الذي راح فيه منصور يستعيد تفاصيل الجريمة، حيث تابع: «مع إصرار إيرينا على إهانة إيجور وسبّه بأقذع الشتائم، حيث وصفت أمه بأنها هي الداعرة.. لم يتمالك نفسه، وتوجه نحو المطبخ ليحضر سكينًا، وذبحها في الحال. هرب إيجور من الشقة من دون أن يغلق الباب؛ حتى لا يصدر صوتاً، ثم هبط من السلم الخلفي للبنانية، في اللحظة التي وصلت فيها أنت وأمجد إلى الشقة، فوجدتما بابها مفتوحًا». توقف منصور للحظات، قبل أن يسألني باسمًا:

- هل يمكن أن أطلب الشاي الآن؟

- اللعنة على حظي العاثر.

قلت ذلك بصوت خفيض حتى لا تسمعي عزة، ولكن أذنها التقطت لعنتي، فسألتنني بمكر واحتجاج:

- أي حظ عاثر؟ لماذا ذهبت إلى هناك أصلاً؟

اختبأت في جلدي من فرط الخجل، ولم أعلق.. أنقذني منصور عندما لاحظ اضطرابي وحيرة عزة وضيقها، فقال ضاحكاً قبل أن يدفع الحساب:

- وقائع تشبه ما يحدث في أفلام السينما... أليس كذلك؟

في مساء تلك الليلة الأولى من الحرية، زارني كل الذين مروا على حياتي، وأنا ممدد على السرير أرمق سقف الغرفة، وأتأمل ما جرى لي..

لكن زياراتهم كانت مؤقتة ومشوشة وسريعة، حتى غرة سليمان لم تقضِ وقتًا أطول من الآخرين في هذه الزيارات، ولكنها كانت تغدو وتروح على سطح خيالي. رأيت صور أبي وأمي وحسن وثريا ومحاسن ومنصور والأستاذ صلاح الغندور وموسى الوحش وهند وإيرينا وغيرهم.. كل هؤلاء زارني صورهم وخيالاتهم، ولكن صورة واحدة فقط ظلت تراحم بقية الصور وتصر على الحضور.. صورة أمجد صفوان، وهو يصفع مايكل الفلبيني هي التي ظلت تطاردني في هذه الليلة، حتى رحت في سبات عميق لم أذق له طعمًا من قبل!

أنا ... لآخر مرة

- نعم... ثلاثة أشهر وأربعة أيام بالتمام والكمال.

كررت الرقم مرة أخرى أمام الأستاذ صلاح الغندور، وأنا مطأطئ الرأس، مسدداً بصري نحو الزخارف المتداخلة للسجادة الضخمة، التي تتوسط غرفة الصالون في منزله.. كنت أطمح في نفسي حزن العالم كله، وكان الأستاذ صلاح قد أعاد عليّ سؤاله ليتأكد من أنني متزوج منذ ثلاثة أشهر وأربعة أيام.. ومع ذلك، فما زالت زوجتي تسبح في نهر العذرية. وما زلت أنا أغرق في بحر العجز الجنسي!

لم أمكث في القاهرة سوى أسبوع واحد فقط بعد حفل الزفاف.. وقد تصرف عزة سليمان بحصافة، فلم تخبر والدتها - ولا أي أحد - أنني أخفقت في فض بكارتها، بل كذبت على أمها، وطمأنتها في اليوم التالي لزفافنا: بأن الأمور كلها تمام، وأنها صارت زوجة سعيدة!

المدهش أن عزة لم توبخني أو تعنّفني قط، بل كانت تلتمس لي الأعذار كل مساء، عندما نتعري لندخل حلبة الجنس، لأخرج منها مهزوماً وخجلاً.

- ليس هناك مشكلة... أنت مجهد اليوم.

أو تقول:

- لقد مررت بتجربة قاسية جدًا يا محمد، والسجن يؤثر في كفاءة الرجال كما يقولون.. أنت في حاجة إلى بعض الوقت؛ لتسترد لياقتك النفسية وعافيتك الجنسية.

لم أكن أرد على مبرراتها، بل كنت أنظر إلى الأرض دومًا، وهي تلقي رأسها في صدري أثناء تقديم عريضة التبريرات هذه، ثم تقبل يدي وتنهض؛ لتأتي لنا ببعض الفاكهة، أو تعد قليلًا من العصير في المطبخ الصغير للاستوديو، الذي استأجرناه في بناية تقع في شارع الملك فيصل بالشارقة.

لم أفكر لحظة في أن أخبر عزة بما جرى لي من فشل على أسرة العاهرات فيما مضى.. كما لم أقوَ على أن أعلن لها أنني فيما يبدو عاجز جنسيًا قبل السجن وبعده. وأنها ستظل محرومة إلى الأبد من نعمة الأمومة، إذا ظلت زوجة لي.

ثلاثة أشهر والمسافة بين عزة وفؤادي قبلتين لا أكثر، ومع ذلك لم تشك ولم تتذمر.. لكنني كنت ألمس شحوب وجهها تدريجيًا، فأبتئس وأكتتب، وكنت أتأمل خفوت ابتسامتها مع مرور الأيام، فأحزن وأنزعج. وكنت أشعر بانطفاء ورود أنوثتها مع الوقت، فأتألم وأتوجع.. وكنت أرنو إلى صمتها الذي يلازمها فور خروجنا من الشركة وحتى دخولنا إلى البيت، فأبادلها صمتًا بصمت، وهما بهما!

في كل مرة أهب من سريري عاريًا مخذولًا، أدور في الاستوديو لا أعرف ماذا أفعل؟ أتهرب من عينيها، وأقاوم نظراتها المتسائلة بدخول الحمام، والمكوث فيه أطول فترة ممكنة، حتى وصل منصور ابن خالتي من القاهرة، بعد أن صار أبا لطفل أطلق عليه اسم «كامل».

في أول لقاء لنا على مقهى «ذكريات»، بحث له بكل شيء، بل لم أتمالك نفسي وأنا أفيض في الحديث، فبكيت ووضعت وجهي بين يدي. - هوّن عليك يا محمد... ستزول هذه الغمة حتمًا.

قالها وهو يضع يده فوق كتفي مواسيًا.. كان منصور فرحًا بأبوته الجديدة، فأخذ يحدثني عن مشاعره، التي تفجرت بعد أن أشرقت الدنيا بوجه «كامل» كما أكد لي. تعجبت أنه لم يحاول أن يناقش معي المعضلة التي تؤرقني، وتفسد عليّ حياتي، إذ ما فتئ يحكي لي كيف استقبل والداه وأشقائه وصول ابنه «كامل» إلى الدنيا، وكيف تنبأ له جده - والد منصور - بأنه سيكون من العظماء؛ لأنه لا ينظر إلا إلى أعلى مثلما كان يفعل أمير الشعراء أحمد شوقي، على حد قول الجد. سرد لي منصور الكثير عن «كامل» وحضوره وبهائه وفرحته به، ثم توقف عن الكلام فجأة، وجذب نفسًا عميقًا من الشيشة، والتفت يمنة ويسرة قبل أن يسألني:

- هل تمانع في أن نطرح مشكلتك على الأستاذ صلاح الغندور؟

قال ذلك بصوت خفيض، على الرغم من أن رواد المقهى في ذلك المساء لم يكونوا بالعدد الكبير.. مفاجأة غير متوقعة. ولماذا الأستاذ

صلاح بالتحديد؟ وكأن منصور أدرك ما يعتمل في ذهني؛ فلم ينتظر كثيرًا ليكمل اقتراحه الغريب:

- أدري أنك لن تملك القوة النفسية للذهاب إلى طبيب.. دعنا نبدأ بالأستاذ صلاح، فثقتي به لا حدود لها، وأظن أنه سيقدم لك حلولًا ناجعة، لأنه درس علم نفس أولًا، ولأنه من أولئك الذين يسارعون في الخيرات ثانيًا.. وقد لمست ذلك بنفسك.

- ولكن؟

لم يمهلني حتى أكمل سؤاله أو تعليقي؛ إذ قفز منصور فوق لساني هاتفًا:

- إذا أخفق الأستاذ صلاح، فليس لك سوى الطبيب... والله يعينك.

حسنًا... ظننت أنني سأجد حلًا لمصيبتني عند منصور، فإذا به يعترف، من دون مباشرة، بأنه لا يملك الحل، وأن الأستاذ صلاح هو الأقدر على تتبع مشكلة عويصة كهذه، وفك طلاسمها. حقًا... لقد ضربت عليّ الدلة.

نعم... أنا أحترم الأستاذ صلاح، وأحبه، بل يمكن القول أنني من المفتونين به كرجل.. لكن أن أتعرى أمامه، وأسرد له وقائع خيالي مع النساء أمر صعب، بل صعب جدًا. ولكن هل أنا قادر على مصادقة العجز على سرير عزة المسكينة كل مساء؟ وأول أمس شاهدنا معًا فيلم «الطريق» لشادية ورشدي أباطة، فاحترق فؤادي، وأنا أتابع هزولة البطلة نحو عشيقها لتروي ظمأها الأثوي؛ ذلك لأن زوجها أصبح غير صالح للاستخدام

الذكوري.. شمت عزة رائحة النيران التي تتقد في أحشائي، وأنا أتأمل سيناريو الخيانة على شاشة التلفزيون، فقامت بتغيير القناة، وهي تفسر - مجاملة لي - ما أقدمت عليه:

- إنه فيلم بائخ لا يستحق المشاهدة.

حدجتها بنظرة أسف، ولم أعلق.. والآن يؤكد لي منصور أن ابن عم الأستاذ صلاح تعرض لتجربة مماثلة لتجربتي، وقد استطاع أن يتجاوزها بنجاح بفضل تدخل الأستاذ صلاح ومعاونته له.

- منصور... هل يمكن أن يفشي الأستاذ...

قاطعني منصور بحدة قبل أن أكمل، وهتف بصوت عال، أعتقد أن كثيرًا من رواد المقهى قد سمعوه:

- الأستاذ صلاح أنبل الناس... لا يفشي أسرار أحد... وابن عمه هو من حكى لي مأساته، وليس الأستاذ صلاح؛ لأنه يعمل هنا في بنك دبي، فتعرفت عليه وصرنا صديقين، قبل حضورك إلى هنا بمدة.

كلام قاطع ومطمئن لا ريب، ولكن من أين تواتيني الجرأة على الحديث أمامه.

- انصت لي يا محمد... سأحدد لك موعدًا مع الأستاذ صلاح، وسأكون معك، فلا تقلق ولا تضطرب.

حسم منصور القضية، وحاول أن يزيح عني همًا كبيرًا بحضوره جلسة المكاشفة، التي تمت بأسرع مما كنت أتوقع؛ إذ فاجأني، عندما عدت إلى

بيتي في اتصال تليفوني، بأننا سوف نلتقي الأستاذ صلاح في منزله في التاسعة مساء الغد!

فتح لنا الأستاذ صلاح بنفسه الباب.. كان يرتدي «روبا» أحمر فوق بيجاما ذات لون أزرق حالم.. قلت لنفسى «حتى وهو يرتدي ملابسه المنزلية، لا يتخلى عن أناقته». استقبلنا بود شديد، ثم تقدم نحونا أحد ابنه ليصافحنا بأدب ولطف، وعاد إلى مجلسه أمام الكومبيوتر.. أوضح لنا الأستاذ صلاح بذكاء؛ حتى يشرح صدري أن زوجته في مؤتمر بالكويت، وستعود بعد ثلاثة أيام، بينما ابنه الثاني يغط في النوم بعد عودته من النادي؛ حيث يتلقى تدريبات في الكاراتيه والتنس.. قال ذلك بنبرة لا تخلو من فخر وسرور.

ما إن جلسنا في الصالون الفخم، حتى هلت علينا خادمتها الفلبينية ذات النهود النافرة والمؤخرة المكتنزة، تحمل الشاي والكيك.. تابعت تحركاتها خلصة، وتذكرت أنها كانت كنزي الأنثوي أكثر من مرة، وأنا أمارس العادة السرية.

خمس ساعات كاملة حكيت فيها تجاربي المرأة مع هند وإيرينا وسوما. حتى عندما أمر خادمتها بإعداد العشاء، لم يتوقف الأستاذ صلاح عن الأسئلة، ولم أبخل أنا بالإجابة.. كنت جائعاً، فالتهمت الطعام بسرعة؛ خاصة أنه كان طعاماً بسيطاً ولذيذاً مكوناً من البيض المقلي والسلوق والفول والجبن والقشدة والمربى والمخلل.. لاحظت أن الأستاذ صلاح لم يأكل إلا بضع لقيمات صغيرة، بعكسي أنا ومنصور؛ حيث أعدنا الأطباق

كما كانت بيضاء من غير سوء تقريبًا.. لكن الأستاذ صلاح أفرط في تناول القهوة، فطلب من خادمته أن تعد لها أكثر من مرة.

في البداية، كنت أتحدث باضطراب شديد، فكانت تتكسر على شفتي بعض الحروف، فتخرج مرتبكة وقلقة. ولكن مع مرور الوقت، ومع تشجيعه لي أن أفيض ولا أخجل، بدأ لساني في التدفق، واستقامت عباراتي. ومع ذلك حين سألني عن العادة السرية، وهل أمارسها وكيف؟ اعتراني بعض الخفر، لكنني أجبته بكل صراحة ووضوح. وأخبرته أنني أجد لذة كبرى في ممارسة هذه العادة، وأني أمتلك مقدرة على استدعاء أي امرأة في خيالي ومضاجعتها، بل عدت له بعض أسماء النساء اللاتي جذبتن نحو خيالي، ومعظمهن مشهورات.. لكنني لم أجروُ أبدًا على أن أشير إلى أن خادمتي الفلبينية ضمن هؤلاء النسوة!

كان الأستاذ صلاح ينصت لي باهتمام بالغ، وكان يدون بعض الجمل في ورقة صغيرة أمامه، فلما رأى الدهشة تتراقص في عيني، ابتسم وقال: - أنا لست طبيبًا نفسيًا، ولكنني أسجل نقاطًا مهمة، حتى نحاول أن نقبض على جوهر المشكلة معًا.

أعجبني تواضعه وصراحته، ولكنني فوجئت بسؤاله عن أقدم شيء أتذكره في حياتي وما زال عالقًا في ذاكرتي.. لم أفهم الهدف من هذا السؤال، وهو لم يشرح. ومع ذلك أخبرته عن مشهد قديم يوترني كثيرًا كلما عبر خيالي، وهو حين ضرب أبي شقيقي الأكبر حسن بقبضة يده في وجهه، فأسقط سبته الأمامية؛ الأمر الذي أدى إلى صراخي الشديد،

عندما رأيت الدم يسيل من فم أخي، فنهزني أبي بعنف وضربني في كتفي ليسكنني!

عندما عدت إلى بيتي في تلك الليلة، كنت سعيداً جداً، وأشعر أن جسمي قد خفّ، بعد أن تخلصت من أثقاله التي لا تحصى، بل كنت أود أن تنقضي الساعات بسرعة، لأعاود اللقاء مع الأستاذ صلاح في مساء الغد، لنستكمل الحديث كما اتفقنا، بعد أن أنهاء بذكاء، مؤكداً لي أن الإجهاد قد حلّ بنا نحن الثلاثة. فور دخولي إلى المنزل، داهمتني رائحة عزة الباذخة وعطرها الأخاذ.. كانت شبه نائمة في قميص نوم وردي، أظهر مفاتنها في أحسن تقويم، فأضرم جسمها اللين ومنحنياته الأسرة نيران الرغبة في جسدي.. اقتربت منها بهدوء، لأقبل وجنتيها وأنا أرتجف، فبادلتني قبلة بقبلة طويلة.. سألتني إن كانت تعد لي طعام العشاء، وهي تحاول النهوض. شكرتها وأخبرتها أنني تناولت عشاءي في منزل الأستاذ صلاح، حيث كذبت عليها وأعلمتها أنني أذهب إليه بصحبة منصور؛ لنسهر ونسلى بلعب الشطرنج. ضممتها في صدري بلهفة، وأنا أسعى لنزع قميص النوم عنها، ولكنها منعتني برفقتها المعتادة، وهي تهمس:

- لا... لقد جاءني الدورة الشهرية عصر اليوم.

انزعجت... وابتعدت عنها قليلاً بصورة لا إرادية، وأنا ألعن حظي، لأن شهوتي في تلك الليلة كانت أقوى من الزلازل والبراكين.

العجيب أن منصور الذي لم ينطق بكلمة في لقاء الأمس، تدخل اليوم في الحديث أكثر من مرة، سائلاً وموضحاً وساخراً؛ فقد استقبلنا الأستاذ

صلاح بمحبته المعروفة وسألني عن أحوالي، فأكدت له أنني كنت سعيدًا
أمس، حيث شعرت أن جسدي تخفف من أحمال كثيرة، عندما نثرت
همومي على عتبة باب منزله. ابتسم، فتألفت وسامته أكثر، ثم باغتني بهذا
السؤال:

- هل تذكر طفلة معينة كنت تلعب معها في الحارة، ودارت بينكما أشياء
خاصة؟

ضحك منصور لدرجة القهقهة، وهو يصرخ أو يكاد:

- منى ابنة عم محمود العطار طبعًا... أليس كذلك؟

رمقنا الأستاذ صلاح بنظرة تعجب؛ حيث كان كل منا يسدد بصره نحو
الآخر. ابتسمت، وأنا أخفض رأسي موافقًا على إجابة منصور.. كالعادة
جاءتنا الخادمة الفلبينية بالشاي والقهوة والفواكه، ثم العشاء، في حين
شرعت في سرد حكايتي بمنى. قلت له كيف كنت أحب التودد إليها،
واللعب معها.. لكن أولاد الحارة الأكبر سنًا كانوا يستحذون على كثير
من اهتمامها. ومع ذلك، كنت أشعر أن منى تخصص لي جانبًا من رعايتها؛
فمرات كانت تشتري لي ولها «شيسبي»، ومرات تقاسمني الشوكولاته
الخاصة بها. ومرة أحضرت فانوس رمضان، وجعلتني أمسكه، وطلبت
مني أن أدور حولها، وهي تغني «وحوي يا وحوي».. ثم شجعتني على أن
أردد وراءها مطلع الأغنية الشهيرة، ففعلت وأنا في غاية السرور.

تجمد لساني وتوقفت فجأة عن الكلام، وأنا أطرق محتشدًا بحزن

كبير.

- هه... ماذا تذكرت؟

سألني الأستاذ صلاح بلهفة، وكأنه أدرك ما جال بخاطري، حين لاحظ أن سكوتي زاد عن الحد المتوقع.. أما منصور فهبّ واقفًا، ومدّ يده ليزيل بمحبة أثر تقطيب الحاجبين، الذي انطبع في وجهي.. شكرته بهمة غير مسموعة، وأنا أردد:

- أبدًا... تذكرت موقفًا مؤسفًا.

- ما هو؟ أخبرنا به فورًا من فضلك.

لم أكن أتخيل لحظة أن هذا الموقف المؤلم هو الذي يحجب عني متعة اختراق النساء، وأن الصفعة التي تلقيتها من أبي أمام منى، ستحول بيني وبين أن أتلذذ برجولتي كاملة مع المرأة.. كان يومًا أسود. أذكره جيدًا.. كنت في الصف الخامس الابتدائي. وكنا نلعب، نحن أطفال الحارة، لعبة «الاستغماية».. وكانت بشائر ليل الصيف تهل علينا، محملة بنسيم طري أحبيناه وفرحنا به.. قلت لمنى، ونحن نبحث عن مكان مختلف نختبيء به من الأطفال الذين يبحثون عنا:

- هيا ندخل تحت بئر سلم بيتنا.

- فكرة جميلة... هيا بنا.

هزولنا منى وأنا نحو بيتنا المتهالك.. دفعنا الباب الخشبي القديم بكل طاقتنا، فأصدر أنينًا تعودنا عليه، ودخلنا لتتخذ موقعنا في بئر السلم المظلم.. خافت منى والتصقت بي.. اعتراني الخوف أنا أيضًا، لكني

حاولت أن أبدو أمامها شجاعاً، فطمأنتها ألا شيء هناك يدعو إلى القلق، وأن هذا المكان سيوفر لنا فرصة ذهبية للاختباء من زملائنا!

بعد فترة صمت قصيرة، كنا نسمع فيها صخب قلوبنا المنتفضة من فرط الخوف من العتمة، صرخت منى فجأة؛ لأنها شعرت أن حشرة ما لدغتها.. في تلك اللحظة دخل أبي البيت عائداً من عمله، فسمع الصرخة.. توقف وسأل: من هناك؟ خرجنا، منى وأنا، من بئر السلم مرتبكين.. فلما رأي أبي ومنى ملتصقة بي، هوى بكف يده الغليظة، وهو يسبني ويصرخ:

- يا ابن الكلاب... ماذا تفعل هنا في الظلام؟

ألقي غضب أبي في قلب منى الرعب، فهربت وتركني أبكي منفرداً، بعد أن دفعني أمامه إلى شقتنا، وهو يلعن أُمي، التي فوجئت بشتائمه وألفاظه البذيئة تسبقه إلى المنزل:

- ابنك يصطحب البنات إلى بئر السلم في الظلام ليعبث معهن!

كانت ليلة كئيبة، حيث نالت أُمي من السباب ما يكفي لإهانة قبيلة من النساء.. أما أنا فظللت فترة ممنوعاً من الخروج من البيت. ولما سُمح لي بالنزول إلى الحارة مؤخراً، خشيت الاقتراب من منى أو التحدث إليها، على الرغم من أنها كانت تحاول الكلام معي.. لاح لي أنها نسيت الصفعة والشتائم التي طالتني، ولكنني لم أنس ولم أسامح.

كنت أسرد هذه الواقعة الموحجة بصوت يرتجف وإيقاع سريع.. وحين انتهيت، أشار الأستاذ صلاح بيده أن أكف عن الكلام، ثم أعطاني عصير البرتقال لأواصل تناوله، إذ كنت رشفت منه قليلاً.. لم أنتبه إلى حجم

الصمت الذي ساد، بعد أن توقفت عن سرد هذه النائبة.. كما لم ألتفت إلى الدموع القليلة، التي ترقرت من عيوني، إلا وأنا أجفنها.. بصوت رخيم وأداء واثق، قال لي الأستاذ صلاح:

- مأساتك تكمن في هذه الحادثة المؤسفة.

- كيف يا أستاذ؟.. سأله منصور ..

أجاب الأستاذ صلاح على سؤال منصور، وهو ينظر في عينيه، متحدثًا عني بضمير الغائب، ولا أعرف لماذا!

- أظن أن الإهانة والقسوة والضرب الذي تلقاه من والده أمام منى وهو طفل، كل هذا جعله يرتعب من الاقتراب من أي امرأة بصورة طبيعية؛ إذ صار التواصل الحميم مع المرأة يستدعي فورًا - من دون أن يعي ذلك - ذكرى مشؤومة، قد تعرضه للضرب والإهانة، فتتعطل حواسه وغرائزه تلقائيًا!

- لكن هذه الواقعة لا تطفو على سطح ذاكرتي إلا نادرًا.

قلت ذلك بسرعة وأنا أوزع بصري بين الاثنين.. اعتدل الأستاذ صلاح في مقعده، وتناول رشفة من فنجان القهوة، قبل أن يستطرد في الكلام، بعد أن يمم بصره نحوي:

- انصت لي جيدًا يا محمد... ليس مهمًا أن تظل هذه الواقعة تقرع ذاكرتك ليل نهار.. المهم والمحزن أنها تركت حفرة فاسدة في قاع ذاكرتك، لم يتم علاجها، فصارت تحول، وأكرر من دون أن تعي، بينك وبين أي فتاة تقترب منها بشكل ذكوري.

ثم توقف عن الكلام قليلاً، قبل أن يهتف ضاحكاً:

- أنا أجتهد معك في محاولة لفك اللغز الجنسي الذي يعتريك، علماً وأكرر أنا لست طبيياً نفسياً.. صحيح أنني تخرجت في كلية الآداب قسم علم نفس، ولكنني لست طبيياً، وإن كنت أعشق هذا العلم وأقرأ فيه كثيراً.

خيّمت لحظات صمت عقب هذا الكلام القاطع، الذي قاله الأستاذ صلاح، فاستغلها منصور ليتوجه نحو طبق الفاكهة الكائن فوق منضدة صغيرة بجوار باب الغرفة، وأتى بإصبعين من الموز.. أعطاني أحدهما والتهم الآخر.. فازدردته بسرعة. راقني كثيراً طعم الموز، وتمنيت لو أكلت إصبعاً آخر، ولكنني استحييت أن أطلب ذلك من منصور، أو أن أقوم بنفسي لإحضاره.

بعد أن عبّ منصور الكثير من الماء، سأل الأستاذ صلاح، الذي انشغل بتدوين بعض الأفكار في الورق الذي أمامه:

- إذا كانت هذه هي المشكلة، فما الحل يا أستاذ؟

يخيّل إليّ أن الأستاذ صلاح لم تكن لديه إجابة جاهزة لسؤال منصور؛ إذ بدت نظراته حيرى وهو يتفحصني، فضلاً عن كونه استأذن في الانصراف للذهاب إلى الحمام، من دون أن يرد على السؤال.

ولما آب إلى مجلسنا أمطرني بهذه العبارات:

- أعتقد أننا أمسكنا عصب المشكلة يا محمد، فلا تجزع منها. ولا تخجل من عثراتك مع النساء؛ فكلنا مغمورون بخطايا وآثام.. وكلنا محرومون

من التمتع بنفوس سوية. أنا مثلاً أكذب أحياناً على زوجتي، وأصبغ شعري منذ أكثر من عشر سنوات؛ حتى أبدو أصغر سناً وأكثر شباباً، أي إنني أخدع الناس. علاوة على أنني لا أستحي أن أناق بعض رؤسائي هنا؛ حتى أحتفظ بوظيفتي.. كما أنني هربت، كما يتهمني الرفاق القدامى ومنهم المرحوم بدر المنيأوي، من معركة النضال ضد النظام في مصر؛ من أجل إشعال الثورة. كذلك هجرت المنظمة السرية التي كنت عضواً فاعلاً بها، وجئت إلى الخليج. وقد تلقيت تقريباً لا حدود له، ومازلت، من أصدقاء وزملاء؛ لأنني تخليت عن أحلامنا بإنصاف الفقراء والإطاحة بالسلطات الغاشمة. باختصار... لا أحد منا يخلو من عيب أو أكثر، والإنسان الناجح حقاً هو من يحاول أن يعرف عيوبه، ويسعى لتجاوزها، والتخلص من آثارها السلبية. بالنسبة لي مثلاً - قال ذلك وهو يرتشف القهوة - أجد أن الكتابة تطهرني بشدة؛ فأنا أكتب يومياً، سواء مقالتي الصحفية، أو إبداعاتي الخاصة من شعر وقصة ودراسات نفسية، والتي لم أجروها حتى الآن على نشرها؛ خوفاً من ألسنة النقاد وأقلامهم. وهذا عيب آخر يضاف إلى عيوبي.. المهم يا محمد أن تدرك أن الكتابة حل عبوري للتحرر من أسر مصائبنا النفسية.

وقع كلام الأستاذ صلاح علينا كالصاعقة، وظل منصور يتأمله باندهاش مخلوط بإعجاب كبير.. أما أنا، فاستراحت هواجسي، وأنا أتمتم في سريري «الكمال لله وحده». في حين استأذن الأستاذ صلاح في الانصراف قليلاً ليطمئن على ابنه. ولما عاد، كان منصور قد بدأ في تناول قطعة شوكلاته من العلبه الفخمة، التي تستقر فوق منضدة صغيرة بين مقاعد الصالون.. بادرني الأستاذ صلاح سائلاً:

- ما رأيك؟

ابتسم منصور، وهو يشير بسبابته نحوي هاتفاً:

- إنه لا يقرأ أصلاً... فأني له أن يكتب؟

أزعجني تعليق منصور، واعتبرته سخيلاً جداً، ذلك أنني شعرت بالخزي والضآلة؛ لأن الأستاذ صلاح رفع حاجبي الاندهاش، عندما ارتطمت بأذنه عبارة منصور البائخة. ثم سألني بابتسامة مقتضبة:

- حقاً... ألا تقرأ؟

تولى منصور الإجابة فوراً فقال:

- إنه لا يطيق عليها صبراً.

زاد اتساع فم الأستاذ صلاح، حين لاحظ ارتباكي وهروب نظراتي نحو الأرض، فزادت ابتسامته، وهو يضع يده على ركبتني هامساً:

- لا تحزن... إنه أمر عادي، فمعظم الشباب لا يقرأون الآن!

ثم نهض الأستاذ صلاح ووقف خلفي، فلما حاولت القيام معه تأدباً، منعني وطلب مني أن أظل جالساً، وهو يتحدث بصوت رخيم:

- يا محمد... أظن أنك تواجه مشكلة عويصة وحرجة، كما أعتقد أننا لا يمكن أن نتجاوزها؛ حتى تستعيد ذكورتك بشكل طبيعي إلا بمغالبة النفس. لذا يخيّل إليّ أن مجاهدة الذات أمر لا بد منه في الحياة بشكل عام، ومعك أنت بشكل خاص.

- ماذا تعني يا أستاذ؟

سألته وأنا أكاد أهم بالوقوف، فمنعني مرة أخرى، وعاد إلى مكانه، وهو يصرح بنبرة قاطعة، كأنه يصدر أمرًا:

- يجب أن تدرك أن هناك نهرًا ينبغي عبوره، وعليه يتحتم أن تكتب تجربتك... لا أعرف كيف؟

ثم عقب من دون أن يعطي أيًا منا فرصة للتعليق:

- جاهد نفسك وأكتب... سيساعدك منصور... سأساعدك أنا.. المهم أن تسجل المأساة التي تكبلك من جراء القهر الأبوي، كما عليك أن تفكر جديًا في أن تلتمس العذر لأبيك، أو قل أن تتفهم سلوكه الخشن معكم، الذي كان انعكاسًا لظروفه غير المواتية. عمومًا، فالرجل قضى نحبه الآن، ولم يعد يجدي أن يظل موقفك منه سلبيًا كما فهمت من كلامك.. كل هذا لا يمنع بالطبع من استشارة طبيب متخصص إذا شئت، أو إذا لم تقو على الدخول في مضمار الكتابة.

مكثت عدة أيام أفكر، فيما قاله لي الأستاذ صلاح الغندور، في ضرورة أن أكتب تجربتي في الحياة؛ حتى أتخلص من أثقالها وأحمالها الكثيرة، وأهمها الشعور بالقهر الذي غرز بذرتة الفاسدة في داخلي أبي رحمه الله. نعم... لقد تسامحت معه الآن، ولا أطلب له سوى المغفرة، كما شرح لي الأستاذ صلاح.

ولكن كيف سأكتبها، ومن أين أبدأ؟ وأنا لا أملك مهارات الكتابة.. وعزة تشجعني وتصبر على ضرورة أن أخوض التجربة، وأنها ستوفر لي المناخ الملائم.. لقد حكيت لعزة كل شيء، ولم أخفِ عنها أي موقف،

تعرضت له مهما كان مذلًا ومهينًا كما نصحني الأستاذ صلاح، وقد رحبت
عزة بآرائه وأيدت اقتراحه بشدة.

جميلة عزة ورقيقة، وتحملت عجزي كثيرًا.. ولكن هل أكتبها كأنها
سيرة حياتي كما يقول منصور؟ أم باعتبارها رواية غريبة أنا بطلها، كما
يقترح الأستاذ صلاح؟ إن الرواية فن صعب جدًا كما شرحوا لي، وتحتاج
إلى جهد كبير وصبر أكبر. ومع ذلك تبقى الرغبة في الإنجاز هي الدافع
الأول في تحقيق هدفي.. هل أنا حقًا متحمس لأن أزيح همومي من
صدري؟ هل أنا فعلاً راغب في تخطي أزماتي النفسية والجنسية التي
لازمتني طويلاً؟ نعم... فضلك يا عزة لا ينكر، وحضورك البهي في فؤادي
نعمة أحمد الله عليها وأشكره.. ولكن يظل السؤال متعبًا ومحيرًا... من
أين أبدأ؟ لقد اقترح الأستاذ صلاح أن أقسم حكايتي، أو سيرتي، إلى عدة
أقسام ليسر عليّ الأمر؛ حيث أضع على كل قسم اسم شخص محدد، من
الذين تأثرت بهم، أو أثرت فيهم. وهل أنا أثرت في أحد؟ عزة تؤكد أنها
أحبنتي منذ اللحظة الأولى. وأنها على يقين تام بأننا سنبنّي أسرة سعيدة،
يمرح فيها أطفالنا ويكبرون أمام أعيننا.

حسنًا... كل هذا رائع وجميل، ولكن أنا ليس لي صبر على القراءة،
فكيف سأخوض عباب البحر الواسع للكتابة؟ وبفرض أنني تمكنت من
وضع الجملة الأولى، فهل أمتلك العزيمة اللازمة للاستمرار حتى النهاية؟
عزة ومنصور وسمية الأبراشي، التي انضمت إلى قافلة المهومين بشؤوني،
وقبلهم الأستاذ صلاح يؤكدون أن الإرادة هي مفتاح النجاح.. وأن الخطوة
الأولى هي الأهم، وهي التي ستقودنا إلى إنجاز بقية الخطوات!

حسنًا... فلأنهض.. قمت من سريري متوجهًا نحو منضدة صغيرة في طرف الصالة، كانت عزة قد أعدتها لي مع أوراق بيضاء، وعدة أقلام متنوعة الأحجام والألوان، حتى تغريني بالإقدام.. منصور أيضًا لم ييخل عليّ بالنصائح والروايات، حيث أمدني بعدد لا بأس به منها، وهو يقول: «حاول أن تقلدها». وهكذا وجدّني أقرأ عدة صفحات من «خان الخليلي» و«الحب في المنفى» و«سرد أحداث موت معلن» و«ابنة الحظ» و«خفة الطائر التي لا تحتمل» و«السراب».. وقد شجعتني عزة على المواصلة والاستمرار، لدرجة أنها كانت تتولى هي القراءة بصوت عال، ونحن جالسان فوق السرير.

ومع مرور الوقت رأيتني معجبًا ومشدودًا إلى «سرد أحداث موت معلن».. وبعد أن انتهينا من قراءتها، أشفقت على ساتياجو نصار، وحزنت لموته المأساوي، كما أن عزة بكت، وهي تتلو المشهد الأخير، الذي يصور كيف قتلوه.

وضعت عزة الروايات التي أعارها لي منصور فوق المنضدة، حتى تكون في متناول يدي وأنا أكتب، لأستفيد منها.. أمسكت «خان الخليلي» ثم أعدتها بسرعة من دون أن أتصفحها! أسمع صوت عزة يخاطبني من المطبخ، وهي تحرضني على البدء قائلة:

- هيا... لا تقلق... سأفرغ من إعداد «المحشي»، وأجلس بجوارك لأشجعك..

لا أعرف كيف كانت أيامي ستمر من دون عزة! ابتسمت وأنا أرد على عبارتها بصوت عال نسيًا:

- سأبدأ الآن إن شاء الله.

أمسكت القلم ونظرت إلى الورقة البيضاء أمامي، فتوترت، وهممت بالانصراف، لكنني تذكرت جملة الأستاذ صلاح «جاهد نفسك واكتب»، فظللت قابلاً في مقعدي! قلت لنفسي... أبدأ بعزة لأنها هي التي أخرجتني من العتمة إلى النور، فكتبت: «عزة أعلى إنسان قابلته في حياتي».

شعرت أن البداية غير مثيرة، وأن العبارة التي كتبتها مكرورة وركيكة، فشطبتها!

لاح لي أن أبدأ بأبي، فهو أس المشكلة، وقد فرحت لهذا الخاطر، فكتبت: «أبي كان يقهرني منذ الصغر، ولا أعرف لماذا؟».

أعجبتني البداية قليلاً، ولكنها لم ترق لي بعد دقائق!

فجأة تذكرت أمجد صفوان، أغرب من قابلت في حياتي، فأشفقت عليه؛ لأنه يقضي عقوبة السجن في دبي لمدة خمسة عشر عاماً بتهمة الاتجار بالمخدرات.

تذكرت أمجد، وهكذا كتبت «لقد تعرفت على أقدر شاب في حياتي».. قرأت عزة العبارة وهي تقف خلفي، فنبهتني إلى أن القارئ قد يظن أن القذارة هنا مرادف للسلوك المرذول، وليس عدم نظافة الجسد.. وافقتها وشطبت هذه البداية، وأنا أشعر بعجز تام.

وقفت، ثم زرعت الاستوديو ذهابًا وإيابًا يداهمني قلق كبير.. أوقفتني
عزة برفق وهي تهمس:

- لا تيأس بهذه السرعة... ستجد المدخل المناسب إذا تحليت بالصبر.

قبلتها في جبينها، وأنا أغمغم بصوت لا يكاد يسمع:

- أشكرك يا حبيبتى... سأحاول مرة أخرى، بعد أن نتناول غداءنا.

في مساء اليوم التالي، بينما نتابع أنا وعزة الحلقة التاسعة من مسلسل
«رأفت الهجان» الذي لا أمل من مشاهدته كلما أعادوا عرضه، قفزت من
مكانى نحو الأوراق، وأنا مشحون برغبة قوية في أن أكتب.. كانت هند
هي التي راودت خيالي لأترك رأفت الهجان ومغامراته، ورحت أسجل:
«هند المغربية كادت تودي بي إلى السجن، عندما جعلتني أحفظ بحقيبتها
المملوءة بالحشيش». أعجبتني هذه البداية.. لكن حين أعدت قراءتها أكثر
من مرة، فقدت حماسي لها، فشطبتها. لكن وأنا أشطبها، خطر لي مطلع
آخر أظنه أفضل، فابتهجت ودعوت عزة، لتقف بجوارى لتقرأ ما سأكتبه،
وتخبرني برأيها.

وهكذا أمسكت القلم لأسجل أول جملة في الرواية، التي أعلم جيدًا أن
منصور ابن خالتي سيعيد صياغتها بلغة أكثر فصاحة وإشراقًا، حتى يجعلها
أكثر تشويقًا.

هذا ما كتبتّه:

«نعم... أنا لم أتمكن من تقبيل أي فتاة طوال حياتي، على الرغم من أنني سأكمل ثلاثين عامًا بعد شهر واحد فقط من الآن».

القاهرة، الشارقة، البحرين

من 2008 / 7 / 28

إلى 2010 / 8 / 30

قالوا عن أعمال ناصر عراق

«هذا هو الزمن الذي عاشه أبطال الرواية، زمن من غبار، وهذا هو العالم الذي صوّره المؤلف فأحسن تصويره... فناصر عراق رجل متعدد المواهب... وقد منحته مواهبه المتعددة ثقافة موسوعية تظهر في كتابه الأخير الذي يتحدث فيه عن الأخضر والمعطوب في الثقافة والفن والحياة... لقد قرأت كتاب ناصر عراق واستمتعت، به كما قرأت روايته «أزمة من غبار» واستمتعت بها».

أحمد عبد المعطي حجازي

الأهرام 14 / 10 / 2009

«أزمة من غبار» و«من فرط الغرام» روايتان جديرتان بالقراءة، مفعتان بالمحبة والألم، تؤكدان معاً أن الأدب الواقعي يساهم في فهم أفضل للواقع، وأن له بالتالي قيمة معرفية نظرية علمية ونقدية أو تعليمية كما يقول «بيير زيمّا» الناقد التشيكي».

فريدة النقاش

مجلة الرواية - الهيئة العامة للكتاب 2009

«تشع رواية «من فرط الغرام» بأضواء الافتتان بجماليات المكان... ويكمن جانب كبير من شعرية السرد في هذه الرواية، في طريقة طرح أحلام هؤلاء الصحفيين في تحقيق الذات، ودرجة اعتدادهم بإنتاجهم الشعري والقصصي والنقدي ومهاراتهم المهنية. ومع ذلك، فإن الرواية تقدم لنا صورة شعرية شفيفة ومرهفة لمواجهة جيل من الصحفيين المحترفين للعمل الثقافي، وشبكة علاقاتهم بمجتمعاتهم المحبطة، وشغف ممارستهم لحرية الإبداع المهني وطموحاتهم وأحزانهم الصغيرة».

د. صلاح فضل

الأهرام 2008/8/4

«تغري رواية ناصر عراق «من فرط الغرام» بقراءتها في جلسة واحدة... تحمل قارئها إلى عالم لا يخلو من بساطة... كل ذلك في لغة بالغة البساطة والألفة... وقدرة تشكيلية على السرد، الذي يغري بالمضي في القراءة».

د. جابر عصفور

جريدة الحياة 2008/8/32

«على أن هذه الملاحظة لاتمنعنا من الانحياز لرواية «من فرط الغرام»، التي ينجح صاحبها في كشف النقاب عن جوانب معقدة من حياة المثقفين العرب، وهو ما يقدمه ناصر عراق بلغة بعيدة عن التعسف».

شوقي بزيع

جريدة الحياة 2009/9/7

«توفر ناصر عراق على أسس حرفية لافتة في روايته «أزمة من غبار»، لا يمكن المرور بالعمل دون التوقف عندها، ومن أبرزها عمل الذاكرة

الحيوي والنشيط، الذي جعل الأمكنة حاضرة بروائعها المميزة: البيت والمقهى والمرسم والحديقة والجامعة والمدرسة والشوارع».

د. حاتم الصقر

جريدة الثورة اليمنية 2006 / 6 / 19

«بين هذين الخطين... خط العلاقة بين الزملاء والأصدقاء، وخط الحب المتجدد، يتحرك السرد في رواية «من فرط الغرام» بسهولة ويسر... ينسجه ناصر عراق ببراعة... وتمنح النص حضوراً لطيفاً... يجعل تلقيه مقروناً بالمتعة».

سلمان زين الدين

جريدة الحياة 2009 / 1 / 25

«إن رواية «أزمة من غبار» لناصر عراق تظل واحدة من روايات النضال السياسي العربي القلائل، ذات النكهة المحببة والعالم الأليف لوجدان القارئ العربي وتعاطفه معها، بسبب من إحباطاته، وفشل النظام السياسي العربي وطغيانه».

د. صالح هويدي

جريدة الخليج 2006 / 5 / 27

«الحقيقة أن رواية «من فرط الغرام» إدانة مرة للواقع البائس المعقد، الذي يعيش فيه الإنسان المعاصر عربياً وعالمياً».

د. عبد الجبار العلمي

جريدة القدس العربي 2010 / 10 / 23

سيرة ذاتية



الاسم : ناصر عراق

المؤهل : بكالوريوس فنون جميلة -

جمهورية مصر العربية - 1984

العمل الحالي : المنسق الثقافي والإعلامي

لندوة الثقافة والعلوم في دبي

الخبرات السابقة :

مارس - مايو 2010 : منسق عام جائزة البحرين لحرية الصحافة.

2004- فبراير 2010 : مدير تحرير مجلة «دبي الثقافية» منذ عام 2004،
التي شارك في تأسيسها، والتي تصدر عن دار «الصدى» للصحافة في دبي
بدولة الإمارات العربية المتحدة.

1999- 2004 : شارك في تأسيس مجلة «الصدى» الأسبوعية، التي
تصدر من دبي، وعمل رئيساً للقسم الثقافي بها .

1998-1999 : عمل محررًا ثقافيًا في جريدة «أخبار الأدب».

1996-1998 : عمل محررًا ثقافيًا ورسامًا في جريدة «العربي الناصري».

1995-1998 : عمل مراسلًا لجريدة «القدس العربي» اللندنية ، ومراسلًا لجريدة «البيان» الإماراتية .

1995-1997 : عمل محررًا ثقافيًا ورسامًا في جريدة «الشعب» المصرية.

1991-1996 : شارك بالعديد من المقالات الثقافية والرسوم، في العديد من الجرائد المصرية منها : «مصر الفتاة» و «الأحرار» .

خبرات أخرى :

- الإشراف العام على سلسلة كتاب دبي الثقافية، وأصدر منها 33 كتابًا.
- نشرت له العديد من الموضوعات والمقالات الصحفية والدراسات في عدد من الصحف والمجلات العربية المهمة، مثل : القدس العربي - البيان الإماراتية - الجزيرة السعودية - مجلة العربي - مجلة سطور - الثقافة الجديدة - مجلة نزوى.. وغيرها..
- ألقى العديد من المحاضرات والأبحاث في فعاليات ثقافية مختلفة، مثل : بينالي الشارقة الدولي - السفارة المصرية في أبوظبي - الجمعية العمانية للفنون التشكيلية - المؤتمر الأول للنقد التشكيلي بالإسكندرية - ندوة مستقبل الفنون الجميلة بالقاهرة.

- تمت استضافته كثيرًا في البرامج التلفزيونية والإذاعية المختلفة؛ للحديث عن قضايا الأدب والفن والفكر والصحافة.
- شارك بلوحاته في عدد من المعارض الفردية والجماعية بالقاهرة.
- أسس فرقة «تمرد» المسرحية، وأسهم بنشاط في حركة مسرح الشباب في الثمانينيات وأوائل التسعينيات بالقاهرة بالتمثيل والإخراج.
- تم تكريمه من قبل عدة هيئات ثقافية، مثل: النادي الثقافي العربي بالشارقة، ووزارة الثقافة اليمنية، والمركز الكوري للثقافة العربية والإسلامية بكوريا الجنوبية، بالإضافة إلى جمعية عمان للفنون التشكيلية بسلطنة عمان؛ وذلك لنشاطه الإعلامي والثقافي.

الجوائز:

- جائزة أفضل مقال صحفي في الصحافة الإماراتية عام 2004، التي تنظمها مؤسسة تريم عمران الصحفية بدولة الإمارات العربية .
- جائزة «الموظف المبدع» التي تنظمها دار «الصدى» ، دولة الإمارات العربية، عام 2000.
- الجائزة الأولى لجمعية أصدقاء أحمد بهاء الدين - الدورة الأولى عن بحثه «تاريخ الرسم الصحفي في مصر» ، جمهورية مصر العربية، 1998.

الإصدارات:

- 1- كتاب «الأخضر والمعطوب» - «مؤسسة أخبار اليوم» - 2009 - جمهورية مصر العربية.

2- رواية «من فرط الغرام» عن «دار الهلال» - يونيو 2008 - جمهورية مصر العربية

3- رواية «أزمنة من غبار» عن «دار الهلال» - فبراير 2006 - جمهورية مصر العربية.

4- «تاريخ الرسم الصحفي في مصر» - دار «ميريت» بالتعاون مع جمعية «أصدقاء أحمد بهاء الدين» بالقاهرة ، جمهورية مصر العربية ، 2002.

5- «ملاحم وأحوال.. قراءة في الواقع التشكيلي المصري» صدر عن المجلس الأعلى للثقافة بمصر، جمهورية مصر العربية ، عام 2000.

عضو في الهيئات والمنظمات الآتية :

1- عضو اتحاد كتاب مصر.

2- عضو نقابة الفنانين التشكيليين في مصر.

3- عضو الجمعية المصرية لنقاد الفن التشكيلي.

4- عضو أتيليه القاهرة للفنانين والكتاب.

5- عضو جمعية الصحفيين بالإمارات.

6- عضو نادي دبي للصحافة.

7- عضو الهيئة الاستشارية لأول مركز ثقافي عربي في شرقي آسيا في كوريا الجنوبية.

